

سيد قريش

رواية تاريخية اجتماعية

في ثلاثة اجزاء تبحث عن حياة العرب السياسية
والاجتماعيـــة في العصر الجاهـــلي الى ظهور
سيد قريش « محمد صلى الله عليه وسلم »

تأليف
معروف الارناؤوط
عضو المجمع العلمي العربي

الجزء الثـــاني

امرؤ القيس وتيودورا

الطبعة الثـــانية

مطبعة فتى العرب بدمشق عام ١٣٥٠ هـ — ١٩٣١ م

الفصل الاول

عام الفيل

دخلت اليهودية جزيرة العرب في القرن الثالث لميلاد المسيح في عصر الملك تبع المعروف بأبي كرب الذي انتصر على الفرس في كثير من الملاحم ثم ما عتم ما هذا الملك ان اجتاح الحجاز وحاصر مدينة يثرب وزار الكعبة وحمل اليهودية الى اليمن (١) وفي ايامه تفرق اليهود في انحاء الحجاز فنزلت قبائل الاوس والخزرج على مهزور . وانتشر بنو عكرمة وبنو ثعلبة وبنو محمر وبنو زغورا وبنو قينقاع وبنو زيد وبنو النضير وبنو عوف في يثرب وكان فيهم الشرف والثروة والعز على سائر اليهود .

وافضى انبعاث اليهودية في الجزيرة الى اثارة ملوك النصرانية فأرسل قسطنطين قيصر في سنة ثلاث واربعين وثلاثمائة الأسقف تيوفيل لنشر النصرانية في القبائل ولكن الوثنية ظلت الديانة السائدة في البلاد(٢) ولم يرق انتشار اليهودية في بعض اجزاء الجزيرة قياصرة الرومان فحرضوا الغساسنة وهم عمالهم في الشام على مغاضبة اليهود وكان جبلة الثاني الغساني ملك الشام اول من دعا الى الفتك باليهود واول من استساغ سفك دمائهم وتشريدهم نزولا على ارادة معاصره قسطنطين قيصر .

وكان جبلة الثاني مزهواً بنصرانيته فلما وفد عليه مالك بن العجلان اليهودي وهو يومئذ ملك غسان سأله عن قومه وعن منزلتهم فأخبره بحالهم وضيق معاشهم فقال له جبلة والله ما نزل قوم منا بلداً الا غلبوا اهله فما بالكم ثم امره بالمضي الى قومه وقال له اعلمهم اني سائر اليهم فرجع مالك بن العجلان الى يثرب فأخبرهم بأمر جبلة ثم قال لليهود ان الملك يريد زيارتكم فأعدوا نزلا واقبل جبلة سائراً من الشام

---

(١) — (٢) سديو تاريخ العرب ص ٢٦

في جمع كثيف من الغساسنة حتى قدم المدينة فنزل بذي حرض ، ثم ارسل الى الأوس والخزرج فذكر لهم الأمر الذي قدم له واجمع على المكر باليهود حتى يقتل رؤوسهم واشرافهم وخشي ان لم يمكر بهم ان يتحصنوا في آطامهم فيمنعوا منه حتى يطول حصاره اياهم فأمر بأنشاء حائر واسع فبني ثم ارسل الى اليهود ان الملك قد أحب ان تأتوه فلم يبق وجه من وجوه القوم الا اتاه وجعل الرجل يأتي معه بخاصته وحشمه رجاء ان يحبوهم فلما اجتمعوا ببابه امر رجالا من جنده ان يدخلوا الحائر الذي بني ثم يقتلوا كل من يدخل عليهم من اليهود ثم امر حجابه ان يأذنوا لهم في الحائر ويدخلوهم رجلا رجلا فلم يزل الحجاب يأذنون لهم كذلك ويقتلهم الجند الذين في الحائر حتى أتوا على آخرهم ثم رحل جبلة الثاني الى الشام (١)

وفي أواخر القرن الخامس اعتلى عرش الحميريين ذونواس فاصطلح على اليهودية واحنقه ايغال جبلة الغساني في تشريد يهود يثرب فراح يغزو نصارى نجران وظفر بهم وخدد لهم الاخاديد وعرضهم على اليهودية فامتنعوا من ذلك فحرقهم بالنار وحرق الانجيل وهدم بيعهم وكنائسهم ثم انصرف الى اليمن وافلت منه رجل يقال له دوس ثعلبان على فرس فركضه حتى اعجزهم في الرمل ومضى دوس الى قيصر القسطنطينية وحليف الحارث الغساني الاكبر يستنفره ويخبره بما صنع ذونواس بنجران ومن قتل من النصارى وانه خرب بيعهم وبقر بطون النساء وهدم الكنائس فما فيها ناقوس يضرب به • فكتب قيصر الى ملك الحبشة النصراني ان انصر هذا الرجل الذي جاء يستنصرني واغضب للنصرانية فاوطىء بلادهم الحبشة فخرج دوس ثعلبان بكتاب قيصر الى ملك الحبشة فلما قرأ كتابه امر ارباطا وكان عظيما من عظماء الحبش ان يخرج معه فينصره . فخرج ارباط في سبعين الفاً من الحبشة وقود على جنده قواداً من رؤسائهم واقبل بفيله وكان معه ابرهة بن الصباح وكان في عهد ملك الحبشة الى ارباط اذا دخلت اليمن فاقتل ثلث رجالها

(١) الأغاني ج ١٩ ص ٩٦ — ص ٩٧

وخرب ثلث بلادها وابعث الي بثلث نسائها فخرج ارباط في الجنود فحملهم في السفن الى البحر وعبر بهم حتى ورد اليمن وقد قدم مقدمات الحبشة فرأى اهل اليمن جنداً كثيراً فلما تلاحقوا قام ارباط في جنده خطيباً فقال يا معشر الحبشة قد علمتم انكم ان ترجعوا الى بلادكم ابدا ، هذا البحر بين ايديكم ان دخلتموه غرقتم وان سلكتم البر هلكتم واتخذتكم العرب عبيدا وليس لكم الا الصبر حتى تموتوا او تقتلوا عدوكم فجمع ذو نواس جمعاً كثيراً ثم سار اليهم ، فاقتتلو قتالا شديداً فكانت الدولة للحبشة فظفر ارباط وقتل اصحاب ذي نواس وانهزموا في كل وجه ، فلما تخوف ذو نواس ان سيؤسر ركض فرسه واستعرض به البحر وقال الموت احب الي من الوقوع في اسر العبيد ثم اقحم فرسه لجة البحر فمضى به وكان آخر العهد به (١)

ودخل ارباط اليمن فقتل ثلثاً وبعث ثلثي السبي الى ملك الحبشة وخرب ثلثا وملك اليمن وقتل اهلها وهدم حصونها وكان مما خرب من حصونهم سلحون وبينون وغمدان وهي حصون وقصور لم ير مثلها (٢)

وساد البؤس اليمن وغشي الفقر اطرافها وجنباتها وكان اهلها ينعمون بحضارة وارفة الظلال مكنتهم من الاتصال بمرافق الهند والصين التجارية والاقتصادية ورفعت اقدارهم في عيون الشعوب المتحضرة كالروم والفرس (٣)

ولما اطمأن ارباط الى امره في اليمن ، ثار الحقد في نفس ابرهة الأشرم احد قواد جيشه ، فعمل على قتله للتخلص منه فبلغ سؤله في اهون سبيل . واسمى نفسه نائب الملك في اليمن (٤)

ورأى ان لا مندحة له لتوطيد سلطانه عن خوض معارك كثيرة ، فخاضها حتى

---

(١) الأغاني ج ١٦ ص ٦٩

(٢) الأغاني ج ١٦ ص ٧٠

(٣) — (٤) تاريخ العرب لسديو ص ٢٧

ظفر بخصومه ومناوئيه فاستتب له الأمر في كل ناحيـة من نواحي اليمن ، فدعا اليه اسقف ظفار القديس غرونتيوس وحمله على كتابة عقد باللغـة اليونانيـة اباح فيه نشر النصرانية في اليهود والوثنيين ، ثم انشأ في صنعاء كنيسة ضخمةاترعها بالنقوش الذهبية واليواقيت الثمينة وارادها حصناً للنصرانية في جزيرة العرب (١)

وبعد ان استقر نفوذ الحبشة في جنـوبي الجزيرة عـلى قواعد رصينة اطمأنت نفسه الى اكتساح الحجاز (٢) للاستيلاء عـــلى مكة والكعبة (٣) فزحف الى الحجاز بجيش منظم ورابط به حيال البلد الذي تسرب الذعر الى اهله فراحـــوا يتسلقون الذروات ويعتصمون بها (٤)

ولكن ابرهة لم يستطع اقتحام مكة فلبث في ضواحيها ، واطلق جنـوده في كل ناحية يحرقون الزروع وينهبون المواشي حتى وقعت ايديهم على ابل عبد المطلب بن هاشم فاستاقوها امـامهم وارسل ابرهة رجلا من قومه الى اهل مكة يسألهم عن سيد البلد وشريفهم وبلغهم ان الملك لم يأت لحربهم وانما جاء لهدم الكعبة ، فدخل الرسول الى مكة وسأل عن سيدها وشريفها . فقالوا له عبد المطلب . فانطلق اليه واخبره بعزم ابرهة على تدمير الحرم فقال عبد المطلب للرسول والله ما نريد حربه وما لنا بذلك من طاقة هذا بيت الله الحرام وبيت خليله ابراهيم فان يمنعه فهو بيته وحرمه وان يخل بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه ثم ذهب معه الى ابرهة وقال ايها الملك هذا سيد قريش يستأذن عليك وهو صاحب حرم مكة ويطعم الناس في السهل والجبل والوحوش والطير في رؤوس الجبال فاذن له ابرهة وكان عبدالمطلب اوسم الناس واجملهم واعظمهم فعظم في عين ابرهة فاجله واكرمه وكره ان يجلس

---

(١) سديو

(٢) سيرة النبي محمد للاستاذ اميل درمنغام الفرنسوي ص ٢٢

(٣) سديو

(٤) سيرة النبي محمد لأميل درمنغام

تحته وان تراه الحبشة يجلس معه على سرير ملكه فنزل عن سريره فجلس على بساطه واجلسه معه الى جنبه ثم قال لترجمانه قل له ما حاجتك فقال له حاجتي ان يرد علي الملك مائتي بعير اصابها فقال لترجمانه قل له كنت اعجبتني حين رأيتك ، ثم زهدت فيك ، اتكلمني في مائتي بعير وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تكلمني فيه ، فقال عبد المطلب اني انا رب الأبل وان للبيت رباً سيمنعه ، قال ابرهة ما كان يمتنع مني قال انت وذاك فرد عليه ابله وانصرف عبد المطلب الى قريش واخبرهم الخبر ، ثم امرهم بالخروج من مكة والتحرز في رؤوس الجبال والشعاب تخوفاً عليهم من معرة الحبشة (١)

وحاول ابرهة ان يقتحم مكة اكثر من مرة فما افلح فارتد عنها بفيله الذي كان يركبه واضمحل حلمه في نشر النصرانية في بلاد العرب ، ورأى اهل مكة تضعضع جيوشه وأحسوا ذلك اليأس البليغ الذي يقرض نفسه فتركوا الجبال التيفزعوا اليها وعادوا الى منازلهم وادعين هانئين (٢)

وفي تلك الليلة السعيدة ولد محمد بن عبد الله القرشي سيد العالم (سنة احدى وسبعين وخمسمائة) ولما ادرك سكان اليمن ان لا قدرة لهم على مغالبة الاحباش واستوثقوا من عجزهم عن الانتقاض على ظلمهم وعسفهم راحوا يلتمسون حماية الملوك الاجانب فخرج منهم وفد الى يوستيانيوس قيصر في القسطنطينية وعلى رأسه سيف بن ذي يزن فرفض ان ينصرهم وقال لهم «الحبشة على ديني ودين اهل مملكتي وانتم على اليهودية فخرج الوفد من عنده يائسا . وشخص الى كسرى ابرويز فانتهى الى ملك العراق (٣) فدخل عليه فاخبره بما لقي قومه من الحبشة فقال له اقم فان لي على كسرى اذناً في كل سنة ، فلما خرج اخرج معه سيف بن ذي يزن فأدخله على

---

(١) السيرة الحلبية ج ١ ص ٤١ — ٤٢

(٢) سديو

(٣) الاغاني ج ١٦ ص ٧١

كسرى فقال غلبنا على بلادنا وغلب الاحابيش علينـا وانا اقرب اليك منهم لأني ابيض وانت ابيض وهم سودان فقال بلادك بلاد بعيدة ولا ابعث معك جيشاً في غير منفعة فلما ايأسه من النصر امر له بعشرة آلاف درهم، فلما خرج من باب كسرى نثرها بين الصبيان والعبيد فرأى ذلك اصحاب كسرى فقالوا ذلك له فارسل اليه لم صنعت بجائزة الملك تنثرها على الصبيان والناس فقال سيف ان جبال وطني ذهب وفضة وقد جئت الملك ليمنعني من الظلم ولم آته ليعطيني الدراهم، فقال كسرى انظر في امرك فخرج سيف على طمع واقام عنده وجعل يعرض له كلما ركب، فجمع له كسرى قواده وقال ما ترون في هذا العربي وقد رأيته رجلا جلداً فقال قائل منهم: ان في السجون قوماً قد سجنهم الملك في موجدة عليهم فلو بعثهم الملك معه فان قتلوا استراح منهم وان ظفروا بما يريد هذا العربي فهو زيادة في ملك الملك فقال كسرى هذا هو الرأي ثم أمر بهم فاحضروا فولى امرهم رجلا يقال له وهرز وكان رامياً شجاعاً مع مكانة في الفرس وجهزهم واعطاهم سلاحاً وحملهم في البحر في ثماني سفن فغرقت سفينتان وبقي من بقي وهم ستمائة رجل فارسلوا الى ساحل عدن فلما ارسوا قال وهرز لسيف بن ذي يزن ما عندك فقد جئنا بلادك فقال ما شئت من رجل عربي وقوس عربي ثم اجعل رجلي مع رجلك حتى نموت جميعاً او نظفر جميعاً قال وهرز انصفت فاستجلب سيف من استطاع من اليمن والتقى العسكران وجعلت امداد اليمن تثوب الى سيف وحميت المعركة وانهزمت الحبشة في كل وجه وجعلت حمير* تقتل من ادركوا منهم.

واقبل وهرز قائد الفرس يريد الدخول الى صنعاء وكان لها باب صغير يدخل منه فلما دنا وهرز من باب المدينة رآه صغيراً فقال لا تدخل رايتي مكسة اهدموا الباب فهدم ودخل ناصباً رايته فاشجى عمله سيف بن ذي يزن فقال واذلاه ذهب ملك حمير آخر الدهر لا يرجع اليهم ابدا (١)

---

(١) الاغاني ج ١٦ ص ٧٢

وخيل الى سيف ان تلك الدماء العزيزة التي اريقت في سبيل استقلال الوطن وتطهير ارضه من الحبشة ذهبت ضياعاً ورأى ان البلاد مسوقة الى البذل والسخاء لانقاذ تربة اليمن المقدسة من عبث الفرس وظلمهم فاراد قومه على الحرب كرة اخرى وكان وهرز قد كتب الى كسرى يخبره اني قد ملكت اليمن للملك وهي ارض العرب القديمة فكتب كسرى يأمره ان يملك سيفاً ففعل وآب الى كسرى فلما خلا سيف باليمن وملكها عدا على الحبشة فجعل يقتل رجالاتهم حتى افناهم على بكرة ابيهم وكان ذلك في سنة ثمانين وخمسمائة .

ولكن الحرية في اليمن لم تطمئن بعد جلاء الحبشة عنها فان العرب كانوا مقسورين على طاعة الفرس كما اقسروا في الماضي على طاعة الحبشة وكان الفرس اكثر تسامحاً من أولئك السود فلم يتعرضوا لحرية اليمن في دينها وتقاليدها القومية وكان عمال كسرى يفضلون المكوث في حضرموت وعمان والبحرين على المكوث في اليمن تحت انظار اليمانيين (١)

لما ظفر سيف بن ذي يزن بالحبشة وذلك بعد مولد محمد اتته وفود العرب واشرافها وشعراؤها لتهنئه وتمدحه وتذكر ما كان من بلائه في سبيل بلاده فأتته وفود من قريش وفيهم عبد المطلب بن هاشم وأمية بن عبد شمس وخويلد بن اسد وهو يومئذ في قصر غمدان فأخبره الحاجب بمكانهم فأذن لهم فدخلوا عليه فوجدوه متضمخاً بالعنبر يلصق وبيص المسك في مفرقه وعليه بردان اخضران قد اتزر باحدهما وارتدى الآخر وسيفه بين يديه والملوك عن يمينه وعن شماله فدنا عبد المطلب فاستأذنه في الكلام فقال له سيف بن ذي يزن ان كنت ممن يتكلم بين يدي الملوك فقد اذنا لك فقال عبد المطلب ان الله قد احلك ايها الملك محلا رفيعاً صعباً منيعاً شامخاً باذخاً وانبتك فينا منبتاً طابت ارومته وعزت جرثومته ونبل اصله وبسق فرعه في اكرم موطن وأطيب معدن فأنت ابيت اللعن ملك العرب

(١) سديو تاريخ العرب ص ٢٧

وربيعها الذي به تخصب وانت ايها الملك رأس العرب الذي له تنقاد وعمودها الذي عليه العماد ومعقلها الذي يلجأ اليه العباد ؛ فسلفك لنا خير سلف وانت لنا منهم خير خلف فلم يخمل من انت خلفه ولن يهلك من انت سلفه نحن اهل حرم الله وسدنة بيته اشخصنا اليك الذي انهجك لكشف الكرب الذي فدحنا فنحن وفود التهنئة لا وفود الرزية قال وايهم انت ايها المتكلم ؟ قال انا عبد المطلب بن هاشم قال ابن اختنا قال نعم فأدناه حتى اجلسه الى جنبه ثم اقبل على القوم وعليه فقال مرحباً واهلا وناقة ورحلا ومستناخاً سهلا وملكا ربحلا يعطي عطاء جزلا قد سمع الملك مقالتكم وعرف قرابتكم وقبل وسيلتكم فأهل النهار والليل انتم . ولكم الكرامة ما اقمتم والحباء اذا ظعنتم ثم استنهضوا الى دار الضيافة والوفود فاقاموا فيها شهراً لا يصلون اليه ولا يؤذن لهم في الانصراف واجرى لهم الانزال ، ثم انتبه لهم انتباهة فارسل الى عبد المطلب فادناه واخلى مجلسه ، ثم قال يا عبد المطلب اني مفوض اليك من سر علمي امراً لو يكون غيرك لم ابح به . ولكني رأيتك موضعه فاطلعتك طلعه فليكن عندك مطوياً حتى يأذن الله فيه فان الله بالغ امره ، اني اجد في الكتاب المكنون والعلم المخزون الذي اخترناه لانفسنا واحتجبناه دون غيرنا خبراً عظيما وخطراً جسيما فيه شرف الحياة وفضيلة الوفاء للناس عامة ولرهطك كافة ولك خاصة قال عبد المطلب مثلك ايها الملك من سر وبر فما هو فداك اهل الوبر زمراً بعد زمر قال ابن ذي يزن اذا ولد غلام بتهامة بين كتفيه شامة كانت له الامامة ولكم به الزعامة الى يوم القيامة قال عبد المطلب ايها الملك لقد أبت بخير ما آب بمثله وافد ولولا هيبة الملك واكرامه واعظامه لسألته ان يزيدني في البشارة فازداد سروراً قال ابن ذي يزن هذا حينه الذي يولد فيه او قد ولد ؟ يموت ابوه وامه ويكفله جده وعمه. وقد وجدناه مراراً والله باعثه جهاراً وجاعل له منا انصاراً يعز بهم اولياءه ويذل بهم اعداءه يضرب بهم الناس عن عرض ويستبيح بهم كرائم الارض يخمد النيران ويدحر الشيطان ويكسر الأوثان ويعبد الرحمن قوله

فصل وحكمه عدل يأمر بالمعروف ويفعله وينهي عن المنكر ويبطله فقال عبد المطلب ايها الملك عز جدك وعلا كعبك ودام ملكك وطال عمرك فهل الملك يخبرني بافصاح فقد اوضح لي بعض الايضاح فقال ابن ذي يزن والبيت ذي الحجب والعلامات على النصب انك يا عبد المطلب لجده من غير كذب ، فخر عبد المطلب ساجداً . فقال له ارفع رأسك ثلج صدرك وعلا امرك فهل احسست شيئاً مما ذكرته لك ، فقال عبد المطلب ايها الملك كان لي ابن وكنت به معجباً وعليه حدباً مشفقا زوجته كريمة من كرائم قومه اسمها آمنة بنت وهب بن عبد مناف فجاءت بغلام بين كتفيه شامة . فيه كل ما ذكرت من علامة سميته محمداً مات ابوه وامه وكفلته انا وعمه قال الامر ما قلت لك : فاحتفظ بابنك واحذر عليه من اليهود فانهم له اعداء ولن يجعل الله لهم عليه سبيلا . واطو ما ذكرت لك عن هؤلاء الرهط الذين معك فاني لا آمن ان تدخلهم النفاسة من ان تكون لكم الرياسة فينصبون له الحبائل ويطلبون له الغوائل وهم فاعلون وابناؤهم ، ولولا اني اعلم ان الموت مجتاحي قبل مبعثه لسرت بخيلي ورجلي حتى اصير بيثرب دار مهاجره فاني اجد في الكتاب الناطق والعلم السابق ان يثرب دار هجرته وبيت نصرته ولولا اني اقيه الآفات واحذر عليه العاهات لأعلنت امره على حداثة سنه واوطأت اقدام العرب عقبه ولكني صارف اليك ذلك عن تقصير مني بمن معك ، ثم أمر لكل منهم بعشرة اعبد وعشر اماء سود وخمسة ارطال فضة وحلتين من حلل اليمن وكرش مملوءة عنبرا . وأمر لعبد المطلب بعشرة اضعاف ذلك وقال اذا حال الحول فانبئني بما يكون من امره فما حال الحول حتى مات ابن ذي يزن فكان عبد المطلب بن هاشم يقول يا معشر قريش لا يغبطني رجل منكم بجزيل عطاء الملك وان كثر فانه الى نفاد ولكن ليغبطني بما بقي لي ذكره وفخره فاذا قالوا له وما ذاك قال سيظهر بعد حين (١)

---

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه ج ١ ص ١٧٥

وثقت الانتصارات التي احرزها القرشيون العدنانيون في مكة ، واليمانون القحطانيون في اليمن بين القبائل النادة النافرة : فزال ذلك النزاع القديم الذي عصف بالأولين والآخرين وانبثقت في الاذهان تحت تأثير النصر المشترك فكرة جديدة كانت النفوس مهيأة لاستساغتها والارتياح اليها وهذه الفكرة الناشئة ترمي الى خلق حلف بين نجد والحجاز من ناحية وبين نجد واليمن من ناحية اخرى

وساعد على انماء هذه الفكرة احساس اخذ يطفو في صدور الناس ويحفزهم الى التآلف والتآزر حتى لا تنزل بالجزيرة تلك الغاشية الفادحة التي نزلت بالعرب الانباط في الشام والحميريين في اليمن .

لقد كان الحجازيون والنجديون لا يعترفون لقريش بالسيادة السياسية فظلوا يحكمون البلاد من غير ان يهتموا بهذا الذي يحدث في الجانب الآخر منها وربما نشأ عدم اهتمامهم هذا عن اطمئنانهم الى ان بلادهم آمنة هادئة لا يغير عليها مغير ولكن حادث الفيل وتوغل الحبشة في اليمن وطموحهم الى اخضاع الحجاز واجتياح مرافقه والامتداد الى نواحيه . كل ذلك كان كافياً لحمل الامصار العربية في الجزيرة على الاهتمام بالحوادث الطارئة او التي يقدر لها ان تطرأ في المستقبل .

وهنالك اسباب عدة مهدت الطرق لتحقيق الوحدة العربية واول هذه الاسباب وحدة الاصل فان التنافس بين الاسماعيليين والقحطانيين قد لفظ روحه . وانتهت الغارة الاجنبية بتوثيق الاواصر بين الأسرتين حتى لم يعد غير خطوة واحدة لجمعها تحت راية واحدة .

ومن هذه الاسباب ايضاً توافق العلائق والعادات وانسجام الاخلاق والميول حتى في بعض القبائل النصرانية واليهودية فقد كانت هذه القبائل تغلو في كبريائها وغطرستها القومية وتضع حرصها على كرامتها وشرفها فوق شؤون الحياة كلها بل لقد توثمت في حياة القبائل عاطفة محتدمة . هي عاطفة الشرف والغلو في الذياد عنه وهذه العاطفة التي تغشي القبائل كلها بقيت مثاراً للبطولة والشجاعة والكرم

والاعتزاز بالفروسية والدفاع عن المظلومين والموتورين وربما كان الطموح الى الشهرة الشهوة البريئة التي تضطرم في نفس العربي .

ان وحدة هذه السلائق المشتركة كانت كافية لأن تمشي بالروح العربي المضطرب الرازح تحت وقر العواطف والاحساسات الجامحة الى غرض واحد ولكن ينبغي لتكوين هذه الوحدة عاملان قويان ضروريان : اللغة والدين ، فاما العامل الاول فقد كان موجوداً فليس ثمة حاجة للبحث عنه ، وذلك ان العرب في خضوعهم لأهوائهم وطباعهم المشتركة وحدها ، كانوا هيأوا الاسباب لصب لهجات القبائل المتعددة في لغة واحدة وقد حملهم ولعهم بايراث اقوامهم ذكريات اعمالهم ومناقبهم على الهيام بالشعر والكلف به ، فما ترددوا في اتراعه بصور اخاذة خالبة من ملاحمهم ووقائعهم وامجادهم ، ثم مضوا الى نشره في انحاء الجزيرة . ولكن شعراء نجد كانوا لا يفهمون شعراء اليمن ، فقد تستعمل قبيلة في التعبير عن خوالج النفس ، كلمات والفاظاً لا تستعملها قبيلة اخرى فاصبح من واجب الشعراء في العرب حيال هذا التبلبل ان يضطلعوا بوقر العمل الذي يقوم به النابهون في كل امة من الامم ، وهذا العمل الشاق كان يقسرهم على ايجاد توافق في الالفاظ وفي المعاني لهذا حفلت اشعارهم التي تروى في كل ناحيـــة من نواحي الجزيرة بألفاظ وكلمات تعبر عن خوالج نفوسهم وتمس حياتهم حتى اذا استعملت اسر متعددة لفظين مختلفين لمعنى واحد لم تجد غناء عن الرجوع الى الألفاظ التي تخيرها الشاعر وعلى هذه الصورة بدأت اللغة العربية حياتها وانسجامها .

ان حياة العربي بسيطة ساذجة في بلاد لا تتبدل مشاهدهـا الطبيعية ، فالقيظ الذي ترسله الصحراء ظل قيظاً والجبال العـارية الماحلة ظلت خلاء من العشب والزهر لهذا جاءت حياة اللغة في بدايتها بسيطة ساذجة ، ولكن الهجرة الى البلاد المتمدنة في الشام والعراق فتحت امام الشعراء أفقــاً جديداً يزخر بالصور البديعة المؤنقة فاذا الحياة التي عرضت لهم في باديتهم ماحلة جافة تعرض لهم في جنـات

دمشق وتحت سماء العراق باسمة متوردة كثيرة الألوان متعددة الصور فانفتحت اذهانهم عن شيء جديد وراح هذا الشيء الجديد يخالط اشعارهم وقصائدهم واغانيهم ثم نشأ عن هذا ان استفاضت اللغة العربية فتعددت الفاظها واستبحرت معانيها واصبح الشعر يقبس الوانه من الوان الجبال المخضلة والاحراج والغابات والجنات والينابيع الدافقة الهادرة والشمس الضاحكة في سماء مصحية كذلك دخل الشعر العربي عنصر جديد لم يألفه من قبل هجرته الى البلاد المتمدنة . ذلك العنصر الجديد هو الحب فان الشعراء الذين كانوا يرتادون الشام للاتصال بملوك الغساسنة وللابتراد بالظلال والافياء في غوطة دمشق لم تصدف نفوسهم عن استمراء الجمال في المرأة الغسانية المتحضرة المختالة بحليها واقراطها ولباسها الزاهي الذي لا يماثل لباس البدوية وانك لترى اثر هذا الحب بادياً واضحاً في اشعار كثيرين من كبار الشعراء وزعمائهم فالشاعر اذن كان المكون الاول لحياة اللغة والعامل المؤثر في تقريب اجل الوحدة القومية .

وكان للشعر موسمه في عكاظ وهي مدينة صغيرة تصاقب مدينة الطائف . يفد عليها الشعراء من جميع انحاء الجزيرة فيجتمعون الى صخور يطوفون حولها ثم يتفاخرون ويتحاجون ثم ينشدون الشعر الجديد الطريف المهذب . وكان يأتي الموسم قريش وهوازن وسليم والاحابيش وعقيل والمصطلق ولا يطرق الموسم من الشعراء من كسدت بضاعته وخبا ذهنه . ويعد موسم عكاظ اعظم مواسم العرب واحفل اسواقهم بالروعة .

تنصب في عكاظ قبة فخمة يقف الشاعر تحتها فلا تلبث الانظار ان تشخص اليه ثم يبدأ حديثه فيتكلم بصوت عاصف مرنان على اعماله ومناقبه وشجاعته وشرف قبيلته وحبه الضيف وايثاره اياه ثم ينتقل من الاعتزاز بشرف الأسرة الى عرض مشاهد الطبيعة وتصوير الوحدة التي انقطع اليها في الصحراء والواحات ويتكلم على الحب ولياليه وشجونه حتى يشجي سامعيه ويرقق عواطفهم وفي غضون

ذلك تنصت القبائل بقلوبها وافئدتها الى حركاته وصوته حتى اذا استهواها شعره وفتنها وصفه وبهرتها كبرياؤه مضت اليه حاسرة عن اعجابها وحبها وعطفها بينما هي تجفو الشاعر الوضيع المغمور .

فعبادة البطل في شتى صوره هي التي تملأ القبيلة ورعاً وسكوناً واحتراماً وهي التي تطفو حتى تغمر احساساتها وعواطفها .

وقد يتفق ان ينبغ الشاعر ويلتمع نجمه ويذكو ضرامه فتحبوه القبائل الشرف الأسمى الذي لا يجارى ، وتطلب اليه ان يغذيها بالشعر ونفاسته ثم ينطلق الى قومه وهو قوي كذلك ليس فحسب في قبيلته بل في المجموع الكبير الذى يعيش في وسطه .

وبينما الشعراء يخلعون على اللغة هذا الرواء الخالب ، ويبعثون فيها حياة وتجدداً وتوثباً ويجعلون لها صفة تامة الخلق والتركيب اذا خواطر الناس وافهامهم ترزخ تحت وقر عمل آخر ، عمل جليل رائع من شأنه ان يعزز القومية العربية ويوثقها بحيث ينشيء حولها حصوناً منيعة لا تهدم ، ذلك العمل هو الدين .

في الواقع ان ايمان العرب بالوثنية واصنامها ورموزها ما كان صلبياً في نفوسهم ولكن عاطفة دينية سامية اخذت تطفر من صدور هؤلاء الذين احتوتهم الصحراء فظهرت في اماكن عدة منازعات عميقة حول الوثنية فجفت قبائل كثيرة دينها القديم وصدفت عن ورعها المريب .

وكانت في الجزيرة ثمة ديانات غير الوثنية فان اليهود الذين اخرجهم الأشوريون والرومان والاغريق من ديارهم وجدوا في ابناء اسماعيل تلك الضيافة السخية فاستأنس العرب بتقاليد هؤلاء المنفيين المطرودين التي توجب احترام آله ابراهيم ثم ما لبثت اليهودية ان طغت على جزيرة العرب فاذا هي تتحصن في خيبر ويثرب واليمن (١) ففتح التبابعة ملوك اليمن لها طريقاً الى امصارهم وممالكهم من

---

(١) يقول ياقوت مؤلف معجم البلدان ان يهود يثرب عرب تهودوا ويقول مؤلف كتاب الأغاني انه لما ظهرت الروم على بني اسرائيل جمياً بالشام فوطئوهم

القرن الثاني الى القرن الخامس للمسيح .

وكانت الوثنية كذلك منشورة اللواء في سواحل الخليج الفارسي ، بينما كانت ديانة برهمة منتشرة بين سكان عمان (١)

ولقيت مذاهب النصرانية نجاحاً أكيداً في تسربها الى الشام فارتضى ملوك غسان المذهب الارثوذكسي في القرن الرابع وعكف المناذرة في العراق على المذهب النسطوري (٢)

واهم المراكز التي لاذت بها النصرانية في جزيرة العرب في البحرين وصحراء فاران ودومة الجندل ونجران في اليمن وقد ساعد على نشرها ملوك الحبشة وقياصرة القسطنطينية .

وفي وسط هذه الأفكار الجديدة التي اجتاحت الجزيرة ظلت الوثنية الديانة السائدة ولكنها كانت تختلف عن وثنية الاغريق والرومان الذين يعبدون مخلوقات روحية وتكاد وثنية العرب تشبه وثنية المصريين القدماء في عبادة الحيوانات والزروع والغزلان والأشجار والاعشاب والصخور والحجارة .

ولم تأنف القبائل من اصطناع اصنام تفزع اليها . فكان اقدم هذه الأصنام مناة وهو صنم اقامه العرب على ساحل البحر بناحية الشلل وبالغوا في اعظامه حتى ذبحوا حوله . ثم اتخذوا العزى ثم اتخذوا اللات بالطائف وكانت صخرة مربعة عظمتها قريش وسائر العرب (٣)

وقتلوهم سنة ٢١٦ ونكحوا نساءهم . خرج بنو النضير وبنو قريظة وبنو بهدل هاربين منهم الى من بالحجاز لما غلبتهم الروم على الشام .

(١) تاريخ الامبراطورية العثمانية لغانتيه ج ٢ ص ٤٠٤

(٢) تاريخ العرب لسديو الافرنسي استاذ الآداب الشرقية والعربية ومعلم التاريخ في جامعة سان لويس ص ٣٥

(٣) بلوغ الأرب للالوسي .

وهنالك قبائل أخرى اتخذت للعبادة اصناماً خاصة ، ولكن الهياكل والمعابد التي انشأها العرب لهذه الاصنام ظلت اقل رواء وبهاء من الكعبة التي اراد ابرهة الاشرم هدمها وتدميرها في غير جداء وكان لقريش حماة الكعبة سلطة دينية نافذة يعترف بها جميع العرب في غير نزاع وقد توثقت هذه السلطة بعد عام الفيل، فجمع العرب كلمتهم على احترام عبد المطلب بن هاشم الذي بلغ صبابته من المجد والشرف بعد انقاذه وطنه من ظلم الاحباش .

في سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة كانت جزيرة العرب على استعداد لقبول جميع التطورات الفكرية والاجتماعية والسياسية لأن النزاع الذي هدم صرح الأسرة العربية في الماضي وفرق بين جماعاتها وافرادها قد امحى حيال الخطر المشترك فرأى العرب انهم مهددون في الشمال بالروم وفي الشرق بالفرس وفي الجنوب بالحبشة فانفجر في نفوسهم للمرة الأولى احساس قومي عنيف .

بلى لقد انتصرت اليمن على الحبشة حلفاء الروم بفضل تآزرها مع الفرس ولكن العرب كانوا يخشون ان تقع بلادهم كرة أخرى تحت سيادة عدو جديد ، وكان قيصر القسطنطينية يبسط رواق نفوذه على الشام والبلقاء وبلاط كسرى يسيطر على جميع البلدان الممتدة من الخليج الفارسي الى سواحل اليمن .

امام هذا الضغط المزدوج كان طبيعياً جداً أن تنشأ احوال وصروف ملائمة للعنصر العربي .

لقد قدم الحجاز المثال الأول الرائع لحبه الحرية في حمله الأحباش على الانهزام والتراجع امام حدوده فأصبحت مكة صاحبة هذا الانتصار اللامع مهوى افئدة الجميع وطفق عبد المطلب بن هاشم يجمع القبائل المستقلة تحت رايته فارتاد صنعاء وجاس خلالها ودعا امراءها الى اتفاق يوثق بين اليمن والحجاز فأجابوه الى دعوته وقدموا المثال الرائع لتآلف ابناء التربة الواحدة وتضافرها على الصروف الشديدة.

حدث هذا في مكة بينما كان الشعراء من ناحية اخرى منصرفين الى المزج بين

لهجات القبائل المختلفة لخلق لغة واحدة تستسيغها الافهام و الاذهان في جميع انحاء جزيرة العرب ولكن الوحدة القومية ظلت في حاجة الى الوحدة الدينية التي تصقل الشعور وتشحذ الاحساس فأين يجد العرب هذه الوحدة ؟

اذا كانت الوحدة الدينية لا تزال مفقودة فان العبادات والعقائد القديمة بدأت تنهار وتتداعى في كل ناحيـــة من جزيرة العرب فقد شرع العرب في الصدوف عن تقديم الاضاحي البشرية التي كانت تقدم لأربابهم وبدأوا يحاربون ماضياً قديماً حمل الأسر الفقيرة البائسة على وأد البنات وهكذا اخذت ظلمات تلك الجاهلية الرعناء التي تقاذفت الحظوظ والأقدار خلال عصور عدة تتمزق امام نور الدعوة التي دعا اليها مصلحون مجددون كورقة بن نوفل وعثمان بن الحويرث وزيد بن عامر فقد اخذ هؤلاء الذين تثقفوا بثقافة النصرانية واليهودية يحاربون الوثنية والأوثان ويبشرون بظهور نبي في العرب .

وحمل العرب هذه البشارة حتى الى حدود البلاد المتمدنة فقلق لها الروم في الشام والفرس في العراق . ؟



الفصل الثاني
ورقة بن نوفل

— الى اين ايها الشيخ الذي لايبصر نور الشمس ؟ الى اين تمضي في هـذا الصباح القائظ في غير دليل او خليل ؟

— الى عكاظ . .

— وماذا تصنع في عكاظ ايها الشيخ الذي احبه القريب والبعيد لبؤسه وجواه؟

— اصنع مايصنعه الناس . فمن انت ايها الملح في سؤاله ؟

— بل قل من « انت » ايتها الملحة في السؤال . فانني امرأة تاعسة تركت بيتها في هذا الصباح لتبحث عنك . فلما بلغت معاذك نادتك فما اجابهـا غير الصدى ثم كررت النداء ولكن في غير جداء فأياسها ان تنطلق الى بيتها ملتاعـة يائسة واشجاها ان تهيم على وجهها في كل ناحية حتى طلعت على هذا الينبوع وقد برح بها الظمأ فتهافتت عليه تطفىء بمائه سعير نفسها وانها لتشرب اذ لمحتك في الناحية الأخرى من الينبوع تصب الماء في جوفك صباً فما ترددت في اللحاق بك وانت صبابتهـا واملها في هذا الصباح !

— ممن انت يا امرأة ؟

— اتريد ان تعلم من انا ؟ اذن فاسمع . انا امرأة من سليم عدا علي بعلي في مساء الليلة الماضية وانا بعد حامل وقال لي « لئن وضعت بنتا فلا حفرن لها حفرة اقذف بك اليها ! فروعني قوله ورحت الى صواحبي اسألهن ان يبعثن بي الى رجل يمنعني ويدرأ عني هذه الكارثة فقلن لي انطلقي الى ورقة بن نوفل حكيم العرب الأعمى . ففي قدرته ان يدفع عنك السوء فجئت اليك عائذة بك ايها الرجل الذي اعتاد الناس ان يحفوه بالعظيمين الحب والوقار .

ـــ ولـكني اخشى ان يفوتني موسم عكاظ يا امرأة .

ـــ وهل في موسم عكاظ مايثيرك الى هذا الحد ؟ اني امرأة بائسة شقيت ايامها وروعها زوجها بشبح الموت وانت الرجل الوحيد الذي يستطيع رده عني ومنعه ان يحتقب هذا الاثم الفظيع !

ـــ ما اسم زوجك يا امرأة؟

ـــ عدي بن اثامة من سليم .

ـــ أعدي بعلك ؟

ـــ اتعرفه ايها الحكيم ؟

ـــ عرفته في موسم عكاظ الماضي فلقد دخل السوق مسلحاً وله هـــدير كهدير البعير فشجي الناس من عمله وروعهم ان يغشى السوق كمياً مسلحاً مع ان العـادات تقضي الا يدخل الناس الموسم مدججين بالسلاح فجاء عمله خرقا لحدود اصطلح عليها سادات العرب واشرافهم وحينما أراد بعضهم تجريده من الســـلاح مضى هارباً منسلا في شقوق الصخور فلم يلحق به احد .

ـــ والآن وقد عرفته وعرفت حمقه واستهتاره افلا تجد من المروءة ان ترده عن مساويه..انه رجل غبي وهوالى ذلك سكير احمق.ولـكنه ساذج وبسيط..لماذا تهز رأسك ؟ لعلك لم تؤمن بحديثي بعد .

ـــ هي الخمرة التي تدفعه الى الأغراق في الأجرام . .

ـــ اليس في وسعك ان تمنعه عنها ؟

ـــ وكيف والرجل يعيش بعقل حيوان . الا تعلمين يا امرأة ان الرجل المغرق في احتساء العقار يطل على الناس بسحنة مشوهة ربداء وقلب قذر ، واحساس خامد دعيني ناشدتك المروءة انطلق في سبيلي .

ـــ ولـكن الناس يقولون ان في قدرتك ان ترد العافية الى المريض . . ناشدتك اللات والعزى ان تصطنع علمك في رد عقله اليه !

— اتحلفين باللات والعزى يا امرأة ؟ .. اواه .. لقد ادركت الآن لماذا يغلو بعلك في جنونه فان هذه الأصنام التي تنزعين الها سكرى مثله ولكنها لاتصحو فهي في ذهول ابدي وصرع لايغيب !

اتريدين ان تعرفي لماذا يعيش عدي بعقل مريض ، واحساس منزوف اذن فاعلمي ان هذه العبادة الغبية التي مرن بعلك عليها هي التي حالت بينه وبين التعرف الى الله ؟

— ولكنك تحدثني عن اشياء لا افهمها ؛ فما شأن اللات والعزى مع عدي ؟

— الا تعلمين ان المرض الذي ترينه على عدي منبعث عن هذه العبادة الجافة؟ ان النفس كالنبات في حاجة الى ماء يترعها حياة ومرحاً والديانة هي الماء العذب الذي يسقي النفس .

— لقد اوقعتني في حيرة فما شأن الالات والعزى في حكايتك الطويلة ؟

— اتريدين ان يثوب عقل عدي الى عدي؟ اتريدين ان ينطلق مريضك المدنف سليماً مزهواً بعافية سعيداً بشباب ؟

— نعم . نعم ، اريد هذا الذي تحدثني عنه ؟

— اذن فحطمي الكأس التي يشرب بها عدي ، اتعرفين مكان هذه الكأس . انه في عيني هذا الصنم الذي يسمونه العزى . اين اجد بعلك في هذه الساعة ؟

— لا ادري فلقد برح المنزل عشية الأمس .

— أكان مسلحاً حين خروجه ؟

— ان بعلي لا ينزع سلاحه ابدا .

— اذن فهو قد مضى الى عكاظ جرياً على عادته ؟

— ماذا يصنع هذا البائس في عكاظ وهو من علمت ؟

فسكت الأعمى ولم يجب فاستتلت المرأة قائلة :

— ماذا اصنع وانا المرأة التاعسية المروعة !

ــ اذهبي الى عكاظ وضعي حملك في جواره فلا تمتد اليه يد بسوء .

ــ اذن اذهب معك واكون رفيقتك في هذا السفر ؟ .

ــ تفعلين حسناً ، فان لي في عكاظ صاحبــــاً سأتركك تحت رعايته ، اجلسي هنا على حافة الغدير فان ابلي سترد هذا المثوى عما قريب .

فاطمأنت المرأة وزال قلقها وقالت :

واخجلتاه ايها الحكيم !

ــ ممن تخجلين ؟

ــ منك لأنني لبثت عاجزة عن ايفائك حقك من الشكر .

ــ ولم شكرانك لي ؟ وماذا صنعت حتى غدوت خليقاً بشكرك ؟ في الحق اني فعلت اشد ما ينبغي ان يفعل اذ نظرت الى امرأة تاعسة اسرف بعلها السكير في ترويعها وتنكيدها فاحببت لها خلاصاً ولكنك نسيت شيئاً واحداً يا امرأة .

ــ ذلك الشيء ؟

ــ هو اسمك !

ــ اتسألني عن اسمي ! اسمي ماوية .

فابتسم ورقة ابتسامة وديعة ولكنه لم ينبس بحرف .

٭ ٭ ٭

مضت اربعة شهور على رجوع ابي سفيان بن حرب من الشام الى مكة فنحن الآن في اليوم الخامس من شهر ايلول سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة وفي مكة حيث اخذت وفود القبائل تتهافت من كل حدب وصوب على الكعبة للاجتماع حولها ثم لاعداد المعدات اللازمة لجعل موسم الشعر في عكاظ في هذا العام موسماً حافلاً بالروعة والجلال . وقد ضاعف في تشوف الناس الى هذا الموسم وتحمسهم لتجميله وتزيينه ذلك الروح الجديد الذي تملك القبائل بعد الانتصارات المتتالية التي احرزها القرشيون في مكة والحميريون في اليمن . وكان طبيعياً جداً ان توقظ هذه الذكرى

خيلاء شعب يرى الفضيلة الباقية في الاحتفاظ بحرية الارض التي يعيش فوقها.

وكانت احاديث العامة والخاصة في مكة تحوم حول هذه الذكرى وزاد في حماسة الناس حديث الاعراب الذين صحبوا ابا سفيان في رحلته الى الشام، فان هؤلاء السذج البسطاء من البدو مضوا بعد وصولهم الى مكة ينقلون نبوة سطيح وحديثه المستفيض عن قرب ظهور نبي في العرب يوحد اغراضهم ويؤلف ما بين قلوبهم ويمشي بهم الى غايات رفيعة عالية نخالطت لذة هذه الأحاديث المنقولة عن سطيح لذة الذكرى التي ولدتها في نفوسهم انتصارات القرشيين والحيريين على الحبشة، واضيف الى روعة الروايات المنقولة عن سطيح والى روعة الانتصارات المشتركة زهو طغى على النفوس ومصدر هذا الزهو اشتراك اليمن والعراق ونجد والشام في موسم عكاظ الذي اعتاد العرب تجديده وتنعيشه في كل عام لتكريم الشعراء النابهين.

وقد كان ملوك اليمن والشام لا يشتركون في هذا الموسم في الاعوام الماضية لعكوفهم على درء الفتن والغارات على حدود بلادهم، ولصدوفهم عن الاهتمام بهذا البعث الفكري الذي يتجدد في روح الشعب العربي من حين الى آخر ذلك لأن الشحناء القائمة بين الغساسنة في الشام والمناذرة في العراق كانت العامل الأصلي في عزوف ملوك غسان عن ايفاد ممثليهم الى عكاظ مع ان ملوك العراق احاطوا هذه السوق برعايتهم وحمايتهم ووضعوا الجوائز القيمة باسم الشعراء البارعين ولم يضنوا عليهم حتى بالحلل النفيسة والهدايا الغالية.

وظلت المنافسات بين الغساسنة وملوك الحيرة المانع الوحيد الذي يفصل الأولين عن موسم عكاظ برغم كلف ملوك غسان بالشعر وبرغم اتصالهم بالنابغة الذبياني وحسان بن ثابت وغيرهما من فحول الشعراء فلما حدثت واقعة الفيل وانتهت بتراجع الحبشة؛ انتبهت العاطفة القومية في الغساسنة فأرسل جبلة بن الأيهم الغساني الذي لم يكن في غسان من أمرائها اعنى بالشعراء منه وفداً

للاشتراك في الموسم واصحبه بالهدايا والتحف الثمينة والأموال الطائلة فاجتمع هذا الوفد في صباح اليوم الخامس من ايلول في مكة الى وفود النعمان بن المنذر ووفود اليمن ونجد ونشرت هذه الوفود اعلامها تحت قباب ضربتها قريش بجوار الكعبة التي حملت اليها نفائس صنعاء وحضرموت والحيرة والشام .

وتموجت هذه الاعلام تحت ذلك الفضاء الملتهب ، واخذ الناس يحومون حول الكعبة يهتفون لقريش وللملوك الذين بعثوا رسلهم لحضور الموسم .

وعند المساء ودعت الشمس تلك الجبال العارية واختفت وراء الروابي والهضاب تاركة مكانها في الأفق للقمر امير الليالي .

توافت الوفود الى مكة من جميع الانحاء فاختلطت الحضارة التي يمثلها الغساسنة والمناذرة والحميريون في بداوة الحجازيين والنجديين ووحدت حلاوة القريض مافرقته اهواء السياسة ووقفت مكة الى جانب الكعبة تشهد عرض هذه الجيوش المنصبة كالاتي فكانت هوازن والمصطلق وربيعة وتميم وعبس وذبيان طليعة هذه الجيوش في زحفها الفكري ومثلت الجناحين الأيمن والأيسر غسان وحمير ولخم وقضاعة وثقيف وكنانة وطي ، بينما كانت قريش وعبد شمس في القلب .

وللمرة الاولى شهد القرن السادس — سنة اثنتين وثمانين وخمسماية — في مكة وحيال الكعبة المقدسة وفود العرب المتنصرة من ربيعة وقضاعة وغسان ولخم وطي بجانب وفود الوثنية واليهودية ووفود القائلين بعقيدة التوحيد .

ثم انزرف شعراء الموسم وخطباؤه فكان امية بن ابي الصلت والنابغة وعنترة وقيس بن زهير وورقة بن نوفل ، وقس بن ساعدة وحسان بن ثابت وزهير بن ابي سلمى اقمار الموسم ونجومه .

لله الله من مشهد فتان خالب ! لقد كان هؤلاء المصلحون المجددون في حياة العرب الفكرية ينحدرون من الجبال على الابل الى قلب المدينة ، فكانت الشمس تظلل مواكبهم وتخلع عليها حلة من بهاء ورواء .

ولما صاقبت مواكبهم الكعبة مادت الارض تحت جلجلة زحفهم اليها ، ثم تفرقوا في الخيام وتركزا خيولهم وابلهم تسرح حول الآبار .

وفي المساء فتحت ابواب الكعبة للجميع فاذا هذا البيت الذي يحترمه العربي المتنصر ويبجله العربي الجاهلي والعربي اليهودي ينحسر عن ساحة واسعة بعيدة الغور تزين سقوفها مصابيح ملونة من صنع دمشق واعمدة من المرمر وحنايا مذهبة واقواس ذات رواء وكانت الكعبة مكسوة بكساء من الحرير الأسود الثمين ذهبت اطرافه وكتبت عليه بحروف بارزة هذه السطور .

« من سيف بن ذي يزن المتواضع ملك حمير واليمن وقاهر الحبشة والروم الى بيت الله الحرام (١)

ولم يكن سيف في الأحياء ولكن عبد المطلب بن هاشم الذي زار الملك العربي في الماضي ليعرب له عن غبطة قريش وفرحها بانتصاره على الحبشة حمل معه هذا الكساء الثمين في جملة الهدايا التي اسبغها الملك على الوفد القرشي .

وكانت هدايا غسان مطروحة في زاوية من زوايا البيت المقدس وهي مصابيح ذهبية ، وخلع ارجوانية اعدت للشعراء البارعين .

وجاءت هدية ابي قابوس النعمان بن المنذر ملك العراق بمجموعة نفيسة من طرف فارس والهند ولآلىء جزيرة البحرين (١)

وانيرت المصابيح فانفتحت الوجوه عن هناء مديد . فاذا هؤلاء الذين توافوا للاجتماع في اقدس معبد عرفته الأجيال والعصور البعيدة يصلون صلاة هامسة

---

(١) اعتاد ملوك العرب في الجاهلية ان يكسوا الكعبة في كل عام .
وقد بقيت هذه العادة من تقاليد العصور الاسلامية الى يومنا هذا . سديو الافرنسي في كتابه تاريخ العرب .

(١) كان نفوذ المناذرة ملوك العراق في الجاهلية يشمل الكويت والمحمرة والبحرين ، وهي البلاد المعروفة بأمصار الخليج الفارسي ، سديو الافرنسي .

خافتة ولكنها صلاة مليئة بالجلال والرونق والتواضع وكانت الصـــلاة للاله الذي خلص هذا البيت من عبث الحبشة وظلمهم . ثم انتهت الصلاة وغشي النـاس صمت عميق . وراحت انظارهم الى ناحية المنبر القائم في وسط المعبد فاذا هنالك شيخ اعمى يصعد اليه متوكئا على عصاه فهمس الناس قائلين :

ـ هذا هو ورقة بن نوفل حكيم العرب .

رجل في السبعين من عمره بيضت الأحداث المروعة شعر رأسه ولكنهـا لم تقوس ظهره ولم تكن لها قوة على احنـاء رأسه فظل صلبياً قوياً كالشجرة الفرعاء وكان يسير بين سيدين كبيرين هما ابو طالب بن عبد المطلب بن هاشم والنـابغة الذبياني الشاعر . ولما صعد المنبر انحت عيناه الخامدتان ناحية الجمـــاهير فحرك مشهده حماستها واستثار نزواتها ثم فتح فمه فاذا الجماهير التي راحت محتدمة مغتلمة تحت تأثير صورته تغرق في لجة صمت عميق .

بدأ ورقة خطبته بشكر الله الذي منع البيت الرجس وطهره تطهيرا . ثم خلص الى الاشادة بروائع النصر الذي احرزه القرشيون بزعامة عبد المطلب بن هاشم على الحبشة في حادث الفيل وقال ان لقريش درجاً تزلق عنها اقدام الرجال وافعـالا تخضع لها رقاب الأموال وغايات تقصر عنها الجياد المنسوبة والسنة تكل عنهـا الشفار المشحوذة . ولو احتفلت الدنيا ما تزينت الا بهم ولو كانت لهم لضاقت بسعة اخلاقهم . ثم ترحم كثيراً على عبد المطلب الذي غيبه الموت في غسقه الدائم بعد ان أكمل عمله النبيل واطرى سيف بن ذي يزن الذي كان له الفضل الأكبر في اخراج الأحباش من جزيرة العرب . واثنى على النعمان بن المنذر الذي تبـارى في اصراخ اليمن ولم يتردد في قذف فرسانه الى الحومة . ثم انتقل الى تهنئة العرب بزوال الشحناء وانقراض البغضاء حتى تسنى لهم ان يجتمعوا كلهم قاصيهم ودانيهم في بيت الله الحرام .

وكان لصوته العاصف المرنان في نفوس الجماهير روعة بالغة واثر عنيف . ثم

دعا الناس الى موسم عكاظ في صباح الغد وانحدر عن المنبر ومشى الى مقعده متوكئاً على عصاه بين ابي طالب والنابغة

ثم صعد ابوطالب المنبر وتكلم على موسم العام الجديد بلهجة عالية فخمة محببة . ولم ينس ان يشكر لملوك العرب الذين خلعوا على الموسم شيئاً كثيراً من جلال الملك ورواء السلطان واسرف كثيراً في مدح ملوك غسان وملوك الحيرة الذين يعود الفضل اليهم في تجديد الشعرفي بلاد العرب . وخلص من ذلك الى ذكر قريش فباهى بحمايتها مواسم عكاظ وسهرها الدائم على هذا البيت المقدس وقدم شعراء الموسم الحالي واحداً بعد واحد .

واستغرق هذا المهرجان البديع زلفاً من الليل ثم مضى الناس مستروحين الى الاشتراك في موسم الشعر والشعراء .

وفي صباح اليوم التالي طلعت الشمس على مكة فظللت جبالهاومنازلهاوقصورها ومعابدها بلألآء بديع . وخلعت على روابيها وهضباتها حلة من بهاء وانبعث الهواء رطباً سائغا في كل ناحية من نواحيها وفي تلك الساعة المبكرة من الصباح خرجت القبائل الى سوق عكاظ بالقرب من الطائف فكان موكبها المنتظم من اجمل المواكب التي شهدتها العرب في جاهليتها .

وكان ورقة بن نوفل في تلك الاثناء قد ولى وجهه شطر الينبوع الوحيد الذي يتفجر في سفح الجبل القائم في الطريق بين مكة وعكاظ فلما بلغ ناحيته جلس يستريح عن كثب من شجر النخيل ومضى صحبه يطلبون ابله التي تأخرت في الطريق .

راقت نسمات السحر اللينة هذا الأعمى الذي حبس نفسه على العبادة والتنسك ففتح صدره للهواء بينما كانت اذناه مصغيتين لوسوسة الماء في ذلك الينبوع الوحيد الذي اعتادت القوافل ان تفزع اليه في تنقلها بين مكة وعكاظ ولكنه بقي يفكر كأن حلماً لذيذاً اوقظ ذاكرته ونبه خاطره فمضى يغرق نفسه في لذاذة هذا الحلم البديع واخذت يداه ترتفعان الى عينيه كانما هو يحاول فتحها ليرى حقيقة هذا الحلم

الذي عرض له في الوهم ولكن عينيه ظلتا مغمضتين لا تبصران شيئا .

ولم يقنط وهو الذي وجد العزاء والرجاء في العبادة من ان يطل على ذلك الحلم الذي عرض له ففتح قلبه رجاة ان يرى القلب ذلك المشهد الخالب الذي لم تره العينان

وكان عبق الديانة الذي اخذ يشمه في هذه الارض يصب في نفسه سيلا من الدموع لم تخضل بمثله عيناه الراكدتان الهامدتان.

واخيراً تفتحت في صدره ازهار ذلك الحلم العزيز الذي اسكره وصيره منزوفاً نشوان فاهتز من طرب ولذة وخفق قلبه لشبابه الذاهب فمضى يهمس قائلا :

« ايتها الارض التي تطفح بنضرة الديانة والتي يهزها شذا الورع هبيني من روحك نفحة علوية تعيد الي سنواتي الغاربة وجناحي المهيض المحطم حتى استطيع ان ارتاد مغانيك الحبيبة الى قلبي وحتى احلق فوق كعبتك المقدسة لأرى ذلك النور الفاتن

وكان لصوته جلجلة عظيمة رددتها جبال فاران الشامخة ثم استروح الى صمت عميق اودعه تأملاته وهواجسه .وبعد قليل رفع عينيه المغمضتين الى الأفق وانثنى قائلا : ايها الآله القدير الذي منح الطبيعة الحياة والرياح السكون والغيوم البهاء والربيع الفرح والأرض الزهر والبحر الابتسامة متى يطل نورك على هذه الجبال الغارقة في جدبها واحالها فتورق تحت ندى رحمتك وتعاف هذا الموت الذي يغالها ويضنيها .

ان هذا الهواء الذي ينبعث على جبيني ندياً سائغا يحمل الى نفسي عبق ذلك النبي العظيم الذي سيجيء بعثه منحة من ابهر منحك .وعطية من ابهى عطاياك

ربي ! ان في قدرتك ان تطلع على هذه الصحراء المتبرمة بعزلتها عن العالم جلال الديانة وعظمة النبيين الذين يحملون الى الانسان الغريق الخلاص والنجاة والظل الرخي الممدود .

ولما سكت وتطامنت نفسه الى احلامها خيل اليه انه يسمع وسوسة بالقرب منه فالتفت هامساً :

ـــ من القادم ؟

وللمرة الأولى احس الخوف والذعر ولكنه ما ابث ان سكن واطمأن فكرر نداءه قائلا :

ـــ من القادم ؟

ـــ أأنت هنا وانا ابحث عنك ؟

وكان المتكلم امرأة قادمة من ناحية مكة وقد طفقت تركض غير حافلة بالتعب الذي غشي جبينها فلما اشرفت على الينبوع اكبت على الماء تطفىء به ظمأها ، ثم وقعت عيناها على الشيخ فأخذت تحدق اليه وهو صامت لا يتحرك وبقيت تتفرس في ملامحه وهي حائرة مشدوهة . كأنها رأت في سحنته ذلك الرجل الذي تبحث عنه وتقفو اثره . ثم زال انقباضها وتبددت هواجسها فاقتربت منه ووضعت يدها على كتفه مترفقة حادبة وسألته الى اين يمضي فاجابها الى عكاظ فقصت عليه حكايتها مع زوجها الذي تخير لها الموت ان هي وضعت طفلة ويذكر القراء ان ورقة بن نوفل ارادها على الذهاب معه الى عكاظ ليضعها تحت حماية شريف من اشراف العرب

وظلت ماوية عن كثب منه حتى عاد رجاله اليه بالابل وحتى حمله هؤلاء على محفة وكان ورقة حدباً رقيقاً فلم يشأ ان تقطع ماوية الطريق على قدميها ، فسألها ان تركب الى جانبه في المحفة ففعلت .

وانطلقت قافلته الصغيرة في الطريق الجبلية التي لا بد للقوافل من عبورها لبلوغ عكاظ عند المساء وهي اقرب الطرق الى مدينة الشعراء .

واخذت الشمس في تلك الفينة تريق بهاءها على الجبال والاصلاد التي لم تكن تعرف من مفاتن الطبيعة غير هذا الجمال الخالب الذي يصاحب الشمس في الصباح والمساء .

الفصل الثالث

عكاظ

عشرة آلاف من الفرسان المساعير خرجوا من مكة في الصباح الى عكاظ ، عشرة آلاف من الابطال المغاوير يرون المجد كله والشرف كله في لظى الملحمة العابسة . تركوا في هذا الصباح سلاحهم في بيوتهم ومساكنهم ومضاربهم احتراماً لشريعة عكاظ التي توجب على الناس خاصتهم وعامتهم ان لا يحملوا سلاحاً في ارض لبثت العصور الطوال حقلا تبذر فيه بذور العقل والفكر .

لقد كان نشيد هؤلاء الفرسان في مكة ويثرب ونجد واليمن والشام والعراق نشيداً حربياً يرتفع على مناكب الرياح الى شتى الآفاق ولكن هذا النشيد الذي خالطه صليل السيوف ما لبث ان حال الى غناء لذيذ تتأرج منه اعراف الحب والشهرة والشرف والعواطف العاصفة التي يتغذى بها هؤلاء الذين تركوا ضجيج المعارك ما وراء جبالهم ليستقبلوا في السلم مناعم الحياة الهادئة الساذجة يحفها الصمت من كل النواحي بلى لقد ترك هؤلاء الفرسان جبالهم تمور باصداء المعارك ليستقبلوا في الواحات الضاحكة على السفوح تلك الحياة التي تحمل اليهم في صدرها ذلك الطفل البريء الذي يسمونه الحب وكانوا يحنون الى عكاظ حنين القفر اليابس الى الدمنة الوطفاء . ذلك بأنهم كانوا يجدون في عكاظ تلك الاغفاءة اللذيذة التي تنقل الى عيونهم احلاماً زاهية . عناصرها الغناء والشعر والجمال والحب والطمع النبيل الغالي

وكانوا ينامون ليحلموا بالشعر موسيقى الحياة ، حتى اذا استيقظوا اصغوا الى تلك الاجراس التي تتغاير في نفوسهم فاذا هي نغمات سائغة حلوة تلفظها افواههم في تكريم الجمال والحب والذكاء المبدع المثمر وحسب الانسان ان يتذوق حلاوة **هذا الشعر الأقدس الذي ينبعث من افواه هؤلاء الشعراء حتى يؤمن بخصب هذا**

الذكاء الذي يرسم الصور البديعة سواء اطلعت عليه الصحراء العريانة ام لاحت له السهول الريانة ؛ بل حسب الانسان ان يفني نفسه في صغاء هذا الشعر حتى يدرك قوة هذه الموسيقى البارعة التي تجد انغامها واوزانها منسجمة وادعة في المعاني البديعة التي لا تفوت الشاعر العربي في صحراء وطنه وفي المدن المهذبة .

* * *

اخذت هذه القوافل تطفو في طريق عكاظ كالاتي المنهمر و فرسانها ورجالها يترعون الفضاء بالأناشيد الحبيبة الانيسة فلما توارت جبال مكة عن الابصار وعرضت لهم تلك السفوح التي تزينها اشجار النخيل اذا بهم يتضاحكون ويتسارون كأن النخيل الباسق قد حمل اليهم شيئاً غير قليل من العزاء .ففتحوا صدورهم لشذا الغابة الصغيرة التي ازهر فيها النوار واورق ، ثم راحوا يسقون ابلهم وجيادهم من ينابيع هذه الواحة الكريمة .

ولما قضوا لباناتهم من الاستراحة تحت الظلال واصلوا سيرهم في طريق عكاظ فعرضت لهم سلسلة من الجبال تبتديء من ذلك السهل الخصب وتنتهي في جوار الطائف ، فكانت عكاظ بين هذه الجبال وبين الطائف .

وبدت لهم القرية عند المساء فاذا مشهد الشفق يستهوي افئدتهم ويحرك مشاعرهم فانحدروا عن ابلهم وجيادهم وراحوا يستمتعون بالظلال الرطبة الندية ورأوا في هذه الارض التي اعتادوا الحج اليها في مواسمهم الفكرية ذلك المشهد الفاتن الذي يهدهد نفوسهم الناصبة المكدودة .

لقد كان الظل ممدوداً في كل ناحية وكان الشعر يملأ الأرض والفضاء حتى ليبين واضحاً في الدمى المبعثرة فوق الصعيد وفي الروابي المورقه الضاحكة وفي الاغوار والأنجاد والأفياء والظلال.

عكاظ قرية صغيرة تقع بين مكة والطائف على سفح جبل حباها الله الماء والكلأ واراداها فتنة الشعراء بل لقد كانت عكاظ كجبال الاولمب التي ولدت فيها

الاسطورة الاغريقية في شعر هومير وسفوكل واشيل ؛ وفي وادي عكاظ المختال بنخيله ومائه التي قس بن ساعدة الأيادي خطيب العرب خطبته المشهورة وهو على جمله الأورق وتحت قبتها الخضراء علقت القصائد السبع التي نظمها سبعة من فحول الشعراء الفرسان واليها يفد كل شريف ، اللفظ مهذب المعاني (١)

ولما طلعت عكاظ على الفرسان كان ندى المساء المعلق بذوائب النخيل يلمع كما يلمع الضياء . وكانت الرطوبة العزاء الوحيد لهؤلاء المساعير الذين احتوتهم ارض قائظة لفاحة الأوار فنشروا خيامهم في السفوح حوالي النخيل الباسق ، واخذ القمر يصعد في سماء صافية وراحت انواره تغسل حفاف الغدير .

وتفرقت الجموع حول تلك الصخور التي اعتادت القبائل ان تفيء اليها في المواسم الماضية . نشابهت في تدافعها بحراً تشتد اواذيه وتطفو امواجه .

عن كثب من هذه الصخور التي تلتف بها اشجار النخيل اقامت قريش قبة من الأدم جللتها بغطاء من القماش الأخضر وجعلت على حراسة هذه القبة التي اعدت للنابغة الذبياني حرس شرف من غسان ولخم وقريش وعبد شمس .

وكانت اسماء شعراء الموسم مكتوبة بحروف من ذهب على جوانب القبة فأخذ الناس يحومون حولها في كثير من الورع والخشوع .

وكانت اصنام قريش وعبد مناف منبثة في كل ناحية من عكاظ تظللها اشجار النخيل وفي تلك الأثناء ارتفع في الجماهير صوت مجلجل :

— الشعراء .

فشخصت الانظار في تلك الساعة الحافلة بالروعة الى طريق مكة فاذا الشعراء الفرسان يدلفون الى ناحية القبة فهتف الناس لهم هتافاً شديداً وتعالى هتافهم حينما وقعت عيونهم على عنترة بن شداد العبسي الشاعر الفتى الذي جعل يخترق الصفوف

---

(١) الشعراء السبعة هم : امرؤ القيس بن حجر ، عمرو بن كلثوم . النابغة الذبياني زهير بن ابي سلمى الحارث بن حلزة اليشكري عنترة العبسي، طرفة بن العبد

حتى عرس عن كثب من القبة ، ثم وفد على عكاظ قيس بن زهير وعلقمة بن عبده وزهير بن ابي سلمي وحسان بن ثابت وعروة بن الورد والخنساء بنت عمرو ومضوا ينشرون خيامهم حيال القبة .

وبعد قليل أقبل سادة قريش فرأى الناس بينهم ابا طالب بن عبدالمطلب وورقة ابن نوفل وابا سفيان بن حرب وامية بن ابي الصلت فأخذ هؤلاء السادة أماكنهم في هضبة مرتفعة تشرف على القبة اقيم عليها سرادق نخم وانضم الى عيون قريش اشراف غسان ولخم وحمير ، ثم جاءت وفود القبائل الأخرى حتى غص بها أديم الأرض ثم جاء النابغة الذبياني راكباً بعيره وكان كاسف اللون منقبض السحنة حزين النفس ، فاستثار ألمه البادي حيرة الجماهير ، فمضوا يتساءلون عن معنى هذا الشجن الذي يغالبه .

وفي أقل من القليل انتشر الهمس في الناس .

— الا ترون الى سحنته المنكمشة ؟

— يكاد يقتله حزنه وجواه .

— ان عينيه ذاهلتان لا تبصران شيئاً .

— لقد انحدر عن بعيره دالفاً الى القبة . . ولكن خطواته غير متسقة ، ويكاد يعثر في مشيه .

وبلغ النابغة القبة فالتف به الشعراء الفرسان وطفقوا يحيونه فاجابهم على تحياتهم بنغمة فاترة يائسة فارتاع الشعراء لمشهده وحاروا في تفسير حزنه وقلقه ، ولما انسل النابغة الى داخل القبة انحى الشاعر عروة بن الورد وهو فتى مشرق الجبين ناحية حسان بن ثابت فهمس في اذنيه قائلا :

— أكان النابغة معك في الشام ؟

— نعم

— ثم رجعتما معاً الى الحجاز ؟

ــ كلا ، فلقد بقيت في الشام ، ومضى زياد الى العراق .

ــ هل ترك زياد الشام واجداً على غسان ؟

ــ كلا

ــ اذن فما معنى هذا الحزن البليغ الذي يضني نفسه ؟

وفي تلك الاثناء تقدم عنترة من الشاعرين وكان قد سمع حوارهما فقال لهما :

ــ أتسألان عن معنى هذا الحزن البليغ ؟

فصاح عروة :

ــ اي عنترة أتعرف شيئاً عن هذا الحزن ؟

ــ اعرف اشياء كثيرة .

اجتمع الشعراء كلهم في حلقة حول عنترة وابتعدوا عن القبة وكان عنترة في العشرين من عمره اسود اللون كالليل . ولكنه جميل الصورة . حلو الحديث . عذب النبرات تلوح على جبينه الفاحم مظاهر شرف ونبل وشجاعة نادرة : ولم يكن خاملا في العرب بل كان حسن الصيت طاهر السمعة . ولدته امة حبشية يقال لها زبيبة ، فنفاه والده شداد مرة ثم اعترف به فألحق بنسبه وكانت العرب تفعل ذلك تستعبد بني الأماء فان انجب اعترفت به والا بقي عبداً . وكان عنترة قبل ان يدعيه ابوه حرشت عليه امرأة أبيه . وقالت انه يراودني عن نفسي فغضب ابوه من ذلك غضباً شديداً وضربه ضرباً مبرحاً فوقعت عليه امرأة أبيه وكفته عنه . وسبب ادعاء ابي عنترة اياه ان عبساً اغاروا على طي فأصابوا نعماً فلما ارادوا القسمة قالوا لعنترة لا نقسم لك نصيباً مثل انصبائنا لأنك عبد فلما طال الخطب بينهم كرت طي عليهم فاعتزلهم عنترة وقال دونكم القوم فانكم عددهم واستنفذت طي الابل فقال له أبوه كر يا عنترة فقال او يحسن العبد الكر ؟ فقال كر وأنت حر فكر واستنقذ النعم وهو يقول :

انا الهجين عنـترة كل امريء يحمي حره
اسـوده واحمره والواردات مسفرة

وقاتل يومئذ قتالا حسناً فادعاه ابوه والحق به نسبه . ومنذ ذلك اليوم طارت شهرته في الآفاق وعرفت فيه البادية فارساً من اشجع فرسانهـا وشاعراً من ابرع شعرائها ولما قال له رفاقه انت اشجع العرب وأشدها قال لا فقالوا فبما اذن شاع لك هذا في الناس قال كنت اقدم اذا رأيت الاقدام عزماً واحجم اذا رأيت الاحجام حزماً ولا أدخل موضعاً الا ارى لي منه مخرجا وكنت اعتمد الضعيف الجبان فأضربه الضربة الهائلة يطير لها قلب الشجاع فأثني عليه واقتله (١)

احدق الشعراء الفرسان بعنترة وراحوا يسألونه .

ـ قلت انك تعلم شيئاً جديداً عن زياد ؟

ـ اسمعوا : لقد نزلت في الحيرة وذلك قبل شهرين ضيفاً على النعمان بن المنذر في قصر الخورنق ، وكانت حجرتي في القصر تصاقب حجرة زياد الذي اسبغ النعمان عليه كثيراً من نعمائه : وكنت أقضي نهـاري في مجلس الملك الذي وجد متعته في احاديثي عن نجد وفرسانها وشعرائها وفي الليل افيء الى حجرتي او الى حجرة زياد فنلهو ونستمتع معاً بالأحاديث عن الشعر وعن مواسم عكاظ . لقد كان يبهرني في زياد انه لا يتبرم بحياته المتنقلة بين الشام والعراق . ولا يسأم ان يرتاد الجزيرة للتعرف الى فحول شعرائها .

كنت اجده ضاحكا مفراحاً طروباً يخلع على احاديثه المتنوعة كالزهر انماطاً من الألوان الخالبة حتى رحت الى نفسي اسألها من اين وافته هذه القدرة على ابتداع هذه الألوان المختلفة وفي ذات عشية ابطأ زياد في الرجوع الى حجرته . فغمني ابطاؤه ووجدتني مقسوراً على عزلة جافية خشنة فنمت ليلي متبرماً بهذه العزلة حتى انصاح النهار فاذا زياد يدلف الى حجرته في كثير من التؤدة والرفق ثم رأيته يخرج

(١) الأغاني ج ٧ ص ١٤١

منها ممتقع اللون قلق النفس فسألته اذا كان يشكو مرضاً فقال لي هامساً « ان للقصر جدراً تلتهم الأحاديث فلا ترفع صوتك » فروعني حديثه فقلت له « ولكن في صوتك نغمة يائسة وعهدي بك الرجل الممراح فقال لي « ادخل بي حجرتك ، فليس في وسع احد ان يقتحمها فدخلت به حجرتي واغلقت الباب ، فاذا النابغة يلهث من التعب ، وقد نصل صباغ وجهه : فلما زال ما به قال لي اسمع .انت تعلم حبي للنعمان وتعلم كذلك انني من ندمائه واهل أنسه ، فقلت اعلم ذلك . فقال لقد رأيت المتجردة زوج النعمان عشية الأمس . فسقط نصيفها واستترت بيدها وذراعها فكادت ذراعها تستروجهها لعبالته وغلظها فلما رأيتها اذا الشعر يجري على لساني فقلت:

سقط النصيف ولم ترد اسقاطه فتناولته واتقتنا باليد
بمخضب رخص كأن بنانه عنم على اغصانه لم يعقد

واشفقت على نفسي ان تعاق بها فضيت الى المنخل بن عبيد اليشكري وكان يرمى بالمتجردة زوج الملك لحدثته بالأمر فلحقت المنخل من ذلك غيرة فمضى الى النعمان وانشده شعري وقال له ما يستطيع ان يقول هذا الشعر الا من جربه .فوقر ذلك من نفس النعمان وبلغني فخفت . هذه هي حكايتي كلها سردتها عليك فقلت له معك حق فان النعمان دميم ابرش قبيح المنظر فلا يلام اذا قرض حيوان الغيرة صدره الرازح فقال لي « وماذا اصنع ؟ وفي تلك الأثناء ارعدت نفسي من الرعب فلقد رأيت النابغة شاحب اللون لا أثر لنور الحياة في عينيه : فلمست يده فاذا هي باردة كالضريب . ارعدت نفسي ايضاً فرحت احسبه ميتا ، فلما جاشت الحياة في صدره وانطلقت زفراته محتدمة كلظى ركد خوفي فقلت له « انس الملك فليس يجديك ان تغرق متع ايامك في لجة اليأس . فنظر الي شاجناً وقال لي :

— ولكن أبا قابوس يطلبني اليه واخشى ان يلحقني أذاه .

فاردته على الفرار من الحيرة ، وقلت له انطلق الى الحجاز او الى نجد اذا شئت فانك تكون تحت حماية احبائك فتردد ووضع يده الصاردة على جبينه كأنه يفكر

ثم مضى قائلا :

ــ سأنطلق الى قيصر في القسطنطينية .

فصحت به اياك ان تفعل فان الروم مرنوا على قتل شعراء العرب : اونسيت مصرع امرىء القيس بن حجر ملك كندة ؟ احسبه كان حبيباً الى نفسك يازياد فلماذا اردت ان تسيء الى ذكراه ..

فهز رأسه من الحزن والألتياع وقال لي صدقت فلقد قتله قيصر شر قتلة ؛ ان هؤلاء الروم مولعون بقتل الشعراء فماذا اصنع يا ابا المغاس (١)

ورحت افكر في الطرق التي تنقذ التعس من هذا الموقف الحائر حتى وضح لي أفق الخلاص فقلت له :

ــ ولكنك نسيت ناساً يحبونك في الشام ؟

فحدق الي وراح قابضاً على يدي صائحاً :

ــ لقد اذكرتني صحبي .. اذن اذهب الى غسان وانزل بمارية بنت وهب الكندية ذات القرطين ام عمرو بن الحارث الأصغر ، لها الله من امرأة جمعت الى بهاء كندة شرف غسان .

وفي الليلة نفسها خرج زياد من الحيرة تاركا ذلك الحيوان الذي نسميه الغيرة يزحف الى قلب النعمان،هذه هي حكاية زياد ايها الرفاق ، فاذا رأيتموه حزيناً ملتاعاً فانما كان ذلك لحرصه على ولاء ابي قابوس .

فضحك حسان وقال :

ــ ولكنها غيمة في سماء صحو .

فقال عروة بن الورد :

ــ ان سيد عبس معنا (٢) وفي وسعه ان يصلح ما بين النعمان

---

(١) لقب لعنترة العبسي

(٢) هو قيس بن زهير بن جذيمة بن رواحة العبسي كان فارساً شاعراً داهية

وزياد . والتفت عروة الى قيس قائلا :

ــ انت اقرب العرب الى النعمان بن المنذر ، فاذا حملت اليه شجن زياد وحزنه رق له وحدب عليه والنعمان جم المروءة فهو لاينسى حسن صنيع اصدقائه وان شوه الوشاة هذا الصنيع فاجابه قيس قائلا :

ــ سأفعل !

وشخص قيس الى ناحية القبة فاذا هو يرى زيادا يحدق الى النـاس فمضى الى رفاقه وقال لهم :

ــ دعوا هذه الأحاديث فاني اخشى الفضيحة في عكاظ .

سكت الجميع . وشخصوا بابصارهم الى ناحية النابغة الذي جعل يحدق الى الجماهير وقد اشرق جبين الشاعر في تلك الفينة . واطمأنت نفسه وزالت وساوسه فاصبح يستمريء النظر الى هذه الوجوه النضرة التي توافد اصحابها من

يضرب به المثل ، فيقال ادهى من قيس . وكان ابوه سيد غطفـان وحليف ملوك الحيرة تزوج اليه النعمان جد النعمان بن المنذر لشرفه وسؤدده وقد ادرك قيس بن زهير الأسلام وقيل انه اسلم ثم ارتد . قيل انه خرج هو وصاحب له من بني اسد عليهما المسوح يسيحان في الارض ويتقوتان مما تنبت الى ان دفعا في ليلة قرة الى اخبية لقوم من العرب وقد اشتد بهما الجوع فوجدا رائحة القتـار فسعيـا يريدانه فلما قاربا ادركت قيساً شهامة النفس والأنفة فرجع وقال لصاحبه : دونك ومـا تريد فان لي لبثا على هذه الأجارع ارقب داهية القرون الماضية فمضى صاحبه ورجع من الغد فوجده قد لجأ الى شجرة باسفل واد ، فنـال من ورقهـا شيئاً ، ثم مات وفي ذلك يقول الحطيئة من ابيات :

ان قيساً كان ميتته ... انفا والحر منطلق

في دريس لا يغيبه ... رب حر ثوبه خلق

ــ الأغاني وديوان الحماسة وابو الفدا

كل نج عميق للاستمتاع بحديثه العذب وكان يعلم اي حب وثيق يحمله الوافدون له في صدورهم ولم يكن يفوته شيء من حدبهم عليه فابتسم لصور جديدة اخذت تعرض لعينيه وهي حافلة بشيء كثير من الحلاوة والبهاء وكان الى حين يتبرم بتلك الهواجس المرة التي منعته ان يرى الأفق والضياء والعشب والماء .

لقد كان النابغة الذبياني يمثل لا'لآء عصره وسناه . وكان روح هذه الأعياد المقدسة التي تقام لتكريم الذكاء والألمعية : فني روحه تثب حماسة وطنه للجميل المنسحب من اغراض الحياة وامثلتها العليا ؛ والشعر ابهى هذه الأمثلة وانضرها لأنه الطابع الأول للحياة الفكرية : وفي شعره الصافي الفخم روعة مستمدة من جبال الوطن وصحراواته وينابيعه وسهوله وفي شعره كذلك ملاحم هـذا الوطن ووقائعه ؛ مآسيه وشجونه . مسراته ومفارحه ؛ دياناته ومعابده ؛ بل في شعره تجتمع الأسرة العربية كلها بتقاليدها وعاداتها وسلائقها وخيالاتها وطمحاتها فليس غريباً والوطن كله يجتمع في بلاغة شعره ان يكون له مثل هـذا الحب في نفوس الذين احتوتهم عكاظ وليس غريباً ان يمشي هذا الشعر الوثيق المهذب بالناس الى الأمثلة العليا والاغراض السامية .

رفع النابغة يده الى الجماهير فراحت انظارها معلقة بتلك اليد ؛ ثم التفت الى الشعراء الذين يلتفون بالقبة : فاداناهم منه وفي سفح القبة هدايا الملوك والأمراء ، وكان اول الشعراء الذين قدمهم الى الجماهير عنترة العبسي؟

فوقف عنترة الى يمين النابغة حتى عرض مشهده للجماهير التي شملتها الحماسة فضيعت تعقلها ورشدها وطفقت تهتف لعنترة الفارس الشاعر ، واعادت صورة الشاعر العبسي في النفوس ذكرى غرامه بعبلة بنت عمه فانتشر الهمس وكان همساً لذيذاً وقال قائلون :

ـــ هذا هو بطل الحب والحرب !

وقرأ عنترة قصيدته بلهجة فخمة عالية والناس غرقى صمت عميق ، والنابغة

الذبياني يترنح طربا وسكرا ؟

ولما وصل عنترة في قصيدته الى قوله : (١)

يادار عبلة بالجواء تكلمي   وعمي صباحا دار عبلة واسلمي

هز النابغة يدي الشاعر وصاح :

— لقد جددت في الطلول العافية الشباب والمرح وانطقتها بعد خرس مذيب فكأن في صدوعها من تحيتك الف حياة .

وتابع عنترة انشاده حتى بلغ قوله :

حييت من طلل تقادم عهده   اقوى واقفر بعد ام الهيثم

شطت مزار العاشقين فاصبحت   عسراً على طلابك ابنة محزم

فصاح النابغة :

— هذا هو الشعر الذي لايبلى : لقد حركت الحب واستثرته حتى في الرسوم الدارسة فاذا هي تنعم بظل وفيء وتبترد بماء سائغ والحب اقوى على الخلق من اي عامل آخر ؟

واستأنف عنترة انشاده حتى بلغ الى قوله :

فاذا شربت فانني مستهلك   مالي وعرضي وافر لم يكلم

واذا صحوت فما اقصر عن ندى   وكما علمت شمائلي وتكرمي

فصاح النابغة قائلا :

— هذه هي شيمة الرجل الشريف الذي لا تضيع الخمرة وقاره وعفافه .. هذا هو الشعر ورب الكعبة .

ووثب اليه وعانقه عناقا طويلا واستتلى قائلا :

— انت جدير بهدية الملوك الصيد : ثم خلع عليه رداء ارجوانياً من الحرير

---

(١) مطلع القصيدة هو :

هل غادر الشعراء من متردم   ام هل عرفت الدار بعد توهم

مؤ هدايا جبلة بن الأيهم الغساني فانحدر عنترة عن القبة تحت عاصفة من هتاف الجماهير ، ونادى النابغة عروة بن الورد فانشده ثم انشده علقمة بن عبده .

ثم نادى النابغة حسان بن ثابت فطلع الشاعر عليه في افواف غسانية موشاة وانشده

لنا الجفنات الغر يلمعن في الضحى   واسيافنا يقطرن من نجدة دما
متى ماتزنا من معد عصابة   وغسان نمنع حوضنا ان يهدما
ابى فعلنا المعروف ان ننطق الخنا   وقائلنا بالعرف الا تكلما
ولدنا بني العنقاء وابني محرق   فاكرم بنا خالا واكرم بنا ابنما

فهز النابغة كتفيه وقال له : انك قلت الجفنات فقللت العدد ولو قلت الجفان لكان اكثر وقلت يلمعن في الضحى ولو قلت يبرقن في الدجى لكان ابلغ في المديح لأن الضيف بالليل اكثر طروقا وقلت يقطرن من نجدة دما فدللت على قلة القتلى ؛ ولو قلت يجرين لكان اكثر لانصباب الدم وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك فانثنى حسان مستحيياً وانشدته الخنساء بنت عمرو بن الشريد ثم انشده قيس بن زهير (١) وتعاقب بعده الشعراء الباقون ، والنابغة يخلع الخلع النفيسة على البارعين منهم بين هتاف الجماهير التي غشيتها نشوة الحماسة حتى رانت على البابها وافهامها

وهكذا خلقت عكاظ الضاحية الصغيرة في نفوس هؤلاء الوافدين من كل اوب لذة ساحرة نبهت فيها عاطفة اكبار واجلال للجمال في الشعر الطريف الأنيق فدلت عكاظ في موسمها اليانع الجديد على عراقة تقاليدها في حماية الشعر وهو اثمن ماتباهي به صحراء العرب المتحفزة الى توثيق وحدتها الادبية ووحدتها القومية

وفي هذه الفينة الرائعة خرق اذان الناس صوت عاصف ثم اذا رجل يخترق الصفوف حتى بلغ الناحية التي آوى اليها ورقة بن نوفل ومعاوية زوج عدي وكان الرجل مسلحاً فنفر الناس من مشهده وراحوا يسألون عن معنى دخوله الى عكاظ مسلحاً وجعل الرجل يصيح :

---

(١) — الاغاني

ـــ اين امرأتي فلقد بلغني انها هنا . .

ثم وقف عن كثب من ورقة بن نوفل وماوية لاتفارق هذا الشيخ فصاح به قائلا

ـــ رد الي امرأتي ايها الرجل .

فظل الأعمى رابط الجأش مطمئن النفس فاستتلى الرجل قائلا :

ـــ رد الي امرأتي ايها الشيخ . . .

فارعدت المرأة وراحت باكية ثم جعلت تنتفض من الذعر وطفقت تصيح :

ـــ احموني من هذا الرجل السفاح . . . انه قاتلي . . .

فثارت ثائرة الناس لهذا المشهد فاذا بهم يصيحون :

ـــ هذا هو عدي اللص . .

ووقف ورقة على قدميه صائحاً :

ـــ ان ماوية في حماية ابي سفيان بن حرب فامض في سبيلك !

ـــ ولكنها امرأتي !. . .

خرق صوت ورقة سمع ابي سفيان فتهافت على نصرته ووقف بينه وبين المرأة صائحاً :

ـــ ماذا تريد ايها الوقح ؟

فقال عدي :

ـــ لقد اقسمت لاقتلنها ان هي وضعت مولودة .

ـــ يالك من جبان ! خذوا سلاحه ؟

وفي تلك الأثناء تألبت الجماهير حول عدي وراحت تنزع سلاحه وكانت المرأة في غضون ذلك قد سقطت على الارض في غير وعي ولا ادراك فحملها بعضهم الى سرادق ابي سفيان واقبل سادة قريش على حماية السرادق وبينما كانت الجماهير تدفع عديا الى خارج الساحة كانت المرأة قد وضعت مولودة .

وصل صراخ ماوية الى سمع عدي وهو يكافح الذين تألبوا حوله فبدا شاجنا والهاً

ولم يعد في قدرته ان ينافح فطفق يسأل الذين حوله عما حل بامرأته وهو يصيح:

ـــ ردوا الي امرأتي . فان امرها يعنيني وحدي .

فصاح الناس :

ـــ انه سكران منزوف .

وعاد ابو سفيان الى الرجل راعشاً مضطرباً فقال له :

ـــ هدىء روعك فان امرأتك في الم شديد وهي في حاجة الى الرحمة .

ـــ ماذا تقول ايها السيد ؟

ـــ اقول ان امرأتك التاعسة قد وضعت حملها وهي في حاجة الى السكون والى الراحة ، واقل حركة تبدر منك تقتلها وطفلتها معاً .

ـــ أتقول أنها وضعت طفلة ؟

ـــ أيشجيك أيها التعس.ان تضع مولودة ، انها جميلة كالورد بهية كالشمس .

ـــ ولكن . .

ـــ ولكن جنونك قد طغى عليك حتى منع قلبك الرحمة وصيرك قاسياً كالسيل. الاعد الى نفسك فان حصادك في هذا الليل ربيع ممرع قد ملأ نواحي حياتك عبقاً ولذة

ـــ ماذا تقول ايها السيد ؟

ـــ انظر الى وجهي . . اعرفتني ؟

ـــ ومن لا يعرفك في عكاظ ايها السيد ؟

ـــ اذن انس هذا الحقد الذي يفترس نفسك واذكر انك اب لمخلوق ضعيف يحتاج الى عطفك وحبك .

ـــ ولكني اتبرم بحياتي البائسة واعيش في ليل من الفقر والفاقة ، وليس في قدرتي ان اكفل حياة هذه المولودة !

ـــ اهو البؤس الذي قتل في قلبك الرحمة ؟

ـــ اتدري ما هو البؤس ؟ انه لجة تزخر بالألم والدموع واليأس وبيت لا

سقف له ولا شرفة ولا نافذة وقاب مات فيه الاحساس وخبا في نواحيه الضياء وقبر جائع يفتح فه للفريسة الشهيدة.

ـ اهذا هو البؤس ؟

ـ بل البؤس ايها الشريف هو ذلك البغض الذي يعتصر القلب ويثنيه عن فهم الجمـــال والحب ، وهو في احتدامه واشتداده ثورة عاتية على الفضيلة في كل صورها واشكالها.

ـ اسمع ! لقد فكرت في انقاذك من لجحه العابسة.

ـ كيف ! ماذا تقول ؟ . أتبسط الى نفسي الغريقة يدك الرحيمة ؟ متى واين ؟

ـ في هذه اللحظة وهنا في عكاظ.

وكان ورقة بن نوفل غير بعيد من مكان ابي سفيـان فسمع حواره مع عدي فتقدم منه حتى صاقبه وقال له:

ـ ايأذن لي السيد ان اتحدث الى هذا الرجل ؟

فقال ابو سفيان:

ـ تكلم ايها الشيخ الحكيم.

فمد ورقة يده الى عدي وقال له:

ـ اعطني يدك ! البؤس هو من وصفت : ولـكن اثره يجيء ضعيفاً ضئيلا في النفس التي تتفتح للفضيلة . . وفي الناس بائسون ولـكن اقدار هؤلاء ليست متشابهة فبينما يزرع البؤس في النفوس العالية القوية الحب والرحمة اذا هو يزرع في النفوس الضعيفة البغض والقسوة . . ان الحيـاة فصل واحد ذلك هو فصل الشتـاء الذي نسميه البؤس والنفوس الجليلة هي التي تغسلها امواه هذا الفصل.

ـ لقد رققت قلبي.

ـ انزع من نفسك ذلك الثعبان الذي يترع جوانبها بالسم !. نعم اهجر هذه الخمرة التي تغطي عقلك بضبـاب يمنعه الأفق والنور فتغدو انسـاناً جميلا مزهواً

بشباب ، مختالا بعافية ، ويبتسم لك هذا الذي يقع عليه بصرك من لألآء الحياة ومسراتها . .

ـــ سأفعل ، بلى سأفعل هذا الذي اردتني عليه وسأنزع من نفسي هذا الثعبان الذي ولده السكر الأعمى وسأنظر الى النور بعينين صحيحتين وقلب غير مريض . .

ـــ وماوية ؟

ـــ سأرجع اليها نادماً على ما فعلت .

ـــ والطفلة ؟

ـــ سأكون لها ذلك الأب الشفيق الذي يرى في طلعتها الباسمة هذا الضوء الذي يغمر جبال فاران .

ـــ اذن في وسعك ان تجد في بيتي انا ورقة بن نوفل تلك الهناءة التي تدأبت في البحث عنها . . انطلق أنت وامرأتك وابنتك الى ابنة عمي خديجة بنت خويلد في مكة فانها امرأة حدبة رقيقة وهي فوق ذلك اوسط نساء قريش نسباً واعظمهن شرفاً واكثرهن مالا ؛ فاذا لقيتها فقل لها ان ابن عمك ورقة اوفدني اليك لأكون في جملة الرجال الذين تبعثين بهم الى الشام لتوزيع تجارتك . أمنطلق انت اليها ؟

فاغرورقت عينا عدي بالدموع وراح يهز يدي الشيخ الأعمى قائلا :

ـــ سأنطلق اليها من الغد . . أواه ! لا أستطيع ان اشكر لك هذا الصنيع الجميل فلقد خلصت نفسي من آلام تفترسها .

ثم نظر الى ابي سفيان نظرة مملوءة بالشكر وقال له :

ـــ لقد هز صوتك ايها السيد في صدري النائم حنواً ما تذوقت جناه السائغ قبل هذا اليوم . دلني على امرأتي فاني أريد ان احمل اليها هذا القلب المحطم وهذه الدموع التي تبعثها احزان نفسي .

فمشي ابو سفيان به الى السرادق فدخل اليه في كثير من الرفق حتى اذا بدت له امرأته مضطجعة وطفلتها عن كثب منها راح جاثياً عند قدميها مطوقاً

عنقها ، مطيلا النظر الى عينيها النديتين المخضلتين بالدموع .

فرفعت ماوية عينيها اليه وقالت له :

— اي عدي ما ذا انت صانع بعد هذا اليوم ؟

— لقد جئتك تائباً مستغفراً ايتها المسكينة التي روعها بغضي الكاذب وعقلي الذي لا يعرف صحوا .

— وذلك الماضي ؟

— واريته النسيان فلقد انبثقت في نفسي خواطر سامية فعدت اليك تحت تأثيرها رجلا جديداً في عقله وقلبه واحساسه . اين ابنتي ؟ اين هي ! فرفعت ماوية اليه تلك الطفلة التي لم يتصرم على مولدها غير الأمد القصير فاذا هي باغمة مغردة فكاد قلب ذلك الأب التعس الذي لا يعرف الفرح يذوب تحت تأثير هذه الأجراس العذبة فتناول الطفلة بين ذراعيه ومضى ينظر اليها .

— اي بنية . لقد كان قلبي الى هذا اليوم شجرة عارية من الورق كتب البؤس على لحائها سطوره السوداء . فاذا مولدك يحمل الى هذه الشجرة الورق والزهر حتى غابت تلك السطور الداجية وامحت .

ثم التفت الى ماوية قائلا .

— هل تعذبت كثيراً ؟

فاشارت المرأة بيدها الى ابي سفيان قائلة :

— لقد هون هذا الرجل بفضلة وحدبه عذاب الحمل . وخفف من آلام الوضع فاذا بقيت الى الآن نسمة حية . فانما كان ذلك ناشئاً عن احسان هذا المحسن .

فنظر عدي الى ابي سفيان واردف :

— لن اجحد لك هذه اليد الكريمة ايها السيد

ثم تهافت على يده يترعها لثما وتقبيلا

* * *

ولما غشي السكون تلك الجموع التي روعها عمل عدي عاد النابغة الى القبة ليختم الموسم فشخصت الأبصار اليه من جديد؛ واستروحت النفوس الى كلماته العذاب كأن مأساة عدي لم تحدث وكأن هذه الواحة المقدسة التي لا يطرقها الكمي المسلح لم يخرق عزلتها افاق سكران .

واخذت الجماهير اماكنها فوق تلك الصخور السوداء المنتشرة في كل ناحية بينما السكون العميق يغشى الأصنام والأنصاب القائمة تحت شجر النخيل

تكاد عكاظ تكون معبداً لعبادة الشعر ولكن هذا المعبد الذي بناه العرب قبل عصور ظل عاطلا من البهاء والرونق ، فكان عسيراً على القلب الذي يأنس بجمال الفن ان يجد في نواحيه دمية من تلك الدمى الباقية التي اشتملت عليها معابد الأغريق والرومان.

ولقد يحاول الانسان ان يكتشف في وثنية العرب ذلك الجمال الذي يبهر ويشجي . فيظل قلبه مغلقا بارداً وتبقى عيناه مغمضتين فلا يرى في هذه الوثنية شيئاً من تلك الألوان التي تعرض له في الطبيعة الفاتنة . في حين ان الوثنية الاغريقية ظلت متصلة بالطبيعة تقبس منها الوانها وحياتها .

وقد يكون موت الطبيعة في وثنية العرب العامل الأول في ضعف ايمانهم بها وهي الجافة الماحلة فلم تهز الأصنام المنتشرة في عكاظ هذه السوق الفكرية ، وكان الشعر الديانة الوحيدة التي تهذب النفس وتصقلها لانه بقي اشد لصوقاً بحياة العرب من هذه الأصنام لهذا كان على الشاعر ان يخلق الانسجام بين قلب الانسان وقلب الطبيعة .

لم يشأ النابغة ان يختتم الموسم قبل ان يعرض لحياة امرىء القيس بن حجر فتكلم على نكبته وحبه والمه حتى استثار الشجون وجعل يروي شعره بلهجة عذبة نخمة ، ولما وصف موته في بلاد الروم تبارى الناس في البكاء ثم انتقل الى وصف ذلك النصر الأكمل الذي احرزه العرب على الاحباش في اليمن وفي الحجاز ودعا

الى تقويض صروح الشحناء في هذه الأرض المباركة التي ينبغي لها ان تأخذ نصيبها من الموادعة والسلم وانتقل من حديث هذه الحروب الى ذكر تلك الحماية المؤثلة التي خلعها ملوك العرب على موسم العام وانحدر عن القبة يصافح تلك الايدي التي مدت اليـــه

ثم مضى الجميع الى الموائد يتحدثون ويسمرون متنقلين من جديد الى قديم .

وكانت احاديث عنتره على مائدة قريش التي اجتمع اليها الشعراء من اجمل ماسمعته الآذان في تلك الليلة فلقد جعل الشاعر يقص على الوافدين احاديث حروبه ووقائعه ، وانوار القمر السارحة في الأفق تخلع حلة من بهاء ورواء عـــلى تلك الواحة المقدسة المختالة بنخيلها وعرارها .

وكانت ارض عكاظ في هذه الليلة ملتقى ذكريات مجيدة لايام هانئة خلع الحب عليها ظلاله الوارفة .

وهنالك في ناحية اخرى من عكاظ طفق رجال القوافل الذين عادوا مع ابي سفيان من الشام يقصون احاديث سطيح عن نبي يبعث في العرب . ؟



الفصل الرابع
في حصن قريش

اصبح القرشيون بعد فوزهم على الاحباش ابطال الاستقلال القومي في جميع نواحي جزيرة العرب ، فاستعادت مكة بفضلهم مركزها القديم في التجارة وفي الدين وفي السياسة وطفق زعماء العرب يفدون اليها من كل فج عميق للاحتكام الى القرشيين في كثير من شؤون الحياة .

وكانت قريش ارقى العرب على الاطلاق واقربهم الى فهم عقلية سكان المدن المتحضرة في الشام والعراق ، كذلك كانت قريش تمتاز على القبائل بخصب الالمعية والعبقرية في رؤسائها وزعمائها الذين استعملوا ذكاءهم في توطيد سلطانهم السياسي في كل ناحية من نواحي الحجاز ، وقد افضى مران قريش على التجارة الى ازهار الحجاز فان القرشيين الناعمين بالتهذيب انتبهوا الى موقع مدينتهم الجغرافي فنجحوا في جعلها مركزاً ممتازاً لقوافلهم التي تروح وتغدو بين اليمن وبلاد الشام .

كل عربي ينشأ تاجراً كما يقول استرابون وقد ظلت التجارة في القرشيين اشد انبعاثاً مما هي في غيرهم ولكن هؤلاء لم يقصروا اهتمامهم على التجارة بل نشطوا الى تنظيم المسائل المالية وتنسيقها فظهرت براعتهم التجارية والمالية في عكوفهم على توثيق صلاتهم مع شعوب العالم حتى اثار الرخاء الذي تمتع به العرب في الرومان الحسد والغيرة فحاولوا اكثر من مرة ان يجتاحوا الجزيرة تحت تأثير ما قاله خطباؤهم وشعراؤهم عن كنوزها التي اغنت سكانها بعد فقر واملاق ولكنهم اخفقوا في سعيهم . وفي الحق كانت جزيرة العرب مصدر المعادن الثمينة والحرير والعطور الشرقية التي كان الرومان العاكفون على مفارح الحياة ومغابطها يتهافتون على اقتنائها .

وجاء هذا الرخاء التجاري عملية ناجحة بفضل اتصال العرب بالهند والأفغان والعجم عن طريق العراق والخليج الفارسي واليمن

ونشطت الحروب المتعاقبة بين الفرس والروم تجارة مكة وبعثها بعثاً باهراً لأن مدينة القرشيين تشرف على منافذ خطيرة بين الشرق والبحر المتوسط . بين افريقية السوداء وسورية الرومانية . وكانت من جهة ثانية محاطة بسلسلة من المعارض واهم هذه معرض عكاظ بجوار الطائف . ولهذا المعرض عدا اثره العقلي في حياة العرب اثره التجاري لأن تجارة الحجاز الداخلية تعرض فيه خلال مواسم كثيرة ثم يجيء موسم الحج وهو موسم قديم اعتاد العرب ان يوافوه في عصور الجاهلية وظاهر من هذا كله ان اجتماع الدين والسياسة والشعر في مكة وضواحيها من اروع العوامل التي جعلت القرشيين المتحضرين يمتازون على جميع العرب

وكانت قوافل قريش تحمل الى قياصرة الرومان لآلئ الهند . وحرير الصين واقمشتها الغالية ومعادن اليمن . وعطورها النفيسة . فيصنع القياصرة من هذا الحرير المجلوب ملابسهم وملابس محظياتهم وكهنتهم وحجابهم كذلك حمل العرب عطور اليمن وبخور افريقية الى كنائس الروم وقصورهم (١) فتوثقت بفضل هذه العلاقات اواصر الصداقة بين سادة قريش وقياصرة الروم وكان لملوك الشام الغساسنة اثر كبير في توثيق هذه الصداقة !

يضاف الى الأثر التجاري الذي تمتعت به قريش اثر ادبي رائع يتجلى في الأجتماعات التي تعقد في دار الندوة · حيث الابواب مفتوحة امام النبلاء والأغنياء ورجال الملاحم والشعراء · وابطال هذه الأجتماعات هم حرب بن اميه · وعتبة بن ربيعة . وورقه بن نوفل وعبد الله بن جدعان وابو سفيان بن حرب الذي اشتهر في

(١) كانت قوافل ابي سفيان بن حرب بن اميه في تنقلها بين الحجاز والشام تعد من عشرين الفاً الى ثلاثين الفاً من الجمال مثقلة بالذهب والفضة واللآلي·وكان يقوم على حراستها ثلاثمائة من الفرسان « سديو »

القرشيين بتجارته وضخامة ثروته !

وكانت بيوت الطبقة العليا من القرشيين في حي اسمه الابطح بجوار الكعبة ففي هذا الحي بيوت اشراف بني امية المتمولين . وبيوت بني مخزوم الذين برعوا في تجارة الأقمشة والحرير . وبيوت آل نوفل وبني عبد الدار ، ثم بيوت الهاشميين بني عبد المطلب وهؤلاء اقل ثروة من جميع القرشيين .

وحول هذا الحي يعيش المكيون الذين يقدمون الجنود للقرشيين ويتبارون في اصراخهم في مواقف الخطر . .

ولم تكن الحياة في الأبطح مقصورة على عناصر التجارة والسياسة والحرب ، بل لقد كان يقوم الى جانب هذه العناصر عنصر الحب والفرح والملاذ وكانت الخمرة تتدفق كالينابيع في بيوت هؤلاء السادة الذين يجدون غرض الحياة في الفروسية وفي الحب والذين يمضون الى البلاد المتمدنة للترفيه عن نفوسهم في احضان الخمائل الزاهرة والجنات الحادرة عن كثب من الحسان . وفي ضواحي مكة منازل للمحظيات يغشاها سادة قريش كابي سفيان بن حرب والعاصي بن هشام وابي لهب وفي هذه المنازل تنفق الأموال الطائلة وتقام الموائد السخية للرفاق والأحبة وللشعراء ايضاً ولعل عبد الله بن جدعان كان اكثر القرشيين ايغالا في البذل فقد كان يدعو الى موائده النبلاء والأشراف ، فيجتمع اليها الحب والشعر واللعب !

لقد كان طبيعياً جداً أن يجد هؤلاء النبلاء غذاء النفس في الحب وفي متعه الشهية وان يترعوا آفاق الحياة التي تخللها صدى الملاحم الحربية بتلك النغمات السارة الطروبة التي يبعثها الحب في المساء المطمئن الساجي تحت ضياء القمر لأن النفوس التي تذيبها شمس المعارك لاتلبث ان تحس حاجتها الى فيء يجدد بهاءها ويتنع عفاءها وفي الحب فيء يجدد البهاء ويمنع العفاء !

نحن الآن في العقد الأخير من سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة وفي مكة ، والليلة طخواء والناس يروحون ويجيئون في الأزقة والطرق ينقلون شتى الأحاديث من هنا

ومن هنالك. ثم يقصونها على القادمين من النواحي، فيمضي هؤلاء راعشين خائفين كأن في بعض هذه الأحاديث مالا يروق !

وكان بعض الفقراء يتجهون في تلك الليلة الى ناحيـــة الحي القرشي فلم يكترثوا لهذه الجلبة التي تغشى الأزقة . ولما وقف هـــذا الجمع البائس عن كثب من بيت عبد الله بن جدعان القرشي تردد في دخوله ، ووقف يحـــدق الى الجموع الحاشـــدة

وبعد قليل شاهد الناس سادة قريش يدخلون المنزل قلقين واجمين ، ثم جاءت الجماعات التي كانت تطوف الشوارع والأزقة فانضمت الى الجماهير المنتشرة حول بيت السيد القرشي .

وخالط النفوس قلق عنيف حينما اخترق ابو طالب بن عبد المطلب باب المنزل ثم لحق به أمية بن ابي الصلت وصفوان بن أمية وورقة بن نوفل وغيرهم من سادة قريش بل لقد راح الناس يتهامسون ويتساءلون .

ــ ما ذا حدث ؟ فهل استأنف الأحباش غارتهم على جزيرة العرب حتى تو افد القرشيون كبيرهم وصغيرهم الى بيت عبد الله بن جدعان ؟

لم تعرف مكة مثل هذه الجلبة الا في الايام البائسة التي حملت كثيراً من المآسي الى سكانها الآمنين الوادعين .

وقد لبثت مكة حرماً مقدساً خلال عصور عدة . فلم يقتحمها عدو مغير ولم يؤد اهلها أتاوة . ولا ملكها ملك قط وكان ملوك حمير وكندة وغسان ولخم يحجون اليها فيدينون للحمس من قريش ويرون تعظيمهم والاقتداء بآثارهم مفروضاً وشرفاً عندهم عظيما (١)

اذن فاي حادث هذا الذي حدث حتى روع مكة في هذا المساء : هل انبعث خلاف بين رؤسائها وزعمائها ؟

---

(١) معجم البلدان لياقوت الحموي ج ٨ ص ١٣٧

لقد كان هؤلاء الرؤساء حلفاء متآلفين فليس ممكنـــاً ان ينشب خلاف بينهم ، والعرب يعلمون ذلك ويعلمون ان قريشاً أمنع حي في العرب ، اذن فما عسى ان يكون هذا الحادث الذي جعل الناس يفدون زرافات ووحداناً الى بيت عبد الله بن جدعان ؟

— لقد قال احد المجتمعين حول منزل السيد القرشي . لعل الأحباش اعادوا الكرة على البلاد ؟

فاجابه آخر :

— ولـكن الأمثولة القاسية التي تلقاها هؤلاء السود كافية لحملهم على الزهد في غارات لا جداء منها .

وقال آخر :

— كنت احد شهود تلك المعركة التي انهزم فيها ابرهة وجيوشه وارجح ان النجاشي لا يفكر كرة اخرى في القذف بجيوشه الى الموت المريع .

وقال آخر :

— ربما حدث حادث في عكاظ افضى الى هذا القلق !

— ليس صحيحاً هذا الذي تقوله فان الموسم الذي افتتح منذ ايام كان مظهراً شريفاً لتآلف القبائل وتآزرها ولولا حادثة عدي السكران لكان موسم هذا العام من احفل المواسم بالموادعة .

وقال آخر :

— ماذا فعل الله بعدي ؟

— عاذ بخديجة بنت خويلد وبدأ يتذوق حلاوة الحياة مع زوجته وطفلته وقد اقلع عن الخمر والميسر .

وفي تلك اللحظة فتحت ابواب منزل السيد القرشي فاذا سادة قريش يخرجون الى دار الندوة يتقدمهم حرب بن امية وعبد الله بن جدعان وامية بن ابي الصلت وابو

طالب بن عبد المطلب ، فلما استيقن الناس من خروجهم الى دار الندوة ادركوا ان هنالك حدثا خطرا نمت عنه هذه الوجوه الشاحبة المتقعة (١)

اعتاد سادة قريش ان يجتمعوا الى عبد الله بن جدعان في الليالي القمراء الرطبة للاستمتاع بالأحاديث المختلفة التي تروى عن الحب والشعر في القبائل . فكان مجلسه مجلس ظرف وكياسة ونعيم ، وكانت لعبد الله قينتان جميلتان دعاهما بجرادتي عاد تغنيانه وتنشدانه الشعر العذب . وقد حدث ان دعا عبد الله قريشاً الى مائدته قبل ايام . فما تخلف كبير او صغير فأخذت القينتان تعزفان عزفاً جميلا نبه في خواطر القرشيين بعض الذكريات الحلوة وكان ابو سفيان اكثر صحبه التذاذاً بهذه الأغاني التي تصف الحب ولياليه والمحب واوجاعه فطفق يتحدث الى قريش عن غزواته الغرامية في الشام حتى انتهى به الحديث الى ذكر الغساسنة ابناء جفنة فحملته ذكراهم هذه الى نقل روايات اخذ القادمون حديثاً من الشام ينشرونها في مكة .

ومن هذه الروايات ان ابناء المنذر الغساني احنقهم ان لا يعود ابوهم من القسطنطينية بعد ان تعاقبت شهور عدة على سفره اليها فثاروا على الرومان وطردوا عمالهم من البلقاء وفلسطين وبصرى وزحفوا الى الشام يريدون الروم على الخروج منها فقلق الرومان لهذا الحادث المباغت وضاعف في قلقهم ان كسرى ملك الفرس رأى في هذا النزاع الجديد سانحة مباركة لتوغل في اراضي اعدائه فاجتاحت جنوده اكثر البلاد حتى كادت تصل الى القسطنطينية .

حيال هذه الحوادث المضنية لم يتردد الرومان في قفل حدود بلادهم من ناحيتي الشام والعراق فمنعوا القوافل القادمة من الحجاز ان ترتاد الشام وبطاحها

---

(١) جعل قصي بن كلاب مكة ارباعاً وبنى بها دار الندوة فلا تزوج امرأة الا في هذه الدار ولا يعقد لواء ولا يعذر غلام ولا تدرع جارية الا فيها وسميت الندوة لأنهم كانوا ينتدون فيها للخير والشر « معجم البلدان ج ٨ ص ١٤١

كان الغساسنة المتنصرة حلفاء لقريش وكان ملوكهم يحجون الى الكعبة في كل عام ويقفون مع الناس المواقف كلها حتى اذا أتوا صنم مناة حلقوا رؤوسهم واقاموا عنده لا يرون لحجهم تماماً الا بذلك ؛ وبلغ من تكريم الغساسنة هذه الاصنام التي تكرمها قريش وتبالغ في اعظامها ان احد ملوكهم وهو الحارث الأكبر خرج الى مكة للحج فطاف حول اصنام الكعبة واهدى اليها سيفين احدهما يسمى مخذما والآخر يسمى رسوبا وهما سيفا الحارث اللذان يقول علقمة بن عبده فيهما :

مظاهر سربالي حديد عليهما عقيلا سيوف مخذم ورسوب(١)

وقد كان طبيعياً ولغسان هذا الأثر في حياة الحجاز ان تؤثر احاديث ابي سفيان في نفوس القرشيين فامتنعوا عن الشراب وحطم عبد الله بن جدعان آلات العزف وسرح قيانه ومضى سادة قريش الى منازلهم يفكرون في النتائج السيئة التي قد تنجم عن قفل حدود الشام في وجه تجارة الحجاز .

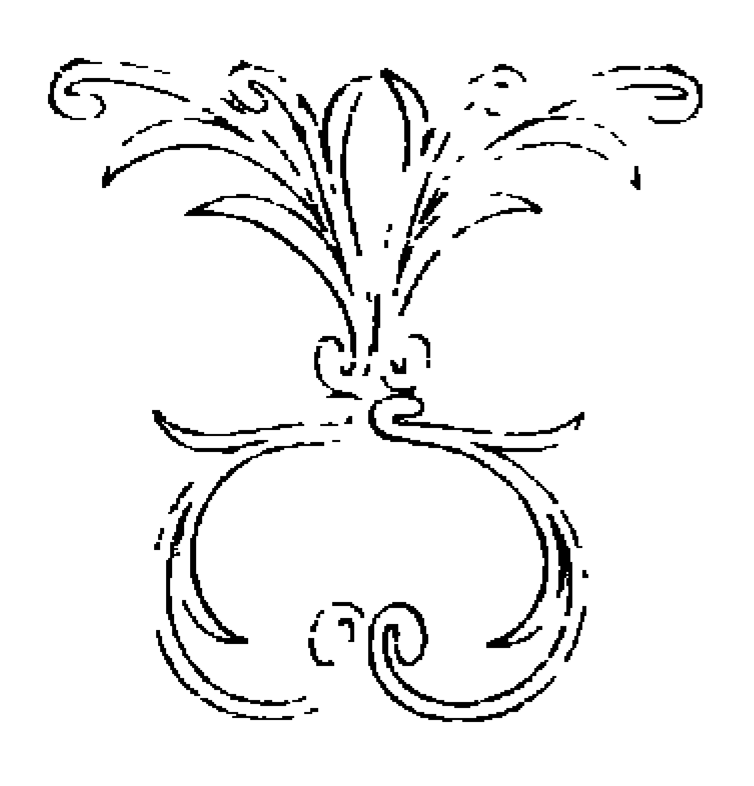
وانتشر في مكة خبر هذا الاجتماع الذي عقد في بيت عبد الله فخرج الناس الى الأزقة يسألون عن معنى هذا القلق الذي اعتور القرشيين حتى لقد مضوا يظنون الظنون السيئة وهم بعد لا يعلمون شيئا .

وفي عشية اليوم التالي خرج سادة قريش مبكرين من بيوتهم الى دار عبد الله ابن جدعان فكانت بحوثهم تدور حول الكوارث التي تهدد تجارة الحجاز وعلاقتها بالشام . وكانت قوافل بني مخزوم وبني عبد المطلب وآل عبد الدار متأهبة لنقل تحف اليمن والهند والصين الى الشام فحبسها اصحابها وفي تلك الاثناء تألبت الجماهير حول بيت عبد الله بن جدعان واخذت وفود قريش تتوافد من كل عميق للاشتراك في الوسائل التي يجنح القرشيون الى اتخاذها لمنع الأضرار التي تهدد تجارة القوافل ، وبعد قليل خرج سادة قريش الى دار الندوة كما ذكرنا فلحق بهم الناس يسألون عما حدث فارادهم ابو سفيان على الانصراف الى بيوتهم

(١) معجم البلدان ج ٨ ص ١٦٨

ولكنه لم يشأ ان يكتم عنهم الحادث فتفرقوا وهم اشد ما يكونون تبرماً بأعمال الرومان وقد تحمسوا لقضية الغساسنة وشرعوا يرمون قيصر وعماله باللعنات وأخذ بعضهم يدعو قريشاً الى اقتحام حدود الشام لاغاثة الغساسنة واصراخهم فطلب اليهم ورقة بن نوفل ان يثوبوا الى السكينة وقال لهم ان قريشاً في حصن منيع فليس للرومان مهما اشتد اذاهم ان يبلغوا هذا الحصن وان القوافل ستعود سيرتها الاولى ما بين الشام والحجاز .

وكان ورقة بن نوفل محترماً مبجلا في الجميع فارتضوا نصحه وعادوا الى بيوتهم وادعين هادئين . ؟



الفصل الخامس

الوطن في البادية

كان عددالقرشيين الذين اجتمعوا في دار الندوة ثلاثين زعيماً من زعماء الحرب والسياسة والدين وكانت راية العقاب وهي لحرب بن أمية مرفوعة على الشرفة ايذاناً بالخطر الذي يهدد القرشيين ، ولم يكن من المألوف ان ترفع هذه الراية الا في صروف واحوال تضطر القرشيين الى الدفاع عن حرية الأرض التي يعيشون فوقها وقبل عشر سنوات رفعت هذه الراية ورآها الناس تخفق على دار الندوة ؛ تعلموا ان حريتهم مهددة وان وطنهم مروع فتباروا في الدفاع عنه ، حتى رموا بالأحباش الى اعماق الدأماء ، وفي هذا اليوم تخفق راية العقاب للمرة الثانية على دار الندوة ، فوقر في اذهان الذين رأوها في الصباح ان حربا جديدة تثار باسم حرية الأرض التى قامت عليها الكعبة ، ولكن هؤلاء الذين عرض لهم شبح الحرب لم يتعرفوا الى ذلك العدو المغير ، ولم يشهدوا طلائع جيشه في ارض الوطن ولا في جباله وسهوله ذلك لأن الحدود من ناحية الشام آمنة مطمئنة لا يطرقها عدو ، وشواطيء البحر الأحمر لم تعد تستقبل سفن الأحباش والروم منذ اشتملت رمال الصحراء على جثث الاحباش اذن فمن اين جاء ذلك العدو الهدام ؟ امن الممكن ان يفكر اليمانون في اجتياح الحجاز وهم الذين اشتركوا قبل عشر سنوات في حرب الأنقاذ التي اثيرت باسم جزيرة العرب كلها ثم جاء ابناؤهم الى سوق عكاظ يجددون امام القرشيون تلك العهود التي وثقت صفوف الحميريين والقرشيين !

لما نقل حديث تلك التدابير التي اتخذها الروم لمنع تسرب القوافل القادمة من الحجاز الى الشام ادرك سكان مكة اي عاصفة توشك ان تنقض على كيان وطنهم

الصغير الذي عاش القرون الطوال بفضل اتصاله بالبلاد العريقة في تمدنها ورخائها فاشتعلت في نفوسهم تلك الجذوة المقدسه التي احرقت الأحباش قبل عشر سنوات ومضوا يتأهبون لكل طاريء .

وفي تلك الأثناء كان الزعماء في دار الندوة يصغون الى الأحاديث التي يلقيها حسان بن ثابت الشاعر على اسماعهم وكان امية بن حرب يقطع على حسان حديثه قائلا

ـــ ما ابعد هؤلاء الروم عن الوفاء . .

وجعل حسان يقص على قريش احاديث تلك المعارك التي انتصر فيها الغساسنة على الفرس وملوك العراق وفاء لقيصر ورعاية لصداقته وقد بدأ حديثه متدفقاً كالسيل

« بلى ايها النبلاء ينبغي لنا ان ندفع الأذى عن الوطن . حتى لا يكون ذلك البدوي الساذج الذي عرض للحارث بن جبلة اشد حدبا على الارض التي ولد فيها من سادة قريش وعيونها !

« قبل عشر سنوات . هبطت الشام . ونزلت بفناء الحارث الغساني . فرأيته يتأهب للحرب وقد اعد لها عدتها فقلت له ابيت اللعن ايها الملك ما تصنع وانت اب لأطفال اكبرهم سناً المنذر وهو في ربيعه الخامس عشر . واصغرهم عمرو وهو في ربيعه الخامس فنظر الي واخذ بدي قائلا :

ـــ اتسألني ماذا اصنع ؟ سأدافع عن ارضي وهي ميراث هؤلاء الذين حدبت على طفولتهم . . فقلت له ولكن الحرب عمياء لاتبصر . . فقال اوتريدني اقل وفاء لهذه الارض التي يسقيني ماؤها من ذلك البدوي الذي راح يزهو بالربيع المونق في وطنه . اسمع اذن حديثي عن ابن البادية .

خرجت في مساء لفاح الاوار الى ضاحية في غوطة دمشق انعم بماء وفيء وكان معي فتيان من قومي . فحالت الأحراج بيني وبينهم : ففزعت الى ناحية منعزلة يشقها ماء رائق . فاذا هنالك بدوي قد اضطجع على العشب بعد ان عقل بعيره فرحت اهزه حتى استفاق وفتح عينيه وهو لايصدق انه يراني فسألته من انت قال زامل

الطائي ·كنت نازلا في اخوالي بني كلب فاغار عليهم بنو القين بن جسر فاخذوا مالي فاستنصرت اخوالي فلم ينصروني فركبت جملا وقصدت الشام ، حتى اتيت هذه الروضة الغناء ، فاكلت من ثمرها ، ثم مضيت التمس بعض الهناءة في اغفاءة لذيذة تحت ذوائب القمر ثم فتحت عيني فاذا انت قبالتي ، فقلت له ياهذا هل عندك من طعام فاني طاو منذ امس فقال اتطلب الطعام وهذا اللحم المعرض ثم وثب فنحر جمله واحتاش حطباً وشوى واطعمني حتى اكتفيت فما لبث ان ثار العجاج واقبلت الخيل فاذا فرساني يحيوني بتحية الملوك فركبت وقلت دونكم الرجل اردفوه فاردفه بعضهم وحملوه الى القصر فلما عرفني مضى جازعاً فرفهت عنه وانزلته بين رجالي؛ ثم غفلت عنه مدة نخاف ان اكون قد نسيته ؛ فقال لحاجبي احب ان تبلغ هذه الأبيات الى الحارث فأنشد :

ابلغ الحارث المردد في الـــمكرمات والمجد جدا فجدا

وابن ارباب واطيء العفر والار — حب والسالكين غورا ونجدا

انني ناظر اليك ودوني — عاثقات غاورن قربا وبعدا

آزل نازل بمثوى كريم — ناعم البال في مراح ومغدى

غير ان الأوطان يجتذب المر — ء اليها الهوى وان عاش كدا

ليس يستعذب الغريب مقاما — في سوى ارضه وان نال جدا

وبلغني شعره فقلت واسوأتاه كرم ولؤمنا وتيقظ ونمنا واحسن واسأنا ثم اذنت له فلما رأيته قلت له والله ما يدحض عارها عني الا ان اعطيك حتى ترضى ، ثم امرت له بمائة ناقة والف شاة وعشرة عبيد وعشر اماء وعشرة افراس من كرام الخيل والف دينار وقلت له يازامل اما ان الأوطان جواذب كما ذكرت فهل لك ان تؤثر المقام في مدينتنا تكنفك حمايتنا ويتفيأ لك ظلنا ونسبل عليك صلتنا فقال ايها الملك ما كنت لأوثر وطني عليك ولا التي مقاليدي الا اليك ، ثم عاد الى وطنه(١)

(١) معجم البلدان ج ٥ ص ٢١٩

واردف الحارث : اي حسان اتريدني اقل وفاء لوطني من هـذا الاعرابي ، فقلت له كلا ، ثم مضى الملك في اليوم التالي لينتصر ، فانتصر على المنذر (١) ملك العراق في ثلاث معارك وكان حافزه الى النصر ذلك البدوي الذي ابى ان يستبدل صحراءه بدمشق وجناتها ! ؟

اتيته بعد عودته من الحومة ، فانشدته شعري في ذلك النصر الذي ظلل بفجره غسان . فهزه الطرب ، واماله الكبر فخلع علي رداءه لاتراءى به جميلا بهيـاً ، ثم حباني الوصائف والمطارف ، فزهت حياتي بنور ونوار . وحفلت بالوان الترف . وكانت لي في الحياة ضحكة لو ارسلت جرسها العذب الى القفر الماحل لاورقوزها .

اسفي عليك دمشق تنحسر عن افقك ظلال البهاليل من غسان لتحل مكانها ظلال الروم .

وهنا امتنع حسان عن الكلام من فرط الألم فبدا باكياً يعتصره حزن. وبهدءجوى فادرك ابو سفيان اي حزن يقرض نفس هـذا الشاعر التي انبعثت خواطره وتفتحت هواجسه في ارض دمشق المعطرة عن كثب من تلك الظـلال

---

(١) هو المنذر بن ماء السماء ملك العراق صاحب الانتصارات المشهورة على جنود الامبراطور جوستينان كان قد انتصر على الحارث الغساني في سنة ٥٤٤ للميلاد واسر ابنه وذبحه وقدمه للصنم مناة وكان يدين بوثنية العرب وفي عصره بلغ العراق شأوا بعيدا في منافسة الرومان وانتصر على بلزاريوس الروماني الاكبر في ملاحم عدة وهددت جنوده القسطنطينية . ثم نشبت بينه وبين الحارث بن جبلة الغساني معارك ثلاث في عين اباغ وقنسرين ومرج حليمة انتهت كلها باندحاره مات قتلا وقاتله هو شمر بن عمرو احد بني سحيم وقيل لبيد بن عمرو وتفصيل ذلك ان الحارث الغساني لما حارب المنذر بعث اليه بمائة غلام تحت لواء شمر يسأله الأمان على ان يخرج له عن ملكه ويكون قبله فركن المنذر الى ذلك واقام الغلمان معه فقتله شمر بن عمرو غيلة وتفرق من كان مع المنذر وانتهبوا عسكره وكان ذلك سنة ٥٤٤ «المؤلف»

الوارفة التي تغطي قصور الغساسنة فاراده على الاطمئنان واردف :

ـ هون عليك يا ابن الفريعة فوالله لن تنحسر لغسان غمامة عن دمشق وفي قريش قلب يخفق ونفس تثب ، وسواعد قوية ترفع الأعلام فوق الشوامخ البواذخ وشباب شريف المطمح يتفانى في البذل .

اي قريش ! لقد عطل الروم متاجركم وسدوا في وجوهكم حدود بلادهي ربيع حياتكم المخصب فماذا انتم فاعلون ؟ ان عطور اليمن وتحف الهند والصين التي اعتادت قوافلكم حملها الى مغاني الشام لن تتسرب بعد هذا اليوم الى قصور القياصرة ، ولن يعبق شذاها في معابد الرهبان وليس شك في ان حجزها قتل لهذه الحياة التي تلذون جناها وتستعذبون حصادها . .

وتكلم كثيرون غير ابي سفيان ، فكانت كلمتهم متفقة على ارسال وفد الى ابي قابوس النعمان بن المنذر ملك العراق يسأله ان يمنع جنوده الزحف الى الشام حتى يظفر الغساسنة باعدائهم الرومان وتتوطدحرية ارضهم فتألف هذا الوفد من عبد الله بن جدعان شيخ قريش وكبيرها بعد عبد المطلب بن هاشم . ومن امية بن ابي الصلت ، وحسان بن ثابت الشاعر . وحمل حرب بن امية هذا الوفد كتابا الى الملك النعمان استفزه فيه الى مقارعة الروم ومحاربتهم اذا هم مضوا الى النهاية في قفل حدود الشام ، وعرض امية للملك ذكريات تلك المساعدة النبيلة التي قدمتها جيوش العراق لسيف بن ذي يزن ، وكان تاجها تطهير الجزيرة من مخابث الاجانب، ثم وصف له الكارثة الجديدة التي تهدد حياة الحجاز . وقال « ان اقل ما يتوقعه اهالي الحرم المقدس من قفل الحدود الجوع والفاقة والعسر »

وتعهد ابو سفيان بن حرب بحماية القوافل التي تخترق حدود الشام وقال ان شباب عبد شمس لايترددون في الدفاع عن حياة الحجاز المروعة المهددة ، وستكون القوافل بعد هذا اليوم تحت حماية ثلاثة آلاف من الفتيان الذين لا يروعهم ارعاد الرومان وابراقهم .

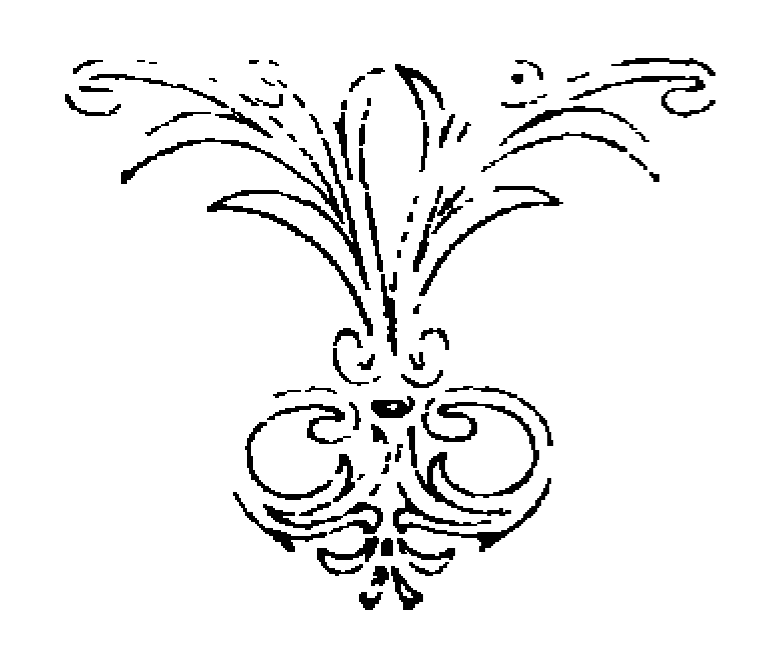
وكانت الحماسة في دار الندوة شديدة عنيفة فقد اعاد حسان بن ثابت الشاعر وصف النكبة التي نزلت بغسان ودعا العرب الى حلف يمنع عنهم الكوارث وعدد مآثر الغساسنة وذكر حمايتهم لشعراء البادية وحدبهم على الأواصر التي تربطهم بقريش وسائر العرب .

ثم ذكر طواف الحارث الغساني ومارية ذات القرطين بالكعبة وحجهما الى البيت وامتناعهما عن اصراخ الحبشة النصارى في زحفهم الى اليمن والحجاز

فاثارت خطبته حمية شيوخ قريش فتعالت اصواتهم بالدعاء للعرب ورجوا ان لاتسفح دماء بعد هذا اليوم بين الشام والعراق

ولما عسعس الليل تفرق رؤساء قريش الى بيوتهم ومضى ورقة بن نوفل الى بيت خديجة بنت خويلد وهو يسير بين رجلين من رجاله متوكئاً على عصاه .

وكان ابو طالب بن عبد المطلب اشد رفاقه حنيناً الى منزله فشخص اليه رجاة ان يحمل بين ذراعيه ذلك الغلام الوسيم الطلعة الذي رأى فيه الراهب بحيرا رسولا كريماً وملكا عظيما .؟



الفصل السادس

خديجة بنت خويلد

مكة اقدم مدينة في جزيرة العرب ، تقع في واد والجبال مشرفة عليها من كل النواحي ، بناؤها من حجارة سود وبيض ماس ، واجمل بيوتها واروعها واحفلها بالزخرف بيت عبد الله بن جدعان شيخ القرشيين وزعيمهم ، ثم بيت خديجة بنت خويلد الاسدية (١) ثم بيوت آل عبد شمس ، وهذه البيوت طبقات مبيضة لطيفة ولكنها مبطنة في داخلها بالخشب المحلى بالنقوش البديعة المونقة ؛ يلوح من النظر اليها ان بناتها كانوا لايجهلون فن العمارة الفارسية في اواسط القرن السادس للسيد المسيح .

ومكة حارة قائظة في الصيف الا ان عشياتها رطبة تأنس بها النفوس ولا تعافها وليس في قلبها شجر مثمر الا شجر البادية . فاذا جاز الانسان الحرم بدت له عيون وآبار وحوائط كثيرة واودية ذات مزارع ونخيل .

اول ما يستوقف الداخل الى مكة في اواسط القرن السادس هذا الرواء الذي يغشى بيت خديجة بنت خويلد سيدة القرشيين كما يسميها معاصروها وامبراطورة الصحراء كما يقول عنها مؤرخو الرومان فقد كان البيت مؤلفاً من طابقين كثرت فيها الشرفات المصنوعة من المرمر واحدقت بها ابراج من القرميد الأحمر تماثل ابراج القصور في الهند وفارس وتقوم على مسافة خطوات قليلة من هذا القصر بيوت صغيرة ملحقة به اعدتها ربة القصر للضيوف ورجال القوافل التي كانت تبعث بها الى الشام والى العراق .

يصعد الزائر الى قصر خديجة في سلم من المرمر الأبيض النقي ، حتى اذا احتواه

---

(١) من بني اسد بن عبد العزى بن قصي

القصر بدت له ساحة ازينت اطرافها وجنباتها بطنافس زاهية من صنع الهند وفارس ثم تبدو له الى يمين هذه الساحة غرف واسعة تطل نوافذهـــا على الكعبة ، والى يسار الساحة غرف واسعة ايضاً محلاة بالنقوش المذهبة ، ثم تتراءى سلم مرمرية تتصل بالطابق العلوي الذي هيأته السيدة القرشية لعزلتها ولم يكن يقيم معهـــا في الطابق الاول غير ورقة بن نوفل ذلك الشيخ الوقور الذي احبه القرشيون وتباروا في اعظام شيخوخته الخصبة بالتهذيب والعلم ، ثم بعض ذويها وغلامها ميسرة

وكانت خديجة بنت خويلد تتمتع بشهرة طائرة في الشام والعراق وفارس وبلاد الروم لعراقة بيتها في الشرف من ناحية ولأستيلائها من ناحية اخرى على تجارة العطور والديباج والحرير في الهند واليمن وبلاد الفرس ، وكانت قوافلها التي تعد عشرة آلاف من الجمال تنقل التجارة الى اسواق البلاد المهذبة ، فيقبل عمال الروم على اقتنائها ، بل لقد كان لخديجة عمال من الروم والغساسنة والفرس في دمشـــق والحيرة والقسطنطينية وفي عاصمة كسرى ! ؟

وعرفت خديجة في مكة بعطفهـا على الفقراء والايتام ، فجعـــل الأباء الذين لايجدون في هذه الحياة غير الكفاح العقيم يغشون دارها حاملين اليهـــا ابناءهم الجياع فلا تتردد تلك المرأة الشريفة في اصطناعهم وحبسهم على خدمتها فيجد هؤلاء البؤساء على موائدها ذلك الخبز الذي لم يجدوه في بيوتهم التعسة الفقيرة .

وكانت مجالس خديجة في مكة حافلة بكل ما يصقل النفس و يهذبها ويعودهـا على الفضيلة فلا يحضر هذه المجالس الا الشاعر النبيه الذي عف قلبه ولسانه ، والا السيد الجليل الذي وقف حياته على الاعمال النبيلة ولم يكن يغشى هذه المجالس افاق ولا سكران ولا متعبد الى صنم .

اروع صفات هذه المحسنة عطفها على الصغار ، فقد كانت امـــا لطفل صغير ، مات عنه ابوه وهو في ربيعه الثالث فحبته خديجة العطف كله ، والحب كله ، والشفقة كلها ومن اجل هذا الطفل احبت خديجة الطفولة في الفقراء والبائسين

والمعوزين حتى اذا عرضت لها دمعة بائسة في عيني طفل بائس ، راحت مدنفةوالهة وراح قلبها ناشجاً شاجناً .

وكانت ترى العام عاطلا من البهاء ، خلياً من الفرح اذا لم ترافق الحيـاة عاطفة حدب على الصغار ، فاليتيم في عقيدة خديجة ، صلة بين قلب الانسان والاحساسات العالية الشريفةواليتيم وحدههو الذي يستطيع ان يخلع على الحياة ابتسامة متوردةزاهية

وفي المساء حينما تغطي ظلال الشفق الحمراء جبال مكة وتخلع عليها تلك الالوان الراعشة على صفحات السماء تحتبس خديجة بين ذراعيها طفلها اليتيم مصغيـــة الى جرسه ، مستمتعة بعبثـــه ولهوه . ثم هي تتنشق عبقه في كثير من الورع والحب كأنها لاترى في الحياة شيئاً اشد اثارة للعواطف السامية في صدرها من هذا الصبي الجميـــل اليتيم .

وحينما يكون ابنها بعيداً عنها بين اهل ابيه تمضي خديجة الى بيوت المكدودين والبائسين لتجد فيها صغيرا تودعه هـذا الحب الذي يتفجر في نفسهـــا ، حتى اذا اخذته بين ذراعيها استطالت لذتها واورقت ايامها بازهار الرحمة الندية ، ثم تؤوب الى منزلها مطمئنة الى ان احسانها الى اليتيم مانع عنه بؤسه وفقره !

وعلى هذه الصورة كانت خديجةفي مكة البلد الماحل الجديب زهرة مباركة ذات الوانواريج فواح ، بل لقد كانت خديجة في هذا البلد الذي لايعرف المـاء ينبوع حب وعطف يرده العطاش الى مناهل الرحمة ! . .

في ذات عشية من عشيات مكة المقمرة جلست خديجة في حجرتهـــا تداعب طفلها وتنصت الى احاديث طفولته الســـاذجة البريئة بينـــا اعراف البخور تتأرج في مجامر من الذهب والفضة .

وكانت السيدة القرشية تضحك لوسوسة ذلك الطفل الأزهر الذي يركض في انحاء الغرفة لاهيـا مغرداً مراحا طروبا ، ثم لايلبث ان يحس التعب فينقطع عن ركضه وعبثه ليستريح في حضن تلك الأم الشفيقة الرحيمة .

وكانت نوافذ القصر المطلة على الكعبة مفتوحة والهواء الرطب ينبعث الى داخل الغرفة وانوار القمر تغسل الجدران والحنايا والأقواس ثم لاتلبث ان تغمر وجه ذلك الطفل الجميل الذي وجد لهوه ومراحه في العبث بشعر امه المستفيض على كتفيها كاجنحة الليل .

لقد كان يقول لها :

ــ اتحبينني يا اماه ؟

فكانت تسأله حادبة والهة !

ــ من لقنك هذا السؤال ؟

ثم تحدجه بنظراتها وهو ساكت لا ينبس كأن طفولته لاتستطيع التعبير عن خوالجها ولكن تلك القبلات المعسولة التي تطبعها الأم على جبينه المتورد كالفجر لا تلبث ان تهز شعوره فينطق لسانه ثم هو يمضي الى امه قائلا :

ــ احبك ! وانت ايضاً تحبينني . انني ارى ذلك في عينيك .

خيل الى خديجة وهي قريبة من النافذة انها تسمع اصواتا تتردد اصداؤها في كل ناحية من نواحي مكة فنهضت من مكانها الى النافذة والقت بصرها الى ناحية الكعبة فاذا هي ترى جموعا متكاثفة تنتشر في الأزقة . ولما سألت عن معنى هذا الضجيج قيل لها ان الناس عائدون الى بيوتهم بعد ان حضروا موسم عكاظ فاطمأنت نفسها وزال قلقها وهمست قائلة:

ــ اذن سأرى ورقة في هذه الليلة :

وحاولت ان تغلق النافذة حتى لا يزعجها ضجيج تلك الاصوات المتعالية . ولكن صوتا جديداً انبعث من ناحية الباب ثناها عن عملها فالتفتت الى ناحية الباب فاذا على عتبته غلامها ميسرة فقالت له :

ــ اهذا انت ؟ هل حدث حادث حفزك الى حجرتي في هذا المساء

ــ مولاتي !

— ولكني المح في عينيك شيئاً كثيراً من الكمد والحزن ، فهل عرض لورقة حادث في عكاظ حتى عدت الي مبتئساً كئيباً !

— سكني روعك يامولاتي فان ابن عمك ورقة ينعم بصحة وعافية .

— اذن فيم هذا الغم الذي يغشى جبينك ؟

— اتسأليني يامولاتي لماذا انا في حزن ؟ اذن فاسمعي . لقد كنت قادما اليك قبل ان تغطي ظلال الشفق هذه الأرجاء ، فلما اشرفت على القصر اذا خيال يقترب الى هذه الناحية ، وهو يمشي مترسلا متباطئاً ، فدلفت الى ناحيته اسأل نفسي معنى هذا القلق الذي يصحب خطواته . ثم رحت ناظراً اليه ، فبدا لي في ذلك الخيال الراعش وجه امرأة اعتصره الغم وامضه التعس . وشد ما كان ارتيـاعي وقلقي ، حينما رأيت تلك المرأة تحمل مولودة احسبها لم تنشر الا منذ ايام . ثم التفت الى يمين تلك المرأة ، فاذا رجل مكدود يكدح كثيراً ليلحق بهـا فوقفت انظر تارة الى المرأة المدنفة ، وتارة الى ذلك الرجل المحروب حتى رأيتهما يدنوان من باب القصر . فعلمت انهما يقصدان اليه ، وقد قطعا المسافات النائية على الاقدام ليجدا في داخله بعض الراحة .

ثم اقتربت من المرأةوكدت اسألها عن معنى هذا الالم الذي يعتصرها فترددت احتراماً لألتياعها وجواها ، ولكن المرأة لم تشأ ان تمتد بي حيرتي وقلقي فمدت الى القصر يدها وسألتني قائلة :

— افي هذا القصر مقام خديجة بنت خويلد ؟

وكان لصوتها المحزن الشجي عصف في نفسي فقلت لها .

— نعم هنا في هذا القصر مقام خديجة فهل تريدين وصولا اليها ؟

فنظرت الى بعينين نديتين واستتلت قائلة :

— اتعرفها ايها الفتى ؟

— نعم ، انا غلامها ميسرة فمن اين اتيت ؟ ومن يكون هذا الرجل الذي يسير

في اثرك ملتاعاً محزوناً ؟

• فزفرت المرأة وقالت لي :

ــ لقد اتيت من عكاظ ، وهذا الرجل هو زوجي . .

ــ وماذا كنت تفعلين في عكاظ ؟

فقـــالت :

ــ ان التعب قد امضني ، وانا ام لطفل لم يمض على بعثه وظهوره غير ثلاث ليال فاذا كنت حدبا رقيقاً ، وكان المي يبتعث في نفسك الشفقة فلا تكثر من هذه الاسئلة التي تطرحها علي ثم لايكون لها صدى في نفسي المائتة . . خذني الى خديجة ايها الفتى قبل ان يدهم الموت زوجي ، وقبل ان يقتلي وطفلتي الجوع ٠ قل لها ان في القصر اماً طاوية لاتستطيع ارضاع مولودها وزوجاً طرحه البؤس في مطارح الحزن والاسى !

ــ اقالت لك انها ام طاوية ؟ . .

ــ نعم ؛ نعم لقد وصفت لي غماءها وصفاً اراق كثيراً من دمعي فرحت راعشاً مغموما فوضعت خديجة يدها على كتف ميسرة وقالت له :

وهل زوجها لم يتذوق طعاماً ايضاً ؟

ــ مولاتي ! لو رأيت ذلك الزوج التعس : لما منعت قلبك الخفوق فلقد بدا لي ذابلا ناحلا تحت عاصفة من الجوع اخذت تقوض صروح نفسه ! . .

تخلجت خديجة الرحيمة الشفيقة تحت وقر هذه الاحاديث ٠ فمضت تذرع الحجرة روحة وغدوة وقد تمثل لعينيها خيال تلك الطفلة التي لم يمض على خلقها ثلاثة ايام ثم عرض لها مشهد الزوجة الملتاعة ومشهد ذلك الزوج المنكود فما لبثت ان دارت بعينيها نحو ميسرة راجفة واجفة ثم قالت له :

ــ اين اجد هذا الموكب التعس ؟

ــ ان هذا الموكب الذي يمشي فيه الجوع والفقر والنشيج المؤثر قد امضــه

التعب فمضى يعرس حيال عتبة القصر . . .

— اذهب بهؤلاء البائسين الى دار الضيافة فاني لاحقة بك

فمشي ميسرة الى الباب وهو يعثر وحملت خديجة طفلها وقد غامت عيناها الضحوكان ، ثم راحت تقبل الطفل قائلة :

— في عينيك الساجيتين الصافيتين اقرأ الحب والشفقة .

ثم شخصت الى دار الضيافة وعبرت الغرفة التي نزعت اليها فلول البؤس المحطمة فاسلمت طفلها الى ميسرة واقتربت من تلك الخيالات الهزيلة التي افقدها الجوع والأعياء والفقر شكلها الانساني فبدت قبيحة بشعة .

وكانت ماوية مطروحة في جانب من الغرفة كأنها دمية من الدمى وعلى صدرها تلك المولودة التعسة التي رأت النور منذ ثلاث ليال وهنالك في ناحية اخرى من الحجرة جثة ثالثة هي جثة عدي فكادت خديجة تحسب نفسها حيال اموات كانوا في الاحياء منذ ايام لولا ذلك الفحام الأليم الذي كان وحده دليلا على ان شمس الحياة لم تغرب بعد .

وكانت الأم واجمة مبهوتة تنظر الى ما يعرض لها في الحجرة بعينين خابيتين كامدتين وقد حسرت عن صدرها حتى برز ثدياها ، بينما كانت الطفلة لا تجد في الثديين كثيراً او قليلا من اللبن .

وكان عدي يتضاغى من الجوع ، وهو لا يجد حوله غير تينك الصورتين الماحلتين ، صورة الام التعسة وصورة البنت المروعة .

فجعلت خديجة تنظر الى هذا المشهد الذي يمثل الحياة الماحلة الجديبة وهي لا تصدق هذا الذي تبصره عيناها ، ثم التفتت الى ناحية ميسرة الذي يحمل ابنها بين ذراعيه ، فاذا طفلها الجميل البهي كالوردة البيضاء يضحك لها ، فرأت في ضحكته وصحته مشهداً ثانياً للحياة ، ولكنه مشهد الحياة الناعمة القريرة الحافلة بالخصب .

وفي خفة الوميض تهافتت خديجة على طفلها واخذته بين ذراعيها باكية ناشجة

كأنها خشيت ان يعتوره الضنى والبؤس والجوع وقالت لميسرة :

— انكنز الذهب والفضة والناس يموتون من الطوى . قل لهؤلاء الخدم ان يوافونا بالخبز واللحم والماء قبل كل شيء .

ومضى ميسرة ، وبعد قليل عاد الى الحجرة يرافقه بعض العبيد ينقلون بين ايديهم الخبز واللحم والماء ، فشرع ميسرة يريق الماء على تلك الوجوه الذابلة ، فاذا هي تحس انتعاشاً وحياة ، ثم جعل يسقي المرأة ويهدهد المها حتى فتحت عينيها وكان العبيد قد فرغوا من عنايتهم بالزوج ففتح عدي عينيه واستوى جالساً .

طفق الزوجان يحدقان تارة الى خديجة التي لم تكن تفارق طفلها ، وتارة الى ميسرة وعبيده .

وكانت اول كلمة قالها البائسان :

— اين نحن ؟

فتقدمت خديجة منهما وقالت بصوت عذب النبرات :

— انتما في دار خديجة بنت خويلد .

فصاحت ماوية !

— اتكونين خديجة يامولاتي ؟

وصاح عدي

أأنت هي تلك المرأة التي ينبثق فجر الرحمة في صدرها ؟

لقد قالوا لنا عنك اشياء كثيرة . قالوا ان يدك لا تكاد تمس صحراء النفس البائسة حتى تخصب وتورق وحتى تنفجر بالينابيع .

فمسحت خديجة دمعة حارة سالت على وجهها وقالت :

— من قال لكما كل هذا ؟

فقالت ماوية :

— ورقة بن نوفل

ـــ اهو ورقة الذي بعث بكما الي ؟

ـــ نعم ، نعم .

ـــ لقد احسن ورقة الي كثيراً بعمله هذا . لأنه ارادني على البحث في بيوت الفقراء والمساكين عن تلك الدموع الدافقة التي لا تجد من يمسحها . ليس من شك ان العالم يطفح بالنواحي التي يعيش فيها عاثروا الجد ، وهذه النواحي الكثيرة لا تبرح مجهولة لدي ، ولكني سأبحث عنها ، وسأبحث كثيراً حتى اجدها وحتى استطيع مسح تلك العبرات التي تريقها عيون لم يغمضها البؤس والجوع ، والان في قدرتك ايتها المرأة ان تقصي علي قصتك الشجية . ما اسمك ؟

ـــ ماوية .

ـــ واسم زوجك ؟

ـــ عدي .

ـــ واسم طفلتك ؟

ـــ اسمها الجوع . .

ـــ كلا . كلا ، سمها اذا شئت خديجة .

فتبسمت ماوية للمرة الأولى بعد تلك الليالي الجافلة التي تذوقت مناكدها ومناحسها والتفتت قائلة :

ـــ بلى ان اسمها خديجة ! .

فقالت خديجة :

ـــ والآن قصي علي قصتك الشجية اذ يهمني كثيراً ان اعلم شيئاً من ماضي حياتك البائسة .

فتأوهت ماوية واستتلت قائلة :

ـــ أتريدين التعرف الى ماضي انا ؟ ام تريدين التعرف الى ماضي زوجي ؟

ـــ أكان لواحدكما ماض يفترق عن ماضي الآخر ؟

فقال لها عدي :

ــ لقد كان ماضيها غير ماضي .

ــ وكيف ذلك ؟ ايكون للزوجين المتحابين ماضيان مختلفان ؟

فقال لها عدي :

ــ لقد سلخت ماضيها في الاخلاص لزوجها والحرص على واجباتها ، فلم يكن في القبائل من ينافسها لافي شرف الخلق ولا فيطهارة القلب ، بينما سلخت ماضي في المعاقرة والمغامرة والأهواء الجامحةالقاسية التي تقصي الانسان عن الفضيلة . لقد كنت اضطهدها كثيراً فكانت تصبر على الاضطهاد والعذاب في غير بث ولا شكوى

انك لترين في ملامح ماوية اثراً لجمال خالب وشباب مليح ! واخجلتاه ! لقد كانت في الأيام الاولى من زواجنا شمساً تملأ سماء حياتي نوراً وبهجة ، ولكني عطلت على الشمس بهاءها ومنعت نورها ان يغمر نفسي المعتمة ، فكنت انهال عليها بالضرب الوجيع . بل كنت اعاملها كما تعامل الحيوانات القذرة وانا منزوف مخمور ! ثقي يامولاتي ان عديا الصاحي لم يرتكب اثما ولكن عديا الذي لايفيق من سكره هو الجاني . .

في ذات عشية غشيت حجرتها وهي حامل ، وكنت صريع خمر وقتيل سكر ، فقلت لها « انك ستضعين حملك بعد ايام ولكن احترسي ان يجيء حملك طفلة ، ووقر في عزمي ان اقتلها مع البنت فراراً من العار ولكنها تحملت هذه النذر الرهيبة وجعلت تستميلني اليها ، وهي تقول لي : ان احشاء المرأة غابة مجهولة فليس لامرىء ان يكشف نواحيها ؟ !

لقد كنت اشتغل بالعرافة . اقرأ المستقبل واكشف للناس حظوظهم واقدارهم فاخذت ارتاد عكاظ في مواسمها لعلي اجد اناساً تستهويهم العرافة ولكن الناس في عكاظ صدفوا عني وقالوا « اي جداء لنا من عراف سكران لا يعرف صحواً . . » لقد كانوا يقولون صدقاً ، اذ اي قيمة لاقوال السكارى والمنزوفين :

ومنعني الناس ان اغشى عكاظ في سكر وجنون فما امتنعت ودخلت السوق وشريعة عكاظ تأبى على الكمي المسلح ان يشهد المواسم . فلما كان الموسم قبل ثلاث ليال رأيت امرأتي بالقرب من الشيخ المبجل ورقة ابن نوفل فثار جنوني لمشهدها ورفعت يدي احاول قتلها . فصرخ الشيخ صراخا ملأ نواحي عكاظ فاذا شباب اميه وقريش يسرعون الى ناحيته . فلما رأوني هزتهم النخوة وثارت حماستهم فاغمضت عيني حتى لااری هذا الذي ارادوا صنعه بي . .

وبعد قليل فتحت عيني فاذا انا بين يدي ابي سفيان بن حرب . واذا امرأتي تحمل الى سرادق القرشيين . لقد خالجني الندم للمرة الاولى ، ووجدت الرحمة الى قلبي سبيلا للمرة الاولى . ثم بكيت للمرة الاولى .ولما مشى بي ابو سفيان الى السرادق رأيت امرأتي قد وضعت تحت تأثير الخوف ولكن طفلها جاء سليما معافى . ثم اذا بي اسمع جرساً عذبا فنظرت الى الناحية التي .وت اليها امرأتي ، فاذا عيناي تصافحان هذه الطفلة . وللمرة الاولى ايضاً رأيتني بشراً يحس ويشعر ويتألم ويبكي . فرحت الى الطفلة اقبلها واردت امرأتي على الصفح فصفحت وتناست ذنوبي كلها .

فقالت خديجة :

— وماذا صنع ورقة لكما ؟

— لقد علمت ان امرأتي لجأت اليه وطلبت منه حماية ورعاية ، فلما استوثق ورقة من ندمي صفح عني ،ونصح لي ان افيء الى ظلك الظليل لأعيش وامرأتي وهذه الطفلة تحت حمايتك !

وبدا التعب على جبين عدي فما عاد ينبس فنظرت خديجة الى ماوية وقالت لها:

— ثم ما ذا ؟

فزفرت المرأة وقالت :

— لست أدري هذا الباعث الخفي الذي يجعلني في هذه العيشة ذكوراً لشجوني

وآلامي الماضية ولكن ثق ان البؤس لم يسلبني هذه الزهرة العـــابقة التي تفتحت واورقت في نفسي فلقد بقيت الفضيلة وهي انضر ما وقع عليه بصري من ازهـار الحياة تملأ افقي الذي اعيش فيه روحاً وريحاناً وتوثباً ونشاطا

وكنت لا احفل بهذه الرياح الزافة العاصفة التي يحملهـــا الفقر الى بيتي : بل كنت اقول لهذه الرياح: حطمي بيتي وقوضي جدره وصروحه . فانك بعد هذا كله لاتبلغين منالك من اذلال نفسي !. .

ثم ما لبثت هذه الظلمات التي غشيت افق حياتي ان انحسرت حينما رن في اذني صوت التوبة والندم . فغفرت لزوجي سيئاته لأني رأيته يعود الي رجلا جديداً

قال لي عدي وهو يفتح لي ذراعيه : لقد نضوت ذلك الثوب العتيق الذي تكرهين النظر الى خروقه البادية لألبس ثوباً جديداً يبهجك منظره . وللمرة الأولى غامت عيناي بدموع الفرح

لها الله من ليلة مباركة . حملت الي السعادة والمرح وحملت الى مهد طفلتي قبلات الأب الرحيم لا قبلات المسرف السكران

عانقت زوجي ناسية ماضيه غير ذاكرة بعض الشيء من ماضي التعس ! وفي اليوم التالي تركنا عكاظ الى مكة . فكان لزاماً ان نقطع المسافة بين عكاظ ومكة على الاقدام ونحن لا نملك غير قليل من الماء وقليل من الخبز .

ثم اشرفنا على مكة في هذا المساء

هذه هي قصتي وتلك هي قصة عدي ايتها المرأة الفاضلة التي حباها الله الشرف الباذخ والنسب الصحيح والعقل الرجيح

فنظرت خديجة الى عدي وقالت له :

— واخيراً هل ودعت ذلك الماضي الذي لا يستحق كثيراً او قليلا من الأسف؟

فقال لها :

— لقد عدت انساناً جديداً لا يذكر شيئاً من ماضي حياته

والقى بنفسه على يدها يقبلها في كثير من الورع فقالت له :

— عش في منزلي آمنا وادعاً بين زوجك وولدك .

والتفتت خديجة الى ميسرة قائلة :

— ليكن عدي في جملة رجالك منذ اليوم وانت ايها التعسة ستعيشين عن كثب من هذه الطفلة تحت هذا السقف وستجدين لخديجة الصغيرة لبناً صافياً تغذينها به .

وراحت خديجة تقبل طفلها فنظر عدي وماوية الى ذلك الوليد الصبيح وحاما حوله يقبلانه باكيين .

ثم قال عدي لخديجة :

« ان احسانك ايتها السيدة النبيلة قد فجر في حياتنا الجافة القاسية ينابيع رحمة وحب فعاد العالم الذي جفانا وجفوناه ساحراً في العين وراح كل شيء في الحياة جميلا فتاناً .

وأراد عدي الخروج من الحجرة فقالت له خديجة :

— الى أين ؟

— دعيني انطلق الى اللات والعزى .

— وماذا تريد ان تفعل ؟

— أريد ان اخلص لهما في العبادة لأنهما أترعا حياتك بأزهار الرحمة .

ولم يكد عدي يخطو الى ناحية الباب حتى عرض له شبح منعه الخروج وقال له

— انك لاتمضي الى اللات والعزى ايها الرجل ! »

فصاحت خديجة مبهوتة :

— ورقة !

— نعم ورقة ، لقد وصلت في هذه الليلة الى مكة قادماً من عكاظ . أكنت لا تتوقعين ايابي اليك في هذا المساء ؟

— بل كنت اتوقع ايابك قبل هذه العشية يا ابن عم

فالتفت الأعمى الى ناحية عدي وقال له :

— اذا شئت ايها الرجل ان تشكر هذه المرأة على صنيعها فامض الى الله واخلص له في عبادتك

فحدق عدي في الحكيم الأعمى وهو لا يدري ما يقول وتابع ورقة حديثه قائلا :

— نعم امض الى الله واشكره فانه احق بشكرك من اللات والعزى !

فقال عدي :

— واين اجد الله ايها الحكيم ؟ دلني عليه ! دلني عليه !

لقد رافق الله امرأتك في بؤسها فمنعها ان تسقط فعادت اليك نقية كندى الصباح

— اين اجده . اين اجده ؟ دلني عليه !

— حينما ازدحمت آلام المخاض في نفس امرأتك وتهافت عليها البؤس والجوع والفقر . ونأى عنها حب الزوج المخلص الأمين كان الله وحده صاحب المعجزة الباهرة في تخفيف آلامها واوجاعها

— دلني عليه ايها الرجل ! قل لي في اي مكان هو ! افي الجبال البعيدة حيث تشرق الشمس ام في الشواطيء حيث يمور البحر : ام في السهول حيث ينبت الحب ويورق العشب؟

— أتريد ان تعرف مقره ؟ انه في الجبال والبحور والسهول : وهو كذلك في الينابيع والازهار والحقول . في السماء والارض والسحاب . في العاصفة وفي السكون والهدو . في كوخ الصياد وصومعة الناسك . بل هو في بيت الفقير وفي قصر الغني . انه في كل مكان ايها التعس !

— اهو في كل هذه النواحي ؟

— لست في حاجة الى عبور هذه النواحي للوصول الى الله ففي قدرتك ان تسمعه صوتك وانت في مكانك فيسمع !

فحدق عدي في وجه ورقة بن نوفل وقال :

ــ علمني ما اقول له · علمني ولك حياتي كلها

ــ قل ايها المسكين !

« رب خالق الارض والسماء · لقد كفرت بنعمتك المسبلة علي وكنت لا اعرفك ولكنني رجعت اليك بعد ان تعرفت الى حقيقتك فاجعلني في الذين يعيشون في بهائك »

وجعل عدي يردد هذه الكلمات وهو اشد ما يكون ارتعاشاً وارتياعاً ، ثم سكنت نفسه الجائشة واغرورقت عيناه بدموع الفرح فالتفت الى ورقة قائلا :

ــ خيل الي وانا اردد كلماتك ان نور الحقيقة يدخل قلبي

وتهافت التعس على طفلته يقبلها باكياً ، ثم مضى الى زوجه قائلا :

ــ ليتني كنت اعرف الله من قبل. اذن لمنعت عنك كثيراً من الآلام والأوجاع

وكان المشهد مؤثراً فاحبت خديجة ان تخفف من روعته في نفوس الجميع فالتفتت الى ابن عمها قائلة :

ــ انك في حاجة الى الراحة يا ابن عم اليس كذلك ؟

ــ خذيني الى حجرتك يابنية فلقد قاسيت كثيراً من التعب في الليالي الفائتة

وغادر ورقة دار الضيافة الى قصر خديجة وهو يمشي متوكئاً على عصاه بين خديجة وغلامها ميسرة !

وكان القمر يرسل انواره الى الجبال والى الأودية والى الصحاري

وانقطع ورقة الى العبادة في قصر خديجة ، حتى رأيناه يخرج من عزلته الهانئة ليشترك في الاجتماعات التي عقدها سادة قريش في دار الندوة ، كما يذكر القراء . ؟

الفصل السابع
الطفولة المقدسة

مضى ابو طالب بعد خروجه من دار الندوة الى منزله في حي القرشيين وهو شديد الحنين الى تذوق تلك اللذة التي كان يحسها كلما ضم الى صدره الخافق الراعش ذلك اليتيم الذي قام على حمايته بعد موت ابيه

وكان محمد بن عبد الله الذي لم يبلغ بعد الرابعة عشرة من العمر صبابة نفس هذا الرجل الذي تعود استمراء الصعاب والاسواء حتى لم يعد يحفل بها وحتى اصبح مرانه عليها سليقة من سلائقه

لقد كان يحس كثيراً من التعب وهو خارج منزله ولكن هذا التعب لا يلبث ان يفارقه حينما تبدو له عتبة ذلك المنزل الهادىء الذي ترك في داخله الوداعة والهناء والصفاء . بل لقد كان ينسى اوجاع الماضي وآلامه كلما ازدحمت في صدره صورة ذلك الصبي اليتيم

منذ عشر سنوات شهد ابو طالب مآسي الغارة الاجنبية في الوطن فاشترك مع فتيان قريش في الدفاع عن حرية الارض التي ازهر فيها حلمه واورق ووقف في الصفوف الأولى التي ردت الجيوش الأجنبية وحملتها على التراجع الى شواطىء الحبشة ومنذ عشر سنوات ايضاً سافر ابو طالب الى الحيرة حاملا الى المنذر الثالث ملك العراق قلب قريش الذي هزئه ثلاثون معركة انتصر فيها المنذر تحت جدر القسطنطينية على بلزاريوس قائد الرومان

ثم عاد الى وطنه وهو لا يذكر ذلك الضنى البليغ الذي تجشمه في غدوه ورواحه بين الحجاز والعراق

ومنذ شهور سافر ابو طالب الى الشام مع ابن اخيه فمرت قوافله في طريقها

الى المدن المهذبة بأراضي بني عذرة ، فتراءت لأبي طالب تلك المغاني المرحة الوادعة التي انبثق فيها فجر الحب والشعر

ثم عرضت له اشجار النخيل في وادي القرى وامتدت امامه الضواحي الفينانة والواحات النائمة في احضان الماء الدافق الهادر .

وكانت القوافل تمر بالصوامع والأديرة المنتشرة في رؤوس الجبال وفي السفوح المخضلة فيجد رجالها في الرهبان تلك النفوس الكريمة التي يطمئن اليها العربي المتنقل بين الصحراء والمدن المهذبة

وفي خلال هذا الطواف المضني كان ابو طالب اشد ما يكون اصغاء الى ذلك الهمس اللذيذ الذي يرجعه رجال القوافل وكان هؤلاء يترعون الفضاء باشعار امريء القيس وعنترة والنابغة

وفي المساء كانت القوافل تحط رحالها في النواحي التى يتخيرها الدليل في النهار فيستريح رجالها تحت الظلال الرطبة ثم يتبارون في قراءة الاشعار والقصص الطريفة المسلية فيجد يتيم قريش متعة ولذة في الاصغاء الى القصص التى تروى عن حوادث القرون العافية والاسفار التى قام بها رجال صحاح الافهام والاجسام

وكان اروع ما يستهوي يتيم قريش في هذه الاحاديث التى يقصها الشيوخ ما كان له علاقة بتاريخ النبط والرومان . وحينما يعجز شيوخ القافلة عن تفسير بعض الحوادث كان ابو طالب وهو المربي الحكيم لذلك اليتيم العظيم يتولى شرح الغامض المبهم في حياة العصور الماضية

ولا تلبث القوافل ان تستأنف طوافها في اليوم التالي ولكن رجالها الذين يستقبلون في كل يوم افقاً جديداً لم يكونوا يتبرمون بالشعر وهو المشهد الدائم الذي يرون فيه اشراق الحياة والتماعها .

ولما عبرت القوافل البحر الميت بعد ان غادرت خلفها تلك الأراضى القائمة على خليج البحر الأحمر وبدت لها اراضى غسان وتلك الأديرة القائمة في رؤوس

الجبال مضت تنشر خيامها عن كثب من دير الراهب بحيرا !

وفي هذا الدير تمت اللقاءة الاولى بين ابي طالب وذلك الراهب العالم ، وفي هذا الدير وتحت سكونه الشامل عرف بحيرا في يتيم قريش الطفل ذلك الرسول العظيم الذي يحتاج الشرق اليه في ثورته المقبلة على أكاسرة الفرس وقياصرة الرومان .

ازدحمت هذه الذكريات البعيدة كلها في صدر ابي طالب وهو في طريقه الى منزله بعد خروجه من دار الندوة فاراد حبسها وخنقها فما استطاع الى ذلك سبيلا وظلت هذه الذكريات تتدافع في نفسه حتى عرض له منزله فترسل في مشيه وتردد في الدخول اليه ، وطرقت ذهنه المكدود تلك الكلمات التي رددها بحيرا امامه اكثر من مرة فقطب حاجبيه وراح راعشاً قلقاً .

لقد قال له بحيرا وهو يحدق في الغلام « ارجع بابن أخيك الى بلده واحذر عليه اليهود فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغينه شراً فانه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم .

ولما وقف حيال باب منزله كان صدى هذه الكلمات يتدافع في اذنيه فهمس في نفسه قائلا :

— بلى . بلى . سيكون لابن اخي هذا شأن عظيم . فلقد قرأت ذلك في عينيه وفي جبينه . وسكت قليلا ثم مضى قائلا :

— انه في بيتي وتحت حمايتي فليس في قدرة احد ان يلحق به اذاه .

ووضع يده على سيفه واردف :

— لتطمئن قريش فان فتاها في حمى منيع . وهذا سيفي لم يصدأ بعد .

وانفرط عليه وهو واقف حيال الباب امد طويل ثم مضى يخفق الباب خفقاً ووقف ينتظر وكان المساء قد احتوى الجبال والأودية والصحاري والمعابد والصوامع فرأى في العتمة هزة لمشاعره وخفقة لحواسه . وراح يذكر تلك العشيات التي كان يفد فيها على منزله تعباً مكدوداً ليضم الى صدره ذلك اليتيم الجميل

بينما صدور الامهات في مكة وضواحيها تخفق تحت سكون الليل وصمته لاولئك الصغار الذين لم تحرمهم الطبيعة قبلات الأم الحادبة وعطف الأب الشفيق .

وخفق ابو طالب الباب كرة اخرى ، ففتح له فدخل المنزل ونفسه تزخر بشتى الذكريات !

ولما سأل عن ابن اخيه ، قيل له انه لم ينم بعد وانه لا يزال ينتظر معاده حتى يستمتع باحاديثه وطرفه واقاصيصه .

فتهافت ابو طالب على حجرة اليتيم ودخلها متطامناً الى ذلك الوجه الصبيح الذي تضحك الحياة فيه وكان الصبي منتحياً في الغرفة ناحية تطل نوافذها على الكعبة . والسماء مصحية والكواكب تتألق وتلتمع والهواء ينبعث رطباً سائغاً

فنظر ابو طالب الى الصبي ، فاذا هو يضحك له . فرأى في ابتسامته حلم الحياة القريرة التي يحبها و كانت تلك الضحكة التي انفتح لها فم اليتيم ذات جرس حلو عذب . فتهافت ابو طالب عليه وراح يحتبسه بين ذراعيه ثم انشأ يقول في كلمات متقطعة :

ـــ قل لي يابني اكنت في قلق من ابطائي في الرجوع الى المنزل ؟

وطفق يعبث بشعره المستفيض على كتفيه وهو يقول :

ـــ يخيل الي انك كنت تنتظر اوبتي لتسمع بقية حديث الليلة الفائتة عن غارة الأحباش ؟

فاجابه الصبي قائلا :

ـــ ولكنك تعب ياعماه . وليس في قدرتك ان تواصل حديثك عن ابرهة !

فسكت ابو طالب ثم راح ينظر الى اليتيم نظرة متفحصة رحيمة كأنه يريد ان يستوثق من صدق العلامات التي رآها بحيرا في جبين اليتيم العظيم ثم تناول يديه وحدق الى وجهه قائلا :

ـــ ان يديك نقيتان طاهرتان ! وفي وجهك الجميل شباب مارأيته على وجه

فتى من فتيان قريش !

وعاد ابو طالب يردد اقوال بحيرا وهو ناظر ابدا الى جبين ابن اخيه ، ثم حسر عن كتفيه فرأى تلك العلامات التي تحدث بحيرا عنها وعرض له خاتم النبوة فظل محدقا اليه حتى اذهل عمله اليتيم فسأله قائلا .

— لقد روعني عملك ياعماه : فماذا رأيت على كتفي ؟

فلم ينبس ابو طالب بل ظل يحدق في خاتم النبوة تحديقاً متواصلا غيب فيه تصوراته وهواجسه فاستتلى اليتيم قائلا :

— قل لي هل رأيت شيئاً ؟

فقال له ابو طالب :

— هل امللتك يابني ؟

— كلا ياعماه . ولكني ارى في عملك هذا صورة لعمل ذلك الراهب الذي تحدث الي في الشام ثم مضى يتفرس في جبيني وفي كتفي .

— اكنت تدرك ماقاله ذلك الراهب ؟

لقد قال لك « عد بابن اخيك الى بلده واحذر عليه اليهود . فان لهذا اليتيم شأنا عظيما » .

وانحدرت من عيني ابي طالب دمعتان صافيتان فضم ابن اخيه الى صدره هامساً

— نعم نعم سيكون له ذلك الشأن العظيم الذي حدث عنه بحيرا . . .

استعرض ابو طالب في تلك الفينة حياة هذا اليتيم الذي لم يرث من ابويه شيئاً فاذا هو يتمثله طفلا في المهد لم يمتعه الله بحياة ابيه وامه . ثم تمثله راعياً للغنم مع اخوته في الرضاع يجتاز البادية ويصعد الجبال ثم يعود الى منزله في المساء .

واذكرته هذه الطفولة المقدسة طفولة موسى وطفولة عيسى فلقد عاش هذان النبيان في ايام الحداثة الأولى راعيين في البادية وكانا من ازهد الناس في الدنيا .

ولم يخرج ابو طالب من تصوراته وهواجسه التي حملته الى الماضي الا وقد اطمأن الى ان حياة الراعي لابد منها للنبيين والرسل .

وكان ابو طالب يعلم ان النبيين عاشوا بين الرعاة في شوامخ الجبال وان الطبيعة قد ارادتهم في الطفولة البريئة على قيادة الحيوان . حتى اذا استكملوا نضجهم وتفتحت اذهانهم حبتهم الطبيعة قيادة الانسان .

ولا يزال ابو طالب يذكر تلك الأحاديث التي سمعها من شيوخ قريش عن حياة هؤلاء الأنبياء القواد الذين مشوا بالشعوب الى الأغراض العالية النبيلة حتى وصلوا عن ناحيتها الى الحياة المنشئة المبدعة وحتى لم يجد النبيون القواد حاجزاً بين حياتهم الخاصة وتلك الحياة العظيمة التي تخترق العالم .

وكان يعلم ان الاحراج العظيمة والغابات والجبال والمروج والسماء تعيش متصلة بهم وبتأملاتهم وأعمالهم .

لقد استعرض امامه طفولة هذا اليتيم العظيم وطاف بجميع نواحيها فخرج من تأملاته وهو يؤمن بأحاديث بحيرا عن ابن اخيه ولكن هذا الايمان الذي ملأ نواحي نفسه لم يمنعه القلق فجعل ينظر الى اليتيم بعينين نديتين فادرك محمد روعة تلك الهواجس التي يرزح عمه تحت وقرها فود لو انه يستطيع نزعها من نفسه فقال له :

— لقد وصلت في حديثك عن ابرهة الى اليوم الذي زحف فيه الأحباش الى مكة فماذا حدث يا عماه بعد ذلك ؟

فجلس ابو طالب حيال ابن اخيه وتناول يديه ثم اغمض عينيه وطفق يقص عليه حديث تلك الملاحم التي انتهت بتراجع الحبشة الى شواطيء اليمن واقلاعهم عنها الى بلادهم .

وجعل يصف تلك الملاحم وصفاً أخاذاً بديعاً تطامنت اليه نفس اليتيم العظيم ولما عرض ابو طالب لذكر اللات والعزى امتقع جبين الغلام وقال لعمه :

ـــ اوتؤمن بهذه الحجارة يا عماه ؟

فبهت ابو طالب لهذا السؤال ولكنه ظل صامتاً لا ينبس فاستتلى اليتيم قائلا :

ـــ اما انا فما زلت امقتها واجفوها .

ولما مشى الى فراشه ليستريح ويغمض عينيه تهافت ابو طالب عليه يقبله ويضمه الى صدره ثم جلس عن كثب من ذلك الفراش فالتفت اليتيم اليه وقال له .

ـــ الا تقص علي شيئاً جديداً يا عماه ؟

ـــ بلى ولكن ليس في هذا المساء بل في مساء الليلة المقبلة .

ـــ وماذا نصنع في النهار ؟

ـــ أمرنك على رمي النبال . .

ـــ الى الغد يا عماه . .

واغمض الصبي عينيه ونام نوماً هادئاً لطيفاً .

ومضى ابو طالب الى حجرته ناصباً مكدوداً حافل النفس بذكريات تلك الرحلة التي سلخها في الشام ولما اراد عينيه على النوم لم يستطع الى ذلك سبيلا فقد ظلت احاديث بحيرا عن ابن اخيه مثاراً لشجونه فقضى ليله ارقاً ساهداً حتى تنفس الصبح فخرج من منزله الى وداع الوفد القرشي الذي انتخب في دار الندوة للاجتماع الى النعمان بن المنذر ملك العراق .

الفصل الثامن

في ميدان اوغستون

استفاقت مدينة القسطنطينية في صباح اليوم العشرين من شهر تشرين الأول سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة على عصف الأجراس والنواقيس . وخرج الناس الى وادي ليسوس البديع لجمع الأزهار والرياحين وقد نذروا جميعاً ان ينثروا حصاد ايديهم على قدمي الرجل الذي انتصر على الفرس وخاص بزنطية من اسر طويل .

في سنة ستين وخمسمائة خرج يوستانيوس الأول وزوجه تيودورا من قصر الشالسيه الى لقاء الملك الحارث بن جبلة ملك غسان في ساحة اوغستون بجانب مجلس الشيوخ وفي صباح اليوم العشرين من شهر تشرين الاول يجدد التاريخ نفسه فيخرج يوستينوس الثاني الى لقاء المنذر بن الحارث . ولكن ليس في ساحة اوغستون ولا في مجلس الشيوخ . بل في الاكربول العظيم الذي جدد يوستانيوس بناءه . في اياصوفيا . في الحرم الاقدس الذي افاض عليه انتيموس المثال وايزيدور النحات . كل هذا الجمال البارع الذي يطفو على فنون الاغريق . وكان مشهد الناس وهم ينسلون من بيوتهم تحت ذوائب الصباح الباكر مشهدا لذا يقصر عن وصفه الشعر . ويعجز عن بيانه النثر . فلقد ماجت الروابي السبع التي بنى قسطنطين مدينته الساحرة عليها في شفق القرن الرابع بهؤلاء الذين هزتهم الاجراس العاصفة تحت قباب كنيسة الرسل . وكنيسة اياصوفيا فتباروا في اللحاق بوادي ليسوس ليقرأوا شعر الطبيعة تحت الافياء والظلال ولما حصدت ايديهم الورد . والزنبق والغار ارتدوا الى نفوسهم فاذا هي في زهو شديد . وكبر عنيف ، فانحوا ناحية ميدان اوغستون ليحيوا موكب الملك الشآمي قبل تحيتهم قيصر الرومان وقد كان طبيعياً ان يروح هؤلاء مزهوين مستكبرين فان ماورثوه عن قياصرة

الرومان حبب الى نفوسهم ان يظلوا روماناً على الرغم من ولعهم بحاضرهم البيزنطي وعلى الرغم من ايثارهم القسطنطينية على روما . بل لقد كان طبيعياً ان تتفجر حماسة هؤلاء وان تجري ذكريات الماضي التي اثارتها في صدورهم مفاتن اوغستون على السنتهم اسماء جليلة عرف اباؤهم اصحابها في ميادين الحرب وميادين الفنون . من قسطنطين المنتصر على الوثنية . الى هيلانة ومن يوستانيوس المنتصر على انوشروان الى تيودورا .

وقد كان مقدراً لجميع القلوب التي في صدور هؤلاء المرحين الوادعين ان تميد وان ترعش في ميدان اوغستون . في قلب هذا الميدان الذي وسع ماضي الاغريق وعلى اطرافه وحواشيه . جميع الطرف والتحاسين البارعة التي ولدت في احضان ذلك الماضي البعيد ! واجمل هذه الطرف . وتلك التحاسين التي غص بها هذا الميدان . كنيسة اياصوفيا وقبابها الشوامخ . ثم تمثال من الذهب يصور يوستانيوس على ذوأبة فرس ابيض . وقد انحى ناحية آسية . مشيراً اليها بسيفه مهدداً . وعن كثب من الكنيسة قصور الامبراطرة والقياصرة وقد فتحت ابوابها واطلت بساحاتها واروقتها على الميدان . بحيث ينكشف للرآئي بحر من الاروقة تلاطمت على شاطئه امواج من الانصاب والتماثيل . ثم قصر مجلس الشيوخ الرفيع الذرى ثم قصور الشالسيه العجيبة التي تحيط بجانب عظيم من ميدان اوغستون . وقد اطلت هذه القصور الغارقة في النعيم والبذخ على الميدان وبدت ابوابها النحاسية يلتف بها حرس من الفتيان حجب الحديد وجوه كأنه فما تبين غير الخيول . ثم تتراءى قباب كنيسة القديس اتيان من اعالي سطوح الشالسيه المذهبة : وهنالك الى ناحية الجنوب ميدان ايبودروم : وقد امتدت عليه الغرف والمقاصير التي اعتاد قياصرة الرومان ان يفيئوا اليها في الاعياد وحفلات اللعب ؛ وطول هذه الساحة ثلاثمائة وسبعون متراً رفع الامبراطور سبتيم سيفير بناءها على طراز ملعب روما المعروف بسركيوس ماكسيموس وقد كان القياصرة يشهدون الألعاب في ساحة ايبودروم وهم

جلوس على سرر متصلة باروقة الشالسيه المفتوحة على الساحة !

وفي ساحة ايبودروم موقع السبينا التاريخي وهو ملتقى تماثيل العظماء والقياصرة فبينا يرى الرائي تمثال آدم وحواء اذا هو يرى تماثيل من النحاس تصور القياصرة القدماء من غراتيين الى فالانتنيان الى تيودوس : واروع الطرف الماثلة في السبينا مسلة تيودوس : وعمود الأفاعي : ونصب البيراميديون !

انحدرت الجموع من وادي ليسوس الى ميدان اوغستون فعرس بعضها حيال قصر الشالسيه ، وامتد بعضها الى معبد اياصوفيا مقابل القصر ، ومضى فريق من الناس الى ناحية تمثال يوستانيوس فالتفوا به واخذت الجماهير تتوافى من شتى الانحاء ، من ناحية الميزة . ومن ناحية صرح تيودوس ، ثم من ناحية برج اركاديوس . وفي تلك الفينة وصل الى الميدان موكب البطريرك منحدراً من ذروة المدينة الرابعة حيث الاديرة والمناسك والمحاريب والبيع فمر بقصر الشالسيه لحياه الحرس ثم تدفق في سيره ماراً بقصر مجلس الشيوخ ثم غشي الكنيسة العظمى .

وظلت المواكب على دفقها وتهطالها من شتى النواحي حتى ضاق ميدان اوغستون بها على رحبه وحتى عاذ كثير من الناس بقصر مجلس الشيوخ فانتشروا على شرفاته .

لقد كان لميدان اوغستون تاريخ عجيب في حياة بزنطية ، في هذا الميدان العظيم ساحة ايبودروم مهوى أفئدة الرومان ومثوى لهوهم ومراحهم ، وهو كذلك موضع ثوراتهم وفتنهم ، وذلك ان البيزنطي على شديد ولعه بالملاذ والاهواء وعلى كثرة ميوله وتعدد منازعه وطمحاته ظل نزاعاً الى الجديد فهو لا يكاد يأنس بقديم حتى يمله ويعافه فينتقض عليه ثم لا يلبث ان يبحث عن جديد يحفه بعبادته واعجابه !

وكانت لساحة ايبودروم صفة اخرى . صفة تمس اقدس اماني الشعب البيزنطي في الحرية وعطشه الى وردها فقد يحدث ان يغلظ قيصر وان يستبد

فيعطل الحريات . ويمنع الناس حقوقهم فيمضي هؤلاء الى ساحة ايبودروم ثائرين على قيصر · ويبعث قيصر بجيوشه لقمع الفتنة · فينشب عراك بين الجيش والشعب المطالب بحقه وينتهي الامر بخلع الامبراطور او قتله او نفيه الى جزر القسطنطينية في جنوبي خليج بيكوس على الضفة الأسيوية · وقد حدث سنة ثلاث وستين وخمسمائة ان ثار الشعب الفخور بانتمائه الى الرومان على يوستانيوس الأول زوج تيودورا فقذف به عن عرشه اثر حفلة ماجنة اقامها الشعب في هذه الساحة ومن هذه الحادثة يفهم الانسان مغزى العبارة التاريخية القائلة « لله اياصوفيا · وللامبراطور القصر . وللشعب ساحة ايبودروم . فحياة الشعب البيزنطي الروماني على تباين في صورها وعلى ترددها بين الجموح والهدو مجتمعة كلها في هذه الساحة المعروفة بساحة الحرية

ومع ان تاريخ بزنطية حافل بأقاصيص الانتقاض على القياصرة فقد ظل الشعب البيزنطي يحب القيصرية ويتفانى في عبادتها · وهذا الحب ناشيء عن ولعه الشديد بأعياد القياصرة ومواكبهم وملابسهم وطراز حياتهم الباذخة المترفة فاذا علمت هذا كله ادركت الاسباب التي حملت خلفاء الرومان في اليوم العشرين من تشرين الاول سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة على الخروج من منازلهم الى ميدان اوغستون

فتحت ابواب قصر الشالسيه في هذا الصباح الصحي وخرج الامبراطور يوستينوس الثاني من الباب النحاسي على محفة من الذهب يجرها اربعة من جياد الخيل ويحيط بها حرس من الفتيان تألق على اجسادهم الناعمة الملساء الذهب والحرير . وخطفت اشعة الشمس على حرابهم وسيوفهم فكان المشهد من اروع المشاهد . ثم خرج موكب الملك المنذر من باب رواق ابولون فهتفت الجماهير للملك الشامي هتافها لقيصر الرومان وكان المنذر في محفة من الفضة يجرها اربعة من جياد جزيرة العرب . وقد جلس معه في المحفة عمرو بن الحارث ومارية وهند وبعض امراء غسان ولما وصل موكب قيصر حيال الحوض المرمري تمهل في سيره ليلحق به موكب المنذر فيدخل الموكبان معاً كنيسة اياصوفيا . ثم تلاقى الموكبان فحاذت محفة قيصر

الذهبية ، محفة الملك الفضية ، والناس يشتدون في الهتاف ، ويبالغون في الانشاد ، وحسان القسطنطينية الكواعب ينثرن على مفرق الغساني النبيل انضر زهرات وادي ليسوس البديع . وكان بين الذين هتفوا لقيصر وللمنذر جماعات تمت الى شعوب الارض وذلك ان عاصمة القياصرة كانت في القرن السادس مهوى افئدة شعوب الشرق والغرب من عرب وفرس وسوريين ولبنانيين وصقالبة وايطاليين من سكان جنوه والبندقية (فنيسيا)

قالت امرأة شهدت الملك المنذر وهو ينحدر عن المحفة وسط فرسان من الرومان والعرب ، اهذا هو المنتصر على كسرى ؟ لها الله امه . لقد ولدته في ليلة عيد الميلاد ! وقالت امرأة ! وددت لو انني استطيع ان اقبله في جبينه ! وقالت امرأة ! ليتني كنت من شهود يوم ميلاده اذن لرأيت اول ابتساماته ! . . .

وشهدت عجوز متلفعة بالسواد الملك المنذر وهو يدخل بيعة اياصوفيا فهزت رأسها من فرط الألم وانثنت قائلة :

لقد دعوت لابيك يوم وطيء هذه الارض اللعينة ، وسهرت عليه حتى لا تمزق صدره خناجر الرومان وسادعو لك في هذه المرة واسهر عليك حتى تفيء الى بلدك موفور العافيه !

ثم لحقت به الى الكنيسة حيث اخذت مقعدها عن كثب من مقصورته تحت العمد الى جانب حاشية المؤلفة من مارية وهند وعمرو بن الحارث واربعة من اشراف غسان

وكان الشعب البيزنطي لايزال يهتف في ميدان اوغستون بحياة قيصر الرومان وحياة ملك الشام ،

الفصل التاسع
تحت القباب والعمد

كانت حفلة الصلاة في المعبد الذي اترعه يوستانيوس الاول بالزخارف من اروع الحفلات التي عرفتها عاصمة القياصرة في القرن السادس فقد تدفق الاشراف والنبلاء على الاروقة والمقاصير والغرف وتفرق القواد تحت القناطر والحنايا وجلس قيصر على عرش تحت القبة التاريخية التي انشأها المثالان انتيموس وايزيدور وكان العرش غنياً بزخرفه ونقوشه وزينته اختلطت فيه الفضة والعاج باللآلىء والحجارة الكريمة . وقامت في الصدر مقصورة من الفضة محلاة بالنقوش اعدها قيصر للملك المنذر لجلس اليها تحيط به مارية وهند بنت امرىء القيس وعمرو بن الحارث وكان المذبح من الذهب الصلب تخالطه عقود من المرمر والياقوت والعاج وفوق المذبح قبة من الزمرد . يزين هامتها صليب كبير من الذهب ، اما سجوف هذا المذبح فمن حرير دمشق الملون والمذهب وقد نقشت عليها صورتان تمثلان يوستانيوس وتيودورا وهما راكعان يتقبلان البركة من السيد المسيح ووالدته السيدة العذراء . وفي الصدر عرش البطريرك الذهبي وقد قام على عمودين من المرمر لاصقين بجدار البيعة وكانت سقوف الكنيسة وجدرانها مرصعة جميعها بالفسيفساء الملونة ولعل اروع زخارف اياصوفيا هذه هي الصورة الماثلة في الناحية الجنوبية من المحراب والتي تمثل السيدة العذراء والمسيح الطفل قائمين بين يوستانيوس الذي يقدم اليهما اياصوفيا وبين قسطنطين الذي يقدم اليهما مدينته العجيبة !

وثمة صورة اخرى من الفسيفساء على الجدار الجنوبي تمثل السيد المسيح جالساً الى عرش انيق جميل وقد راحت يده قابضة على الكتاب المقدس واخذت عيناه تنظران فيه الى هذه الآية «انا سلام العالم ونوره» والى يمين المسيح ميكائيل احد

الملائكة يمثل النور ، وعن يساره السيدة العذراء تمثل السلام ! وتحت قدميه احد القياصرة وقد لاح جاثياً على ركبتيه وهو متلفع بثوبه الملكي (١)

في وسط هذا الرواء صعد البطريرك عرشه وتلا صلاته باللاتينية ثم باليونانية ثم دعا اليه يوستينوس قيصر والملك المنذر فانتحيا ناحيته يحف بهما اربعة من الاساقفة واخذ الناس في تلك الفينة ينظرون الى جمال الملك الغساني وقد زها وابنع تحت ردائه الروماني ولباس رأسه العربي ولما وضع البطريرك على رأس الملك التاج الذي اهداه اليه قيصر . شحب وجه المنذر شحوبة اثمة · وراحت عيناه الى الارض ، فلم يبصر هذا الفرح الشديد الذي طغا على الجماهير ! ثم رفع عينيه الى سماء الكنيسة ورأى صورة يوستانيوس الى جانب صورة تيودورا فمضى راعشاً حتى لقد كاد يهوى لولا انه عاذ برباطة جأشه .

في صباح اليوم السابع والعشرين من شهر كانون الأول سنة ثلاث وستين وخمسمائة انحسرت ابواب الشالسيه عن ثلاثة مواكب . موكب يوستانيوس وتيودورا . وموكب الحارث بن جبلة الغساني · ثم موكب امريء القيس بن حجر ملك كندة وفيلارك فلسطين ثم تلاصقت هذه المواكب الثلاثة ، واندفعت الى ميدان اوغستون بين غياض من السنديان والبلوط ومنابت من الجوز والرمان ثم وقفت بفناء

(١) لما حول محمد الفاتح كنيسة اياصوفيا الى مسجد اسلامي في سنة ١٤٥٣ نزع الى تغطية هذه الصور بطبقة من الكلس فلم يبق في اياصوفيا من التحاسين والزين غير الفسيفساء وفي سنة ١٨٤٧ عهد السلطان عبد المجيد الى الفنان الايطالي فوساتي باصلاح المسجد الكبير وتنسيقه فازاح فوساتي الكلس عن الصور فبرزت للناس وكتب فوساتي عنها مجلداً ضخماً نقلت طائفة كبيرة من فصوله الى كتاب الفه العالم سلزنبرج ثم احتجبت هذه الصور كرة اخرى في عهد احد السلاطين وبقي وصفها حياً في كتاب فوساتي وكتاب سلزنبرج وهذا الوصف الذي يراه القاريء في هذا الفصل مقتبس من مولف فوساتي . « المؤلف »

اياصوفيا فظللتها العمد الرفيعة الباسقة ، وتوافى لحراستها جنود من الرومان والبنادقة والافارقة وكان البناء جديداً والناس يحدوهم شـــوق شديد الى اهتاف للرجل الباني . فما ان تراءى يوستانيوس وتيودورا تحت الاقواس والقنـاطر حتى انبعث مائة الف دعاء ، من مائة الف فم . فراح قيصر مستكبراً : ومضت تيودورا مزهوة بهذا البناء الذي افاض على عصرها البهاء والرواء .

ولما وطيء يوستانبوس المعبد الخالد ، وسرح الطرف في التحاسين والروائع ادرك ان حلمه قد تحقق ، فطفق يتأمل في الكنوز الثمينة التي حملها الرومان من جوانب العالم لتجميل المعبد وتزيينه ، ثم تهافت على العمد والاقواس والحنايا وهو لا يصدق ان مفاتن العالم كلها مجتمعة في هذا الصرح العجيب .

لقد حمل قواد الرومان الى اياصوفيا ثمانية اعمدة من هيكل ديانا في افسس وعشرين عموداً من بعلبك وتدمر وانتزعوا عشرين بابا من ابواب الهياكل القـائمة على شواطيء ايجه . ثم اضافوا الى الحجارة التي حملوها اثنا حجارة من الجرانيت الاسود انتزعوها من هيكل ايزيس وحرم اوزيريس . ومعابد طيبة . ولم يترددوا في تجريد معابد العالم القديم من المرمر والبرفير والذهب والفضة لتجتمع كلهـا في اياصوفيا !

تراءت هذه التحاسين ليوستانيوس فاحس رعدة مخيفة فراح قابضاً عـــلى يد البطريرك ايتيشويوس وانثنى صائحاً « لقد حقق الله حلمي » ثم التفت الى الحارث ابن جبلة الذي هزته كبرياء قيصر وقال له « قل لأقوامك في الشام والعراق ان يوستانيوس اصبح سيد العالم . فاصفر وجه الملك العربي ولمس في كلمات قيصر روح البغضاء ولكنه آثر الصمت فسكت ولما صعد يوستانيوس المنبر الى جانب البطريرك ايتيشويوس راح يتأمل في الزخارف والروائع ثم رفع عينيه الى الأفق وانبرى صائحاً « اي سليمان لقد قهرتك وازريت بكبريائك (١)

---

(١) شارل دوهل في كتابه « القسطنطينية »

لقد كان الملك الحارث بن جبلة الذي تفوق على بلزاريوس في سوح الوغى عربيا شريفاً فلم ترقه كبرياء قيصر الرومان فعاد الى بلاده وجمع اليه بنيه وعلى رأسهم المنذر فقص عليهم نبأ قيصر وحذرهم من الرومان فظل حديثه مطويا في صدر المنذر حتى استثارته في هذا الصباح من سنة ثلاث وثمانين وخمسمائه صورة يوستانيوس وصورة تيودورا فاحس في قلبه خفقة الهمة وعادت به هواجسه الى ذلك الماضي البعيد فذكر مأساة امريء القيس بن حجر وذكر مصرعه على سفائح جبل انقرة الثلجي فخاف وهو في كنيسة اياصوفيا يوستينوس الثاني كما خاف ابوه من قبل يوستانيوس وتيودورا وكان خوفه باعث هذا الشحوب الذي غشي جبينه ساعة البسه البطريرك التاج وساعة نظر الى صورتي يوستانيوس وتيودورا .

لقد كان المنذر جميلا فتاناً ولكن وجهه الجميل الفتان ظلت تنقصه الابتسامه الفرحة القريرة فبدا للناس حزيناً متجهماً ولكنهم خالوا هذا الحزن الذي يعتصر نفسه صادراً عن روعةالصلاة ولما طالوقوفه حيالالبطريرك اخذ يتاهى بالنظر الى الجماهير فبدت صورته الكدرة فجعل الناس يتهامسون ويتساءلون عن معنى هذا القلق الذي يخامره . وكانوا منذ لحظات يبررون ارتعاده ويرونهحصادهذا الورع الذي تملكه في المعبد .

ولكن حيرة الجماهير ما لبثت ان اضمحلت حينما فتح البطريرك فمه ليتكلم وفي تلك الفينة تركت العجوز التي دخلت الكنيسةمع موكب المنذر مكانها فانتبذت ناحية منعزلة في الكنيسة وراحت مستندة الى عصاها وجعلت تنظر الى المنذر وتتفرس في وجهه كأنها تريد ان تميله الى ناحيتها . فظل المنذر سادراً حائراً لا يراها ولا يرى احداً من هؤلاء الذين احتواهم هذا المعبد الغارق في صمته ذلك لأن في قلبه عاصفة هي غير هذه العاصفة التي تملك قلوب الجماهير والمصلين من يوستينوس الثاني الامبراطور الى اصغر جندي من جنود الرومان .

وليس في قدرة احد من الناس ان يتغلغل في قلب المنذر ليحسر عن معنى

خفوقه وارتعاده ولكن عيني تلك العجوز التي دخلت المعبد منذ هنيهة كانتا تنظران الى هذا الذي يجيش في ذلك القلب الراعش الراجف !

وكانت العجوز لا تنفك شاخصة الى المنذر وفي عينها المطفأتين بعض الدموع وفي قلبها عاصفةِ مثل هذه العاصفة التي تعصف بقلب المنذر وكانت تهمس في نفسها من حين الى آخر .

لقد رأيت الأب في هذا المعبد قبل عشر سنوات . بلى لقد رأيته يقف في هذه الناحية التي يقف فيها الابن اليوم ولكن يوستانيوس الكبير الذي لم يحس ارتعاشاً وهو يضع التاج على رأس الحارث الأب ، كان ارق شعوراً واصدق عاطفة من يوستينوس الذي ينظر راعشاً الى المنذر الابن .

« ليت الحارث بن جبلة بقي حياً اذن لتنكب عن مصانعة هؤلاء الذين يتقدمون الى فلذة كبده بالسم المعطر بينما تضحك وجوههم التي صوحها المكر للفريسة .

قالت العجوز هذا كله وهي تنظر الى المنذر ولما فرغ البطريرك من وضع التاج على رأس المنذر هتف قائلا :

« اقبل ايها الملك تاج اورشليم المقدسة من خادم المسيح وعبده يوستينوس الثاني امبراطور الشرق والغرب ثم خلع عليه رداء ارجوانيـــا يماثل في زخرفه ووشيه رداء الامبراطور ثم ومسحه بالزيت المقدس وتقدم قيصر من المنـذر فقلده سيفاً رومانياً على شكل صليب وقال له بصوت عاصف :

« اقبل مني ايها الأخ الحبيب لقب ملك العرب واورشليم ثم تصافح الملكان واخذت جوقة الكنيسة تنشد انشاداً ساحراً بهيجاً واعراف البخور تتأرج في كل ناحية من نواحي المعبد .

وكانت تلك العجوز المنعزلة تنظر الى هذه الحركات حزينة والهة كأنها لم تر فيها غير مظاهر كاذبة لولاء كاذب وقد جعلت تهمس في نفسها قائلة :

« ثم ماذا بعد هذا كله ؟ ان يوستينوس رجل مكر وخديعة وقد عرف كيف

يجر هذا الشاب الى هذه اللعبة الخطرة ٠ لقد قتل يوستانيوس امرأ القيس بن حجر في غير شفقة ولا رحمة ، وسيقتل يوستينوس فتى غسان في غير شفقة ولا رحمة .

وانها لكذلك اذ وقع بصرها على مقصورة المنذر فعرض لها عمرو وهند ومارية فرعشت وراحت هامسة :

« مارية ، مارية ! أهي هنا ؟.

لم تكن تعرف هنداً قبل هذا اليوم ولكنها راحت حائرة مبهوتة وطفقت تسأل عن معنى هذا الشبه القريب بين خلقة مارية وخلقة هند .

وكان معبد القديسة صوفيا غير بعيد عن ساحة ايبودروم المطلة على شاطيء مرمرا فأصغت العجوز الى هدير الامواج وجمجمت قائلة :

« ثابري على هديرك ايتها الأمواج الثائرة فهاك فريسة جديدة من فرائس الظلم »

ولما عاد المنذر الى المقصورة وجلس الى جانب عمرو بن الحارث قالت العجوز في نفسها .

« ان هذا الرداء الذي تلبسه يامولاي قد لبس مثله امرؤ القيس بن حجر ؛ ولكن الشاعر التعس ما لبث ان رأى القروح تنبثق من جسده تحت الرداء الذي اودع يوستانيوس كل خيط من خيوطه سماً ذعافا » .

وكانت العجوز تقول هذا كله بلغة عربية لا يعرفها هؤلاء الذين احتوتهم الكنيسة ثم مشت الى ناحية مقصورة المنذر فلم يكترث الناس لحركتها وخالوها امرأة عابدة جاءت تقضي فروضها في المعبد . وفي تلك الفينة حانت من عمرو بن الحارث نظرة الى ناحية العجوز فرعش ونظر اليها فنظرت اليه ولكنها لم تتكلم وظل عمرو شاخصاً اليها لا ينبس .

لقد جعل عمرو يتساءل في نفسه كيف هبطت العجوز هذا المعبد ! وكان يقرأ في جبينها الحزن والانفعال والقلق فأمضه مشهدها وخيل اليه انه يسمع نشيج صدرها

لقد شهدها قبل هذا اليوم في القسطنطينية عدة مرات ، مرة في قصر تيودوس

عند امريء القيس بن حجر ؛ ومرة في قصر الشالسيه في حجرة الامبراطورة تيودورا ، ومرة أخرى في قصر اركاديوس عند الامبراطور يوستانيوس .

لقد كان تاريخ حياة هذه العجوز مترعاً بكثير من الأسرار والغرائب ، وكان الناس يجهلون الناحية التي صدرت عنها ولا يعلمون من امرها كثيراً او قليلا ! ولكن الفتى الغساني الجميل الذي تحدث اليها في الماضي كان يعلم بعض فصول حياتها واكثر فصول هذه الحياة شجي محزن بل ان اكثر هذه الفصول متصل بحياة ذلك الشاعر التعس الذي نزع الى القسطنطينية فراراً من ملك العراق فوجد فيها بدل الحماية الموت الذي تخطفه شاباً تضحك له الحياة فيضحك لها .

وانتهت الصلاة في معبد القديسة صوفيا فخرج قيصر وزوجه من الباب الملكي ثم خرج المنذر وعمرو وهند ومارية فلحقت العجوز بعمرو ولكنها لم تتحدث اليه ولم تستوقفه . بل أخذت تنظر الى مارية وهند كأنها تريد ان تقرأ شيئاً جديداً في صورتي الفتاتين وقد كادت تحسبهما صورة واحدة لفتاة واحدة .

ودت العجوز لو انها تلحق بعمرو وتتحدث اليه . ولكن هذا البحر الزاخر من الخلق منعها الوصول الى صبابتها فوقفت عن بعد تنظر حيناً الى مارية ، وأحياناً الى هنـــد

لقد عرفت مارية في الماضي ورأتها وانصتت الى جرسها ومست يدها وتغلغلت في حياتها التي اشبهت الغابة فما فاتها كثير او قليل من ذلك القديم البعيد . ولكن هنداً ظلت في عينيها محاطة بالمعميات كلجج مرمرا العابسة المكفهرة .

من اين جاءت هذه الفتاة التي لم تعرفها ؟ وما معنى هذا الانسجام الذي عرض لها في صورتي الفتاتين . لقد كادت تهتف بعمرو وهو في الجماهير « ناشدتك الله ان تحسر لي عن هذه الحسناء التي تهزني ملامحها الى الماضي والتي ارى في عينيها بريقاً رأيته في عيني ذلك الطيف الذي لا يبرح يطرقني .

وكانت كتائب الفرسان تملأ ميدان اوغستون ، فلمحت العجوز في صفوفها

المتراصة فرسان افريقية واوربة وآسية ورأتهم كأنهم يتأهبون للاحداق بموكب قيصر ومواكب ضيوفه فشجيت لهذا المشهد وودت لو انها كانت قادرة على انتزاع هذا اليوم من حياة العالم حتى لاترى مشهد النعماء في ارض مليئة بذكريات عمرها الطافح بالبؤس والألم والاغتراب ، ثم تلفتت الى ناحية قيصر فرأته يصعد الى المحفة وقد لألأت الشمس علــى تاجه القيصري وعلى ردائه المزين باللآلىء واليواقيت ، فأمضها السنى والسناءفودت لو انها تستطيع ان تطلع على العالم بالظلام فلا يرى النـاس ارجوان قيصر ثم رأت المنذر وهو يصعد الى المحفة تحت عيون الحرس ، ورأت هنــداً ومارية وعمراً يصعدون محفة اخرى ، ثم تبـــارى بطاركة الكنيسة وبطارقة الجيش في اللحاق بهذه المواكب التي تدافعت كاللجج في طريق قصر مجلس الشيوخ .

عرض هذا المشهد كله للعجوز فصعدت زفراتها وهمست قائلة : « ما اشبه اليوم بالأمس » !

قبل عشر سنوات استقبل يوستانيوس الحـارث بن جبلة في هذا المعبد ، ثم استقبله في ميدان اوغستون ذي العمد والتماثيل !

ورفعت عينيها الى الأفق كأنها تريد ان تلقي بدفائن قلبها الى ذلك العالم البعيد عن الأرض وهمست قائلة :

« سيرى المنذر في ميدان اوغستون تمثال تلك الفريسة الجميلة فيخفق قلبه لذلك الموت الراعب الذي أطفأ نور الحياة في صدر الملك المنكود الحظ ، بلى وسيعلم المنذر ان قياصرة الرومان لا يخجلون من رفع الأنصاب والتماثيل لأعدائهم في الساحات وفي جنات القصور ، بينما ايديهم تحفر القبور لأصحاب هذه التماثيل .

ولما غاب الموكب في غمار الأشجار الباسقة واقفر المعبد من المصلين والزائرين رفعت العجوز يدها الى الأفق راعدة راعشة واستتلت قائلة :

« اي يوستينوس؛ ان ليلى الساحرة تحصي عليك انفاسك وتنهداتك وتعداياتك

ولياليك ، حتى اذا اطمأنت الى الفرص السوانح عادت تنشب اظفارها في صدرك ثم رفعت عينيها الى العمد المرمرية والى القباب المرصعة بالفسيفساء فرأت اشعة الشمس وهي تتسرب حمراء بلون العقيق من خلال النوافذ الى المعبد فتترعه بالفتون والسحر ثم رأت خيال يوستانيوس وهو يترقرق على الجدران الى جانب خيال تيودورا ففتحت صدرها للبغض واتثنت صائحة :

« لم يعد ذلك اليوم الذي يتبدل فيه وجه العالم بعيداً أيها المعبد الذي المح في قبابه ونقوشه وهياكله كبرياء الرومان اعداء بلادي وقومي .

وضربت بعصاها الأرض وانطلقت تعدو في الطريق المؤدية الى شاطىء مرمرا ماوراء ميدان اوغستون وأياصوفيا .

وكان لا ندحة لها عن اختراق غابة فينانة للوصول الى الشاطىء في هذا الصباح المصحي. فتوغلت في كثيف الأشجار لا تبصر حولها أنسيا يراقب حركاتها ويسمع همس قلبهـا و اشجار البلوط تغطي الأفق . وتواري الشمس فاستروحت الى عزلتها في الغاب وافسحت لعينيها في البكاء الذي احست حاجتها اليه لتطفىء به سعير نفسها .

ولم تكن الغابة غريبة عنها بل كان قدم اشجارها متصلا بقدم ايامها واعوامها وكانت مضطرة الى عبورها في البكور والعشي . في خروجها من مكان عزلتها وفي اوبتها اليه .

وبقيت العجوز على طوافها بالغابة حتى عرضت لها صخور الشاطىء وحتى بدت لها ضفاف آسية الغارقة في بهاء الطبيعة الضاحكة القريرة فجعلت تفكر وهي على الشاطىء الأوربي في روعة هذه اللجج التي تفصل بين عالمين اثنين تغلب قويهما على الضعيف وتمثلت في تلك اللحظات التي افنتها في التـأملات الشرق والغرب يتناظران ولا يلتقيان .

وفي تلك الاثناء حمل اليها الهواء تلك الاصوات العاصفة في ميدان اوغستون

وساحة ايبدوروم تخالطها جرجرة الموج الدافق الهادر فوقفت قليلا تنصت الى تلك الصيحات الرهيبة ثم صرخت صراخا يماثل قصف الرعود في ليالي الشتاء :

— ليتهافت التعس عليك يابيزنطية الحمراء ! ولتسقط الرياح العاصفة على قصورك ومعابدك وهيا كلك فتدكها دكا ! امرحي هانئة قريرة ياقاتلة الشعوب فان نهارك الذي تضحكين فيه للشمس والزهر سيذوب في قرارة ليل دائم الأظلام .

وراحت تضع يدها على قلبها لتمنع خفقة جديدة هزت صروحه وهي تقول :

« ان هذا القلب الذي حسبه الناس قاسياً كاللجة المتدافعة الثائرة . والذي يعيش في الأحزان الصامتة ويتغذى بما يقع عليه الطرف من مشاهد البحر المنقبضة المنكمشة فيفنى ويتضائل لتتجدد الحياة في قلوب الأحبة ، هذا القلب لم تمت فيه احلام الشباب المتوردة الزاهية ، فهو يعيش بهذه الأحلام ويجد بهاءه الماضي في غضارتها وملاحتها ! ولا يبرح قويا على خواطر الفناء التي تزدحم في نواحيه حتى يأزف ذلك اليوم الذي تنضج فيه فكرة الانتقام .

بلى ان ليلى التي شهدت عيناها آخر ليالي امريء القيس بن حجر والتي اخذت بين ذراعيها الراعشين ذلك الجسم الهامد لاتزال تحس في اطلال شيخوختها العافية خفقة الشباب الذي لايمل الالحاح في الحصول على النصر اللامع في معركة الانتقام الرهيبة.

وظلت هذه الهواجس تتنازعها حتى انحدرت الى الشاطيء فتسلقت الصخور وجلست اليها تصب احلامها المروعة في هدير الموج وقد رأت في عزلتها البعيدة عن ضجيج القسطنطينية واعيادها مايمنعها التحديق الى تلك الوجوه التي تعافها وتكرهها

وكانت شواطيء آسيه مفتوحة امامها وهي تمور بالقرى الزاهية والقصور الشامخة والغابات الوارفة الظل تلتف بها جبال مخضلة معشوشبة اعتادت العجوز ان تنظر الى روائها وجمالها في كل مساء مطمئنة الى عطور الشرق التي تحملها الى الغرب نسمات الطفل اللينة الساجية لجدد مشهد هذه الجبال التي افنت في هضباتها وذرواتها الشباب الذي مات في نفسها . هواجسها واحلامها ، فراحت تستعرض

حوادث ذلك اليوم البهي الذي وقفت فيه جيوش المنذر الثالث ملك العراق على الشواطيء وقد ارادها الملك العربي على اقتحام القسطنطينية فنعها الازرق الرجراج عن غاياتها !

لها الله من ذكريات جاءت تهز في قلبها الماضي بروائعه الخالبة وآثاره الحسان.

ولم تلبث العجوز ان اغمضت عينيها كأنها تريد ابعاد هذا الخيال الذي جاء ينزع من نفسها تلك الصور التي عرضت لها في صباح هذا اليوم ولما سكنت نفسها واحست انها في نجوة من خيال الماضي عادت تفكر في مارية ولم تنس تلك الفتاة الحسناء التي رأتها في المعبد عن كثب من عمرو بن الحارث الغساني ثم انبثق امامها فجر انار نواحي نفسها فاشرقت ذاكرتها وانمحت تلك الظلمات التي كانت تبعدها عن حياتها في قصور الغساسنة في ربوع الغوطتين فخيل اليها ان خيالا يخرج من اعماق السنوات الذاهبة ليعرض امامها حقيقة انساها اياها الألم والضنى والاغتراب والشيخوخه فهمست في نفسها قائلة :

« رباه ! امن الممكن ان تكون صورة هذه الفتاة صورة تلك الطفلة التي تركها ابوها في قصر الحارث بن جبلة ؟

وطفقت تنظر الى البحر الهاديء الوادع فرأت فوق رأسها سماء صحوا تترقرق فيها زرقة ناعمة صافية ثم نظرت الى جبال آسيه والى تلك الخطوط الملونة التي تتراءى لها في السماء وفي الدأماء والغبراء فانحسرت شفتاها عن ابتسامة عذبة فمضت قائلة :

— بلى ، بلى . ان في وجه هذه الفتاة المرحة المتوثبة خيال هند الصغيرة التي لم يشأ امرؤ القيس ان تصحبه في طوافه بالأرض الأجنبية فسأل الحارث بن جبلة ان يظللها بجناحيه .

لقد كان مقدراً لذلك الشاعر ان يودع افق وطنه ليستقبل في الاغتراب افقاً لا يستروح اليه وحينما تراءى له ذلك المنفى السحيق الذي تخيره واصطفاه اخذ ابنته بين ذراعيه وطفق يحدق اليها ناشجاً شاجناً ثم قال لها : « ان في سنواتك السبع

من السذاجة ما يبعدك عن المي ولـكن هذا الألم الذي لا تدركه طفولتك سيملأ شبابك خصباً حصاده الدموع » ..

وكانت الطفلة تضحك لأبيهـــا التعس ويدها تسقط على دموعه الدافقة ولا تدري انهـــا دموع فأخذ ذلك الوالد الواله الذي ضيع الأسرة والملك والمجد واستبق الشرف يقول لها :

حينما تبلغين ربيعك السابع عشر ستسألين عن ميراثك من أبيك وسيقول لك صحبي ان ميراث ابيك التعس شهرة عابقة ولدت في عشرين معركة . يالتعسك ! ان هذا الميراث سيجشمك في حياتك المقبلة اكثر مما تجشمه ابوك في عشرين معركة

لقد كان امرؤ القيس يقول لطفلته اللاهية المرحة كل ذلك وقد اوصى الحارث ابن جبلة ان يعلمها حياة ابيها حتى اذا اكتمل نضجها خفق صدرها لامجاد البهاليل من ملوك كندة .

بلى . بلى . لم تكذبني هواجسي فهذه الصورة التي لاحت لي في المعبد لم تكن غريبة عني . انهـــا صورة هند ابنة الحب التي ولدت في الأيام الداجية ونمت في ارتعاشات الألم .

سأنطلق اليها وسأسألها اذا كانت تذكر أرثها من أبيها . ذلك الأرث الذي ابت جبال جزيرة العرب حمله فكان من حق هند ان تضطلع به .

وطفقت العجوز تثب من صخرة إلى صخرة ناشرة يديهـــا في الفضاء . وقد استفاض صياحها في الأفق والبحر والجبال .

ثم شعرت بتعب شديد فعافت الصخور ورجعت الى ميدان اوغستون فمرت بقصر مجلس الشيوخ وعلمت من همس الجماهير ان قيصر برح القصر منذ لحظات الى السينا بعد ان احتفل بتتويج المنذر تحت قبـاب مجلس الشيوخ فكادت اكثر من مرة تلحق بالموكب لترى المنذر وتتحدث خلسة الى عمرو عن هند ومارية فما فعلت شيئاً من هذا لأن احزانها الطاغية اخذت تجذبهـــا الى ناحية اخرى من

مدينة القياصرة !

ولم يطل وقوفها في ميدان اوغستون . فنأت عنه وسارت في طريق يدفع الى الصهاريج التي بناها يوستانيوس على مثال صهاريج الاسكندرية وسورية . وكانت ارض القسطنطينية مشهورة بهذه الصهاريج المحلاة بالعمد المرمرية . فانتحت المرأة ذات الملابس السوداء ناحيتها حتى مرت بصهريج القديس موسويوس وهو بناء ذو طابقين كان الى سنة ثلاث وستين وخمسمائة عامراً بالمياه فلما دمرت العواصف جانباً من قناة فالانس التي تصب في صهاريج المدينة الكبرى جف صهريج القديس موسويوس وهجره الناس فاصبح على مثال الاطلال العافية وفي سنة احدى وسبعين وخمسمائة اصلح الامبراطور يوستينوس خلف يوستانيوس ماتخرب من قناة فالانس فعادت الصهاريج سيرتها الاولى . ولكن صهريج القديس موسويوس الذي تقوض معظم جوانبه ظل ماحلا

كان الطابق الأول من صهريج موسويوس مشتملا على خمسمائة عمود من المرمر . وفي الطابق السفلي من الصهريج مثل هذا العدد . وطول العمود اربعة امتار فلما انحدرت المرأة المتلفعة بالسواد الى اعماق الارض . وتسربت الى هذا النفق العجيب اخذت تتقصى بالنظر الجدران المنحنية والاقواس المتداعية والعمد الرفيعة ثم لم تلبث ان ازورت عنها . الى الطابق السفلي من الصهريج .

وكانت الاصوات التي سمعتها منذ حين قد خفتت فتوغلت في نواحي الصهريج فغيبتها دجناته الراعبة .

ولم تعد تبصر شيئاً من تلك المشاهد الملونة الاخاذة التي رأتها في الجبال وفي الشواطيء والخلجان والغابات فقد احتواها ظلام عميق وجدت فيه صبابتها من الحرية التي كانت لاتجدها في الاماكن الحافلة بضجيج المواكب !

وتوغلت في داخل الصهريج مطمئنة الى عزلتها حتى اشرفت على نفق منعزل فوقفت حياله قليلا وترددت في عبوره قائلة :

« استفيقي ايتها الصلال والافاعي التي يحتويها هذا الغار المظلم فلقد طال عليك الامد وانت هاجعة !

« لقد استفاق بعضي في هذا الصباح بعد تلك الاغفاءة الطويلة التي افنت كثيراً من الليالي وكثيرا من الايام والاعوام .

« استفيقي ايتها الافاعي وانتشري في كل ناحية فان الفريسة الكبيرة تحتاج الى كثير من سمومك !

وفتحت باب النفق بيد لا ترعش وقلب لا يميد فاذا عيناها تقعان على مشهد هائل ، مشهد ترتاع لبشاعته النفوس وتنقبض لصوره المعتمة الوجوه ، مشهد حافز لا ينظر اليه الرجل الصحيح العقل الا عاد ساهماً ممروراً .

لقد كان في ذلك النفق المظلم وعاء كبير من الصلصال احتشدت فيه طائفة من الأفاعي والصلال والحشرات الفتاكة وكان هذا الموكب المريع الذي حشدته العجوز في هذا المكان المنعزل يمثل الذعر والجنون والموت .

تقدمت العجوز من الوعاء وحدقت في الافاعي النائمة وضربت الوعاء بعصاها فانفجر من الصلصال رنين عاصف استفاقت تحت اجراسه تلك الافاعي فاذا فحيحها يتردد في كل ناحية من نواحي الصهريج فضحكت العجوز لهذا الرنين وراحت قائلة:

« ان فحيحك ايتها الصلال السوداء لأعذب وأطرب من نغمات العازفين في قصور الشالسيه .

يمثل تهدجك الراعب الموت وهو اقوى من الحياة . بينما هذه الأنغام التي ترسلها قصور الشالسيه لا تمثل غير الحياة الواهنة المروعة بالضنى والألم والموت !

ووقفت تتأمل في تلك الفجوات والشقوق المنحوتة في داخل الصهريج وقد امتلأت بأوعية صغيرة من الخزف كتبت عليها اسماء سموم حشدتها العجوز في داخلها ثم تناولت حقاً صغيراً من الخزف رسمت عليه علامات سوداء وانثنت قائلة:

« في هذا الحق الصغير سم اذا شربه انسان عاد مجنوناً لا يتصل بماضيه ولا

يذكر شيئاً من حاضره .

ووضعت الحق في مكانه ، ثم تناولت حقاً ثانياً فحدقت اليه قائلة :

« وفي هذا الحق سم اذا شربه انسان انقلب راعشاً قلقاً يلازمه الخوف حتى تنطفيء شعلة حياته .

والقت الحق على الأرض ثم تناولت غيره هامسة :

« وفي هذا الحق الموت البطيء الذي تلازمه الآلام البطيئة التي تنتهي بالموت .

اي انتقامي العذب ! اي طريق توصلك الى مداك المرتقب ! أطريق الجنون ! ام طريق الخوف ؟ ام طريق الموت ؟

وانحسرت شفتا العجوز عن ضحكة مخوفة فاستدلت قائلة :

« لأسلطن على قيصر الجنون والخوف معاً فيعيش في النـــاس سلبياً ممروراً يعتصره خوف دائم حصاده احتقار النـاس وعبثهم ، بلى لأسلطن على قيصر هذه الدودة الصفراء التي تقرض العقل والذاكرة والتي تميت في الأسرة الحدب والحب والرحمة ، وتجعل من المجنون يتيماً سكنه العراء وغذاؤه التراب والأعشاب وشرابه المياه الآسنة وعطره الوحل والدم .

لقد كانت تقول هذا كله عابثة لاهية ثم انقلب عبثها ولهوها الى حنين وبكاء فوارت عينيها بكفها كأنها تحاول ان تقصي خيال حبيب عرض لها وهي في فجوات الصخور عن كثب من الثعابين والصلال والأفاعي ؟

الفصل العاشر

الملك الشاعر

لقد كان حادثاً مستغرباً جداً ان تنبت في نفسها زهور الرحمة وان تتألق في صدرها اشعة الحنان والشفقة وهي في مكان لا ينبت غير الذعر والجنون والموت ثم جعلت تبكي بكاء خالطت رناته الشجية وسوسة الأمواج المتلاطمة المتدافعة في الخارج وطفقت تتحدث الى ذلك الخيال الغالي الذي تمثل لها في مغارة الموت

« ايها الخيال الذي يحمل في صدره وردة الأسى الحمراء لتطمئن روحك فان ليلى التي عاشت في قصور ملوك كندة ما تزال ساهرة ساهدة تفكر في الانتقام من قاتليك .

ومسحت دموعها ثم غادرت هذا المثوى الرهيب الذي تغشاه الظلمات وتحفه الأمواج العابسة المكفهرة راجعة الى الأمكنة التي تطفح بيضاء الشمس .

فمرت كرة اخرى بميدان اوغستون وانحدرت الى شاطيء مرمرا وجعلت تنقل نظراتها الغائمة من شاطيء اوربة الى شواطيء آسية حتى وقع بصرها على ذلك الحصن الرفيع الذي بناه المنذر الثالث ملك العراق فخفق قلبها لذكرى تلك الحرب التي انتصر فيها الفرس والعرب على جيوش بيزنطية وكانت ابراج ذلك الحصن (١) الذي يحسر عن مرمرا والبوسفور تملأ الفضاء الواسع وقد التفت بها غابات السرو العنافية الظلال .

وكان هذا الحصن يطلع عليها في كل يوم من الصباح الى الليل فتلبث على التحديق فيه من الليل الى انبثاق الفجر وهي في غضون تأملاتها لا تعاف النظر الى ابراجه وشرفاته ولا تمل ترديد تلك الاناشيد الحربية التي تهافت على انشادها الجنود المنتصرون

---

(١) لا يزال هذا الحصن باقياً الى الآن .

ومنذ ذلك الماضي البعيد التي اقلعت فيه جيوش العراق عن حصار القسطنطينية لتستريح في بلاد العرب بقي هذا الحصن المشهد الوحيد الذي يهز في صدر العجوز املح الذكريات واعذبها.

وتصرمت الايام والشهور والاعوام والعجوز تفتح عينها لهذا المشهد الذي لا يتبدل وكانت تأمل ان يجدد اولئك الغزاة الذين رفعوا اسم وطنها عالياً غارتهم على القسطنطينية بل لقد كانت تأمل ان تنصت من جديد الى اغانيهم حتى تخضل نفسها الماحلة وتورق ولكن شيئاً من هذا الحلم العذب لم يتحقق فلقد تصرم العام عليها واختلف الجديدان وهذه الشواطيء الأسيوية تنعم بسلم وجيوش العراق مطمئنة الى حياة رافهة راغدة .

تركت العجوز الشاطيء بعد ان ودعت صهريج موسوبوس وكرهـــا الدائم وعادت الى ميدان اوغستون فصافحت عيناها تلك الأشجار الباسقـــة التي قصت عليها شجونها الماضيةووقفت قليلا تنصتالى الاصوات العاصفة في ساحة ايبودروم فكانت تهز رأسها كلما طرق اذنها هتاف الجماهير وصياحهم كأنها لاترى فيالهتاف بعض مايروقها ويستهويها ثم مالبثت تلك الأصوات ان اضمحلت فغشي السكون الغابة واطرافها فمضت العجوز قائلة :

ــ ابتعدت المواكب عن ايبودروم فاصبح من حقي ان الحق بعمرو حتى أعرف مقره قبل ان يشرع يوستينوس في الجريمة · ولكني لا اعلم بعد اين تكون اللقاءة الاولى التي انصت فيها الى صوت هند . . .

وتركت الغابة خلفها . ومضت متوغلة في الاحياء والازقةوالساحات حتىشقت طريقاً الى الذروة الرابعة فصعدت اليها وقد انحت ناحية كنيسة الرسل (١) حيث مدافن قياصرة الرومان وحيث عظام يوستانيوس ترقد الى جانب عظام تيودورا

---

(١) ترك محمد الفاتح هذه الكنيسة للبطريرك اليوناني ، ثم حجزت في سنة ١٤٦٣ وبني على انقاضها المسجد المعروف بمسجد الفاتح .

في ضريح من الذهب الخالص عن كثب من ضريح قسطنطين الكبير .

وكان باب هذه الكنيسة التي تماثل في نفاستها ورواثها نفاسة اياصوفيا وبهاءها مفتوحا للزائرين والمصلين في هذا الصباح المملوء بعطر وادي ليسوس فاجتازت المرأة المتلفعة بالسواد النماء الخارجي ، وطافت بالاروقة . ثم لحقت بالمصلين في داخل الكنيسة ، ولكنها لم تنزع الى الصلاة والدعاء كما نزع المصلون الى الصلاة والدعاء ، بل اخذت تتلهى بالنظر الى المفاتن التي خلعها انتيموس النحات وايزيدور المثال على هذا المعبد الذي بناه يوستانيوس وتيودورا . ولما اقفر المعبد من الزائرين والمصلين ، ولم يبق غير حارس المدافن نهضت المرأة المتلفعة بالسواد الى الطواف بمضاجع القياصرة فاكبت عليها كأنها تفحص الكتابات المنقوشة على حواشيها فعرفت في البداية قبر انستاس قيصر فراحت تنظر اليه نظرة مفعمة بالزراية والامتعاض ثم طافت بغيره من القبور وانثنت هامسة :

« ليس في هذه المضاجع ما يستهوي فان اصحابها لم يطلعوا على العالم ملوكا بل ولدتهم امهاتهم لصوصاً ورعاة خنازير ! هذا هو قبر انستاس الذي كان خادما في القصر ! وهذا هو قبر يوستينوس الاول الذي كان يرعى الخنازير في طفولته على سفوح جبال مقدونية . وهذا هو قبر تيودوس الذي بدأ حياته لصاً في جبال خالدوكونيا ثم اختتمها ملكا . .

لقد تعاقب عليك يابزنطية ملوك كثيرون ولكن هؤلاء الملوك الكثيرين لم ينشأوا في القصور كما نشأ ملوك قومي . فمات ثلاثون منهم على العرش ومات عشرون بعد ان تجرعوا كؤوس السم مترعة دافقة . ثم لفظ الباقون ارواحهم بعد ان قطعت ايديهم وجدعت انوفهم .

واخجلتاه ؛ لقد كان خليقاً بي ان اواري نفسي في اعماق اللجج الطاغية حتى لا ابصر فجر ذلك اليوم المنحوس الذي رأيت فيه السوقة والرعاع من كل هؤلاء الذين لبسوا ارجوان القياصرة يطمعون في ميراث الصيد المغاوير من ملوك قومي

لقد ود تيودوس اللقيط وهو الطائر المهيض الجناح ان لا يلتقي مع صقر العراق في افق واحد . ولكن جناحيه لم يحملاه على التحليق في الأفق فظل ملك العراق الذي ولد في قصور الحيرة المشيدة محلقاً في السماء حتى سخر النصر لارادته !

قالت هذا وهي دائبة على طوافها بقبور القياصرة حتى وقفت حيال مضجع يوستانيوس وتيودورا الماثل تحت قبة من المرمر النقي فطفقت تنظر الى قبابه المرمرية واعمدته الماثلة فلم تذهلها النقوش الملونة عن البغض الذي يخفق في صدرها ولم تبعدها التحاسين الزاخرة في هذا المعبد عن ماضيها المؤلم . وبعد لحظات بطاء ارتد بصرها الى مضجع يوستانيوس وتيودورا فاهتزت اهتزازة عنيفة وتزاحمت صور الماضي في صدرها فاخذت تجمجم بلهجة تخالطها رنة يأس مذيب :

« اي يوستانيوس ! لقد سلخت خمسة وعشرين عاماً من حياتك وانت عبد لشهوات تلك المرأة الفاجرة التي كانت تطبع على شفتيك القبل الخائنة العابثة فلم تستطع ان تنفق ايامك في العمل الذي يشرف حياتك . وكانت الجريمة التي اختتمت بها ايامك قتل ذلك الملك المنكود الحظ الذي استذرى بكنفك فراراً من اعدائه وبينما كانت تيودورا تلك المرأة الخاملة الوضيعة التي بلغت العرش عن طريق الدسائس والحيل والجريمة تضع السم في كأس امريء القيس كانت عيناك الضحوكان تنظران الى تلك الفريسة الجميلة .

قالت العجوز ذلك وهي اشد ما تكون اهتياجاً واغتلاماً ثم اخذت تتحدث الى تيودورا بلهجة تخالطها رنات اليأس والالم .

« تيودورا ، تيودورا . ان ليلى بائعة الحب قد حسرت عن اصلك الوضيع تلك الغلائل الممزقة التي كشفت للناس عن نفسك المترعة بالخبائث فلم يلبث الشعب الذي جازت عليه اكاذيبك حيناً من الزمن ان فتح عينيه للحقيقة فقذف بك في ليلة الى الحضيض ثم لم يلبث ان تهافت عليك باللعنة فقضيت نحبك بعيدة من عطفه وحدبه ليت هذا الموت الذي اطفأ عينيك قد ترسل في عمله ؛ اذن لشهدت في صباح

هذا اليوم تلك البائعة التي قدمت اليك الحب والمرح والحياة تستعيد شبابها لتضرب القسطنطينية الضربة القاصمة .

قدمت اليك في الماضي عطور الحب والحياة فاستطالت لذاتك ونمت مفارحك واورقت ايامك ولكن بائعة الحب صدفت عن تجارتها فهي لا تبيع بعد هذا اليوم في قصور بزنطية غير سموم البغض والموت .

ولم تشأ العجوز مكثاً طويلا حيال مضاجع الموتى فأزورت عنها وخرجت من كنيسة الرسل وهي تعثر في مشيها من فرط الاعياء والتعب ولكنها لم تكن تمل الطواف بالأحياء والأزقة والضواحي . فواصلت سياحتها حتى انتهى بها مطافها الأليم الى الذروة الخامسة فانحدرت الى وادي ليسوس البديع ووقفت عن كثب من خميلة منعزلة كثر فيها الخلنج والصفصاف . ولما تراءت لها الخميلة ترددت في الدخول اليها ووضعت يدها على صدرها تمنع خفوقه . ثم مضت الى جدارها المرتفع فعاذت به حتى لا تسقط على الحضيض تحت تأثير هذه الخوالج المضنية التي تزخر في نفسها ثم انثنت تنظر الى الأفق نظرات صامتة استهل فيها الدمع

لقد كان جسمها يطفو في هذه النواحي فأما شعورها المنبجس فقد كان يحلق في فضاء لا تبصره غير عينيها الغائمتين وكانت شفتاها تهمسان فلا يسمع هذا الهمس غير قلبها المحطم .

ولم يلبث جسمها ان اهتز وتمايد فلم تعد خيالا صامتاً ودبت الى نفسها الحياة فاذا هي تتوغل في الخميلة ثم اخذت تحوم حول ازهارها وافنانها واغراسها لا لكي تستمتع بمرأى الوردة الحمراء والزنبقة البيضاء بل لكي تتحدث الى ذلك التمثال الصغير الذي اقامه المثال روزاس في هذه الجنة الحادرة لامرىء القيس بن حجر .

وراحت جاثية على سفح ذلك التمثال المصنوع من المرمر الأبيض النقي . وكان التمثال قائماً على قاعدة ضخمة من الجرانيت . وقد استقبل البحر الساجي في خليج القرن الذهبي ومضت عيناه شاخصتين ابداً الى الشواطيء الأسيوية .

رفعت العجوز عينها الى التمثال وطفقت تتحدث اليه هامسة :

— اي ملكي ! لقد تعاقبت علي عشر سنوات وانا انظر الى نصبك البارد المقرور ولكن تلك الجهود التي افنيتها في استثارة حياتك ضاعت كما تضيع الرمال التي يلطمها موج الزاخر الهزج فجاء حصادي منها هذا الضباب الدائم الذي يغشى تمثالك الشاحب الراكد .

قالت العجوز ذلك ثم انحنت على التمثال تلثمه في كثير من الورع ولما رفعت عينها وصافحت نظراتها من جديد الشواطيء الأسيوية مضت صائحة :

اي وطني البعيد ! ان احب بنيك اليك لم تستقبله تربتك الغالية المقدسة في لألاء الفجر الضاحك بل استقبلته هذه الشواطيء المنفردة المنعزلة في المساء العابس المكفهر

اسمح لي ايها الوطن البعيد الذي بهرت حوادث ابطاله وحماته نفوس الشباب ان اتأمل في جبالك وانهارك وظلالك وانا في هذه الارض الاجنبية بل اسمح لي ايها الوطن ان احمل من نسيم مروجك الزاهية عطراً يخلع على تمثال احب البنين اليك حياة دائمة مصحية لا يتحيفها غيم .

وتهافتت على الازهار تقطفها جنية غضة ، ثم مضت تنثرها على هامة التمثال متهللة باسمة .

« اي ملكي ! اطمئن فان ساعة الانتقام لا بد آزفة . امس مات امرؤ القيس وغداً يموت قيصر .

ولم تعد ليلى تلك العجوز الهائمة الباكية في الطلول والخربات المقفرة فلقد اعادها الرجاء العذب في مثل خفة الوميض الى شبابها الذاهب ونقلها من ذلك العالم الضيق الذي يطفح بؤساً وانقباضاً الى عالم واسع يمور باصداء المفارح والمباهج فأصبحت تحب الحياة وتستسيغها لا من اجل ملذات الحياة ومرحها بل من اجل الفكرة المقدسة التي حبست نفسها على تحقيقها ومن اجل هند التي جاءت تهز في صدرها ذكريات ذلك الماضي الحلو الذي تعرفت فيه الى الحياة الراغدة فرفعت

يدها الى التمثال قبل ان تبرح الخميلة واستتلت قائلة :

« اي مولاي ملك كندة ! لقد رأيت تلك الطفله الغالية التي طالما اصغيت الى جرسها الفاتن بلى لقد رأيتها حلوة غضة : ولمست بيدي ذلك الحزن المقدس الذي يقرض نفسها المتكبرة ، وسمعت خفقة فؤادها فوثقت من قيامها بنذرها الرهيب ذلك النذر الذي قبلته طفولتها البريئة لجاء شبابها يرعاه ويحميه .

اذكر يامولاي كلماتك لها وهي في عامها السابع ، لقد كانت تنظر الى فمك وهو يتحرك كأنها تريد ان تعرف تصورات نفسك مما يهمس به فمك ، وفي هذا الصباح بعد سبعة عشر عاماً رأيتها في المعبد ورأيت الشحوب الذي يغطي وجهها البهي ، فخيل الي ان ربيعها السابع عشر قد تسلم من ربيعها السابع ذلك الارث الجليل وان تصورات نفسك ليست غريبة عن تصورات نفسها .

سأنطلق يا مولاي لاحسر لها عن ذلك الماضي المترع بكثير من المآسي والاحزان فلعلها تجد في ليلى التي سهرت على ابيها طفلا ويافعاً وشاباً . حياً وميتاً بعض العزاء الذي تحتاجه نفسها .

وراحت تلثم التمثال في كثير من الورع ثم مشت الى ناحية باب الخميلة ولكن عينيها ظلتا معلقتين بذلك المرمر الشاحب كأنها لا تريد عزوفاً عنه ، وكأن مقامها بالخميلة قد ابهجها فلم تعد تفكر في تركها .

لقد تعاقبت عليها الايام فكان شتاء وكان ربيع ، ثم امضت الايام صيفاً وخريفاً وهذا الاحساس لم تخف حدته في نفسها فهو لا يبرح يهيمن على عقلها وتصوراتها وعلى حياتها كلها .

ثم غادرت الخميلة وانطلقت تعدو في الاحياء بين البيوت والقصور صارخة هاتفة :

ـــ الحب ، الحب ، الحياة ، الحياة ، من يريد الحب ، فان عندي منه الشيء الكثير ... من يريد الحياه فان لدي منها شتى الالوان .

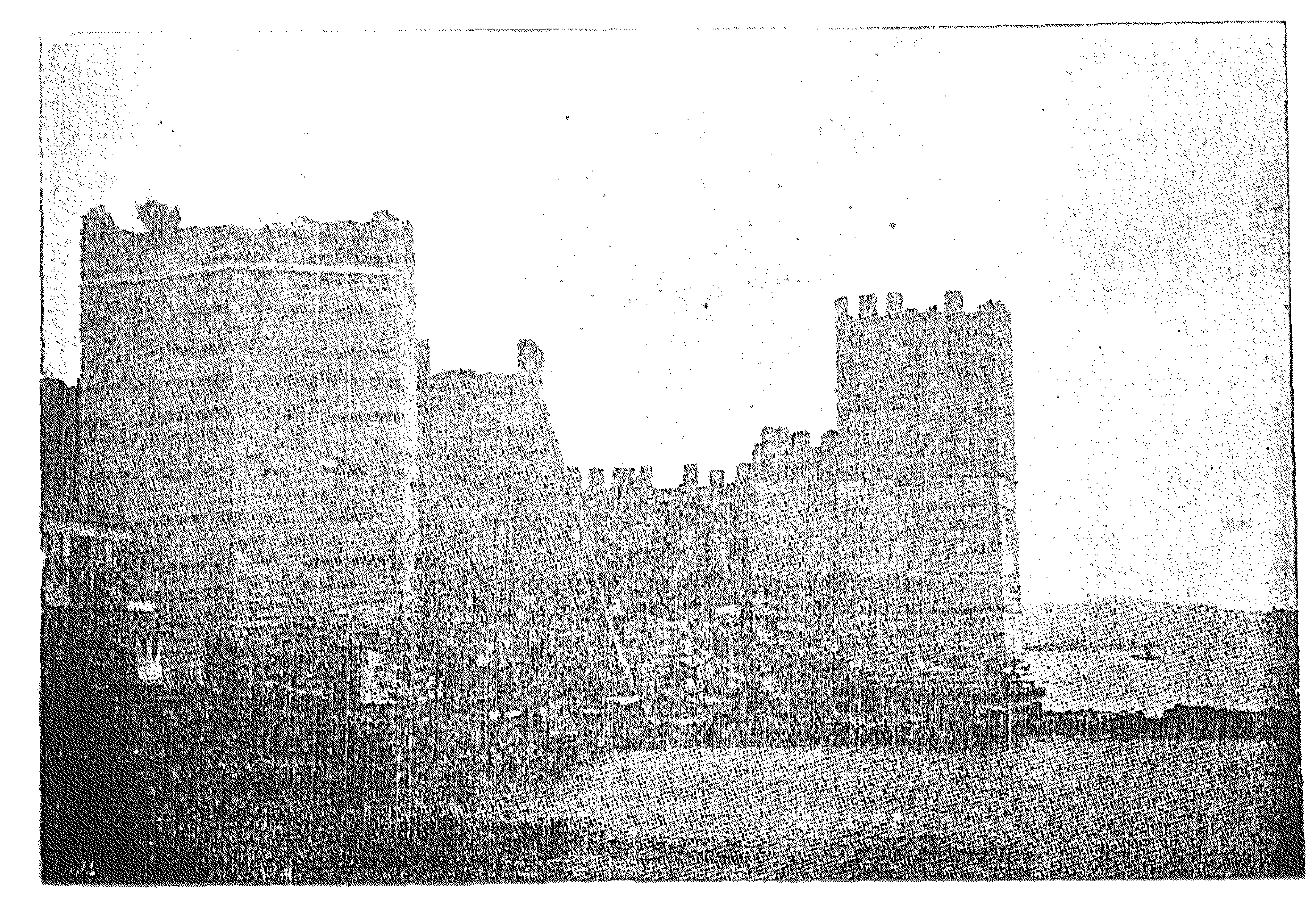
وكان هذا النداء الذي جرى على لسانها في هذا اليوم هو ما اعتادت ان تهتف

به حين طوافها بالاحياء بين مساكن الناس ودورهم ، وكان ندأوها بلغة الروم وقد برعت في هذه اللغة وحذقتها كما حذقها اهلها الذين كانوا يجهلون اصلها العربي فخالوها مصرية .

وكانت اناشيدها العذبة تصف بضاعتها وصفاً بديعاً اخاذاً فلا يتردد هؤلاء الذين يقفون في الصباح على النوافذ والشرفات لاستماع صوتها في حملها على دخول منازلهم فتعرض بضاعتها على النساء اللواتي يرغبن في الحصول على الحب وهو اغلى ماتقتنيه حسان القسطنطينية وجميلاتها ثم تعرض على الشيوخ مايحتاجون اليه من عقاقير تعيد اليهم الصحة والعافية وكانت لها شهرة طائرة في القسطنطينية ، وقد حملت هذه الشهرة الشريفات والنبيلات على اصطناعها في اغراض الحب لان الايمان به كان قوياً في القرن السادس وقد ساعد على تقويته عطف الامبراطورة تيودورا على الساحرات المصريات ومع ان الديانة كانت تطارد السحرة والساحرات فان سكان القسطنطينية ظلوا يحتمون بالسحر اكثر من احتمائهم بالديانة .

ظلت ليلى الساحرة على طوافها بالاحياء نهارها كله ففتحت امامها القصور الرفيعة الذرى كما فتحت لها البيوت الحقيرة وعرضت بضاعتها على النبلاء والسوقة فاقتنى هؤلاء عطور اليمن والهند وهي اثمن ما يعرض في قصور بزنظية ولما توارت الشمس واخذت ظلال المغيب الحمراء تطفو على الشواطيء والخلجان والجبال ارتدت الى صهريج موسويوس فمرت بالقناة العظيمة التي بناها الامبراطور فالانس في القرن الرابع واراق فيها مياه ترابية . واصغت الى جرجرة الماء ، ثم دخلت صهريج موسويوس مقر راحتها . ومثوى عزلتها . ولما نصف الليل وغمرت ظلاله الفاحمة العمد القائمة في صهريج موسويوس استقبلت ليلى الساحرة عشرة من الاشباح انحدروا الى مكان عزلتها من باب خفي فصاحت ! اي حنظلة ! ماذا فعلت طول نهارك فتقدم منها زعيم العشرة . وقال لها بصوت اجش !

لقد امضيت نهاري في السينا وشهدت الملك المنذر الى جانب قيصر ! وكان



اطلال قصر تيودوس ماوى امرىء القيس بن حجر

الملك الشامي يشهد الألعاب في ساحة ايبودروم وعلى جبينه غبرة حزن والم ! . .

فهزت ليلى رأسها واردفت قائلة :

— وتلك الفتاة التي تماثل مارية في الخلقة والعمر والشباب ! . هل تحدثت اليها وهل علمت موردها ومأتاها ؟

فشحب وجه الرجل شحوبة اليه وقال لها بلهجة مترعة بالشجن !

— لقد عرفت الفتاة ياسيدتي ، وعرفت موردها ومأتاها، وكذلك عرفت اسمها!

— اني المح على وجهك رعشة عنيفة ! فهل في حياة هذه الفتاة مايرمض ؟ . . من هي ناشدتك الله ! احسر لي عن اسمها ! . . فصاح حنظلة صيحة شديدة :

— هي هند بنت امريء القيس بن حجر .

فتأوهت العجوز وراحت تذرف دمعها ثم همست قائلة :

— لقد عرفتها منذ النظرة الأولى ! والآن قل لي ! اني وسعك ان تدلني على المكان الذي نزل فيه ضيوف قيصر ؟

اجاب حنظلة ملتاعا :

— قصر تيودوس !

فصاحت ايلي صيحة هائلة :

— قصر تيودوس ! قصر تيودوس ! ياللائم ياللرعب ثم اغمي عليها فاحاط بها حنظلة ورجاله ؟

الفصل الحادي عشر

صـــور محزنة

في عشية اليوم التالي انحت ليلى الساحرة ناحية قصر تيودوس الرفيع الذرى فمرت بالاسوار التي انشأها الرومان على مسافة ثلاثة كيلو مترات لحماية المدينة العظمى من غارات الفرس وشهدت جنود افريقية البربر يدخلون اليها، ثم واصلت سيرها حتى اطلت على خليج القرن الذهبي فوقفت تنظر تارة الى البحر الساكن الوادع الغارق في بهاء المساء واحيانا الى قصر تيودوس المرتفع فوق هضبة شامخة تشرف على الخليج . وكان القصر محاطاً بغابة صغيرة من شجر البلوط والسرو . فاقتربت العجوز من الغابة التي عرفت في الماضي شيئاً كثيراً من احزان امريء القيس بن حجر ومفارحه وكانت تحس تعباً في هذا الطواف المضني الذي بدأته قبل طلوع الشمس فجلست الى ربوة منفردة تشرف على الغابة ومدخلها وقد تبرمت بمنظر البحر والجبال . وهو المنظر الذي انحسر امامها خلال نهارها . بل لقد كان يروقها ان ترسل عينها الى نواحي هذه الغابة الفينانة التي حملت اليها في هذا المساء عطور الصيف العابقة فطفقت تنظر الى البلوط والى السرو ثم راحت تجوس خلال الغابة فوجدت كل شيء كآخر عهدها به منذ سبعة عشر عاماً . فأشجار الخوخ والتفاح والأجاص التي كانت في الماضي مثاراً لعواطفها ونزواتهـا قد ازهرت واورقت وحسرت عن ثمارها : فجعلت تطوف حولها ناعمة هادئة كما كانت تطوف حولها في الماضي ناعمة هادئة . واخذت ترقب بعينين مضيئتين جميع تلك الاماكن التي كان يغشاهـا امرؤ القيس في الصباح وفي المساء . فرأت ذلك المقعد الحجري الذي اعتاد الشاعر ان يفيء اليه مع حبيبته سيلفيا تلك الفتاة الناعمة الساحرة التي اطفأ الموت في نفسها المرحة المتوثبة شعلة الحياة وهي بعد في ربيعها الثامن عشر !

ومضت الي ذلك الغابر السعيد الذي اجتمع فيه الى الغابة العطر والشعر والحب والشباب نذكرت عشية من عشيات الخريف وقف فيها امرؤ القيس تحت ذوائب الشجر ينتظر معاد حبيبته سيلفيا ، وكانت ليلى الساحرة قد غامرت بنفسها في الذهاب الى قصر الشالسيه على شاطيء مرمرا لتأتي اليه بتلك الحبيبة الغالية التي نشأت في حجر ابيها بعيدة عن الحب وشجونه فلما رأت ابنة قيصر امرأ القيس وصافحت عيناها الضحوكان جبينه المتورد فتحت صدرها لأول لذات الحب ثم ذكرت ليلى الساحرة تلك العشية التي حملت فيها الى الشاعر حبيبته سيلفيا وذكرت ايضاً كيف تلقت هذه الغابة ذلك الهمس البريء الذي تصاعد من قلبي ذينك الحبيبين اللذين جمعتهما الحياة كما جمعهما الموت فاشجاها الذكر فغامت عيناها بوكف اليم .

ولما نظرت الى الأفق ووقعت عيناها على الكواكب تضيء وتلمع فوق هذه العزلات الكئيبة التي لجأ الحب اليها في آخر لياليه احست في نفسها شجناً شديداً فذكرت كيف طفر الحبيبان من الغابة الى شاطيء الخليج حيث اقلهما زورق طاف بهما زرقة العباب بعيدين عن الرقباء وليلى يومئذ تحرس الشاطيء وعيناها لانفارقان الزورق الذي نقل الحبيبين في تلك الليلة المصحية الى شعاب الخليج بين الصخور التي يلطمها الموج ثم يتراجع عنها .

اثارت هذه الأحلام التى عرضت لليلى في هذا الغاب المورق كثيراً من المخاوف فتأوهت وراحت هامسة !

اواه ، لقد ولد الحب والشعر والعطر في تلك العشية مولودة تعسة عاشت يتيمة لا تعرف اباها وامها ، وقد رأت هذه الطفلة قصر الشالسيه وهي تجهل مأتاها فلما بلغت العاشرة من عمرها اهداها قيصر الى الحارث بن جبلة ملك غسان .

لقد رأت ليلى في كنيسة ايا صوفيا هذه الفتاة اليتيمة بين عمرو بن الحارث وهند بنت امريء القيس فعجبت كثيراً لذلك الشبه الذي رأته في خلقة هند وخلقة مارية ولكن عجبها ما لبث ان اضمحل حينما رأت في خيال هند الفتاة خيال هند الطفلة

فعلمت ان هنداً ومارية اختان تعيشان تحت سقف واحد ولكن كل واحدة منهما ظلت تجهل ما يخصها من ماضي ذلك الوالد الشريف الذي اغمض عينيه الى الأبد بعد ان فتحهما على صورتيهما ·

ولم تستطع ليلى ان تخنق في صدرها تيارات الماضي الجائشة وهي في قلب الغابة التي نشأت فيها تلك التيارات وامام قصر تيودوس الذي ولدت فيه الطفلة اليتيمة ، فرفعت يدها الى عينيها كأنما هي تنزع الى ابعاد هذه الأحلام التي تطفو على نفسها وكادت اكثر من مرة تترك هذه المغاني الجميلة ولكن ذلك الواجب المقدس الذي اعتزمت المضي فيه الى النهاية ثناها عن عملها فظلت عاكفة على الطواف حتى بلغت القصر ولكنها احجمت عن دخوله واكتفت بالتحديق الى شرفاته وهي مختبئة في كثيف الاشجار بل لقد فضلت التعسة ان تمضي ليلها في هذه الجنة الزاهية فعاذت بيواسق السرو وراحت نائمة على الارض العاشبه الكاسية طول ليلها وفي صباح اليوم التالي عادت الى الطواف بانحاء القصر فوقع نظرها على نافذة مفتوحة في القصر من ناحية البحر فاذا هي تبصر فتاتين اثنتين تتأملان في الخضرة وفي الأفق فعرفت في الفتاتين هنداً ومارية فارتجفت ونظرت اليهما ملياً ثم اصغت فاذا الصبيتان تتساران وتلهوان وقد ذعرت اطيار الغابة لضحكهما فجعلت ليلى تحدق اليهما ذاهبة اللب من فرط الجزع وكادت اكثر من مرة تهم برجعي ولكن صوت هند العذب استجاش نفسها فلبثت مختبئة في الظل وفي تلك الاثناء قالت مارية لهند :

— كيف رأيت القسطنطينية ؟ انها اجمل من دمشق أليس كذلك ؟

— اغبطك على حياتك في هذه المدينة التي لا يراها الانسان مرة في العمر الا عاد مشغوفاً بجبالها وبحرها ولكني افضل دمشق عليها واحب الحياة في سفوح اوديتها وبين جناتها · · ·

— أالى هذا الحد تبالغين في هيامك بدمشق ؟

— ليس في حديثي عن دمشق التي احبها بعض هذا الغلو الذي تتحدثين عنه ،

ولكن للانسان ان يحب البلد الذي تفتح حلمه في جنـاته وفي جباله . فلقد تفتح حلمي في دمشق واورقت طفولتي في ربوع الغوطة ، فاذا كلفت بالشام مثل هـذا الكلف الذي تعدينه غلوا فما ذلك الا لانني احفظ لمهدي الاول حقوقه المقدسة وانت تعلمين ان الناس لايعدلون عن ولعهم بالارض الاولى التي ازهرت فيهـا ايامهم الى الولع بالارض الاجنبية .

— اذن فانت تتبرمين بعيشك الجديد ؟

— كلا ولكن صورة وطني الاول لاتزال تطفو على نواحي نفسي فليس من السهل ان انتزع صورة بديعة تمثل المهد واللحد . مهدي الذي ولدت فيه ، ولحد امي التي قتلها حزنها على ابي التعس ...

— ولكن لحد ابيك في بلاد الروم ؟

— نعم نعم ان ابي مات في هذه البلاد بينما كان يتهيأ للرجوع الى وطنه الاول

— اكانت الشام وطن ابيك ؟

— لقد ولد ابي في اليمن بين الغطاريف المساعير من ملوك كندة ولكنه مالبث ان تخير الشام وطناً بعد هجرته اليها اما انا فلا اجد فرقابين اليمن والشام فان بلاد العرب التي احبها ابي واحدة مهما باعدت الصحراء الواسعة بين الشام والعراق واليمن ونجد والحجاز ...

— اذن فانت تحبين جميع هذه الآفاق ؟

— نعم نعم اني احب بلاد العرب واعبدها لأن قومي يعيشون تحت آفاقهـا وينعمون بجناتها وجبالها وانهارها .. ان هذه البلاد المتنوعة الاسماء هي الوطن الواحد لي انا الفتاة الضعيفة . ولجميع الذين يرتادون مكة للطواف حول الكعبة من ملوك وسـوقة ..

قالت هند ذلك وراحت تمسح دمعها الذريف فرقت لها مارية واستتلت قائلة :

— لك ان تحبي بلاد ابيك ولك ان تبكي كلما هزك الحنين الى تلك

المغاني القديمة التي حفلت بذكريات الطفولة . . .

ولم تستطع مارية ان تمضي في حديثها الى النهاية فسكتت واخذ قلبها يخفق تحت وقر عواصف جديدة هبت على نواحيه ، وكانت يدها مستندة الى كتف هند فسحبتها لتغطي بها وجهها الذي يعتصره الألم . ففطنت هند ليأسها وغمها فقالت لها

— يخيل الي انك لست مطمئنة الى عيشك هنا في هذه المدينة وانك تنزعين الى الزهد في هذه الشواطيء وفي هذه الجبال التي كانت تثير احلامك وانت في دمشق!

فتأوهت مارية ولم تنبس فكررت هند حديثها قائلة :

— لقد قلت لي انك ولدت في القسطنطينية ؟ اذن فلماذا هذه المخاوف التي المحها في عينيك ؟

فتأوهت مارية كرة اخرى فقالت لها هند :

— ان زفراتك المشبوبة قد اثارت عواطفي وحركت في قلبي همومه واوجاعه فهل تخطف الموت اولئك الذين تحبينهم حباً جما ؟

فنظرت مارية الى هند نظرات استطال فيها الألم وقالت لها :

— ناشدتك الله ان تدعي الماضي نائماً في اعماق نفسي فاني لا احب ان يستفيق من هجعته على حاضري الأليم المرهوب !

— اذن فانت تحملين في قرارة نفسك غابراً اليماً لاتودين اثارته ؟

— دعي هذا الماضي الممض مستريحاً في مهد الاوجاع والالآم . . .

— مارية !

— هند !

— لقد غمست احزاني في احزانك وكشفت لك عن ماضي وعرضت لك صوره الداجية ولكنك لم تذكري لي شيئاً عن ماضيك فهل صرت تشكين في حبي لك ؟ لماذا لايزال صدرك مغاقاً ؟ بل لماذا يسكت فمك ولا يهمس غير قلبك ؟ قولي لي اين هم اولئك الذين تحبينهم ؟ بلى اين هو ابوك ؟ واين هي امك ؟

فرفعت مارية عينيها الى السماء واستتلت قائلة :

ــ ابي ! امي ! اتسألين اين هما ؟ ان ابي قد مات وانا طفلة في المهد ؟

ــ وامك ؟

ــ ماتت بعد موت ابي بقليل . . .

ــ اذن فانت تعيشين في هذا العالم يتيمة ؟ . .

ــ نعم نعم ولكن في حياتي مـا هو اوجع من اليتم فلقد عشت الى الان وانا اجهل اسم ابي واسم امي فجاءت حياتي جافة قاسية خلية من عناصر الرحمة والحب والشفقة وهي العناصر الكريمة التي لانجدها في غير الآباء والامهات ! . . هــذا هو ماضي التعس الذي واريته قلبي لينام ويستريح فابيت الا ان يفتح عينيه ! . .

ــ يالك من بائسة !

ــ لقد كنت اسأل الناس عن ابي ! ومن هو ؟ فكانوا لا ينبسون . وكنت اسألهم عن امي ، ومن هي ؟ فكان نصيبي منهم الصمت العميق . . .

ــ الا تذكرين بعض صور طفولتك ؟

ــ في طفولتي الساذجة البريئة صور لا تروق ، كنت في ربيعي السابع حينما فتحت عيني على صورة واحدة من هذه الصور . . في ذات عشية من عشيــات الشتاء الباردة حملتني عجوز بالية الى يوستانيوس قيصر في قصر الشالسيه على شاطيء مرمرا فدخلت بي القصر من باب سري على الشاطيء . ثم مشت الى حجرة صغيرة حالية بالنفائس ينيرها مصباح ضئيل فوضعتني على مقعد وراحت تنظر الى باب صغير في الحجرة وبعد قليل فتح الباب فاذا قيصر على عتبته فلما رأى العجوز قال لها

ــ أهذه هي الطفلة التي قصصت امرها علي ؟

فلم تنبس العجوز ولكنها اومأت بيدها الي وارادتني على ان اتقدم من قيصر فتقدمت وانامستحيية فراح قيصر يقبلني ، وكانت الرياح العاتية التي يبعثها البحر الأسود تعصف بشواطيء البوسفور وشواطيء مرمرا معا فتملكني الخوف الشديد وحاولت

الأفلات من حجر قيصر فمنعني ومضى يتحدث الي بلهجة محببة انيسة ثم قام الى النافذة ففتحها فاذا امامنا ربوات آسيه تغطيها السحب الكدراء فأومأ قيصر بيده الى منزل بعيد لاح له بين تلك الربوات الغائمة وقال للعجوز « انظري الى هذا البيت الذي تغطيه اشجار السرو والبلوط .. لقد اردتك على تربية هذه الطفلة في جناته الوارفة ، ثم قبلني وهمس في اذن العجوز همساً لم افهم منه شيئاً ؟

وهنا سكتت ماريه تخفق قلب العجوز المتوارية وراء اشجار الغابة ومضت تتحدث الى نفسها ؟

« بلى لقد همس قيصر في اذني فلم تفقه طفولتك اللاهية ذلك الهمس ، لقد قال لي ان قلبه قد اهتز حينما لثمت شفتاه شفتيك ، وان خيالك قد اذكره ابنته سيلفيا فما عاد يحس غير الرحمة !

وسكتت العجوز حينما عادت مارية الى حديثها وهي على الشرفة وهند اشد ما تكون اصغاء الى كلمها . قالت مارية :

هذه هي الصورة الأولى التي تعرفت طفولتي اليها في ذلك الشتاء العبوس المكفهر ، فدونك الآن صورة اخرى من صور الطفولة :

بعد ثلاث سنوات جاءت بي العجوز الى قصر دافنه الذي اعتاد قيصر ان يعوذ بكنفه في فصل الصيف القائظ ، وكان القصر غير بعيد من المنزل الذي قضيت فيه ايامي منذ اللقاءة الاولى فلما رأني قيصر جعل يطيل النظر في ملامحي . كأنه قد رأى في سنواتي العشر شيئاً جديداً لم يره في سنواتي السبع ، ثم لاح لعيني واجماً مضطرباً كأنه يفكر في شيء عرض له في تلك اللحظة فالتفت الى العجوز قائلا :

— انها تشبه امها كثيراً ولكن في عينيها تلك البروق التي رأيتها في عيني ابيها .

ووقفت مارية في حديثها عند هذا الحد وقد صوح نفسها الأنفعال والشجن فهمست العجوز وهي في عزلتها قائلة :

« لم يكذب يوستانيوس فان في صورتك الجذابة ملاحة امك التى احبت اباك

فوق كل حب ، وفي عينيك ذلك الفتون الذي رأيته في عيني ابيك ... لم يكن في وسع قيصر ان يبقيك في القصر حتى لا ينتشر عطر ذلك الحب في الآفاق ففضل ان تعيشي عن كثب مني في منزل منفرد على شواطيء البحر .

ولما استأنفت مارية حديثها سألتها هند قائلة :

— اذن فقد كان قيصر يعرف اباك وامك ؟

— لاح لي في حديثه انه يعرف ماضي أبي وان حياة أمي ما كانت لغزاً يتراءى لعينيه ، لقد صحت به وانا لا أعي ما أقول .

— أتعرف أبي ؟ أتعرف أمي ؟

فلم يجب فقلت له « اذا كنت تعرف أبوي فلماذا لا تردني اليهما ؟

فسكت مطرقاً فكررت السؤال « من أنا ؟ من أين أتيت ؟ وكيف وجدت في هذا العالم ؟ فقال قيصر :

أتسألين كيف وجدت في هذا العالم ؟ ثم ضحك وضحك كثيراً حتى بدا لي في ضحكه انه يعبث بحزني ويسخر من المي ؛ وبعد حين وضع يده على كتفي وقال لي في غير جفاء :

— « انت كالأقحوانة عثر الرعاة عليها في شوامخ الجبال ولكنهم لم يعرفوا زارعها .

وفي المساء عادت بي العجوز الى المنزل الغارق في بهاء الأزهار .

ومرت ثلاثة شهور على اللقاءة الثانية ، فاذا يوستانيوس يستقبل في قصر دافنه الصيفي الفتى عمراً وكان قد استقبل في هذا القصر قبل اعوام عمه الحارث بن جبلة ملك غسان ، فاحتفى به وقدم اليه الهدايا الرفيعة ، ثم دعا اليه العجوز فمضت بي هذه اليه وهو في قصر دافنه وكان عمرو في حجرة قيصر ينتظر وفودنا عليه فلما رآني قيصر التفت الى عمرو قائلا :

« لقد وضعت هذه الفتاة تحت حماية غسان . . . .

ولم استطع ان اتكلم لأن الحزن عقل لساني فبقيت انظر الى عمرو تارة والى بوستانيوس تارة أخرى . وكاد الخوف الشديد يعتصرني ولكن سحنة عمرو الجميلة لطفت شجوني فاطمأنت نفسي اليه ولم اتبرم باللحاق به ، وبعد ايام ودعت هذه الشواطيء التي حفلت بضحكي ولعبي واتيت الحارث بن جبلة في الشام فنظر الي بعينين نديتين وقال لي « انت في نساء غسان منذ هذا اليوم » ثم التفت الى عمرو الذي كان ينظر الي والهاً وقال له « خذها الى قصرك واسهر عليها فانها بقية ذكرى قديمة تستثير في نفسي خوالجها»وراح يهمس في اذنيه كلمات غامضة لم افهم منها شيئا.

كانت نسمات المساء البـــاردة الممزوجة بهواء البحر تتراكض على جبينها الشاحب وهي تقص بعض الحديث عن طفولتها فأثرت الرطوبة في ذلك الصدر الذي تجيش فيه الآلام فأخذت تسعل سعالا شديداً حتى كادت تقع من فرط الأعياء والمرض العنيف الذي ظل يغالبها منذ كانت في دمشق فقالت لها هند :

— ألا نبتعد عن الشرفة فان برد المساء يستثير الداء في صدرك :

— وعمرو ؟

— انه لم يعد من قصر الشالسيه حتى الآن .

— هند ! ليس في حياتي غير هذه الصور الربداء ! فلقد نشأت يتيمة لا اعرف في العالم غير سحنة تلك العجوز وغير هذه الشواطيء . ولما بلغت السابعة عشرة حيل بيني وبين البيت الجميل الذي قضيت فيه بعض سنوات الحياة وارغمت على قبول النفي في بلد لولا مآثر اصحابه لحسبته جحيما . انني مريضة . ومرضي قديم يكاد يقتلني وليس ينقذني من برحائه واوجاعه غير الابتراد بذلك الظل الحبيب الذي كان يرافقني في المساء وفي الصباح .

— اذن فانت تحنين الرجوع الى ذلك المغنى الذي ارادك قيصر على الاخلاد اليه؟

— نعم . فان مرضي الشديد لا يبرح يقرض صدري ويخيل الي ان شفائي منه لا يحتاج الى اكثر من الاستمتاع بمشاهد جديدة في ظل عيش جديد .

لست في حاجة الى بلاد بعيدة تتجدد مشاهدها ومناظرها امام عيني ولكني في حاجة الى تلك الشواطيء الأسيوية التي اجد في زرقة سمائها وزرقة مائها وحمرة مغيبها تلك العافية الذاهبة : وذلك الشاب الماضي . واشتد بها السعال فقالت لها هند :

ـ الا نترك الشرفة فان هواء المساء يضني صحتك الغالية ؟ .

ـ نعم ، نعم لنبتعد عن الشرفة فليس في وقوفي عليها ما يروق . . وكادت تبتعد ولكن صوتاً صادراً من رواق القصر طرق اذنيها فصيرها مبهوتة حائرة فالتفتت فاذا عمرو يسرع اليها باسطاً ذراعيه فابتسمت وتهللت اساريرها وقالت له:

ـ لقد ابطأت في الرجوع الينا .

ـ اكنت تنتظرين اوبتي اليك وانت على الشرفة ؟

ـ نعم . وكنت شديدة القلق عليك .

فضحك عمرو واستلي قائلا :

ـ كنت افضل ان تحتوينا مائدة واحدة ولكن قيصر ابى علي هذه اللذة فأرادني على البقاء في الشالسيه حتى تناولت الطعام على مائدته مع الملك المنذر . ليس شك في انك تحبين الطواف بالشواطيء عند مغيب الشمس . بل ليس شك في ان مشهد المساء الضحيان يوقظ في نفسك احلاماً تحبينها وهواجس تستلذينها فان كان الأمر كذلك فاطمئني فان ليلتنا المقبلة ستكون بداية الطواف حول مغاني الحب والمراح وستفتحين عينيك على تلك المشاهد اللذة التي تفنى فيها الكآبة وتتضاءل . . اي مارية كيف انت ؟ اني اراك آسية في هذه العيشة فهل ذلك الألم البعيد الذي كنت تحسينه في دمشق لا يزال يرتفع الى صدرك ؟

ـ اخشى هذه العزلة الجافة التى اردتني عليها في قصر تيودوس الذي لا احب مشهده الرهيب .

ـ ولماذا تخافين قصر تيودوس وهذه الطبيعة التى تحبينها تعيش في ردهائه

ومقاصيره وفي غابته المورقة .

— ولكن الطبيعة في قصر تيودوس تعيش في افق ضيق ترتاده العين في لحظات وتمله ؛ ثم هي تحس توقاً الى الفضاء الواسع الطليق الذي لا تنتهي فيه المشاهد الخالبة : قل لي الا نذهب الى ذلك المعتكف المنعزل الذي سلخت فيه بعض سنواتي الذاهبة . فاني احب شواطيء الشرق ؛ احبها كثيراً لأن مشاهدها الفاتنة لا تبعث في النفس مثل هذا السأم الذي تبعثه المشاهد الراكدة في الخليج ، فهز عمرو رأسه وقال لها باسما :

— ليست الطبيعة الفاتنة هي التى تهزك الى الشرق ولكن الماضي لايزال حياً في صدرك فاذا كنت تريدين الطواف بذلك المغنى المنعزل لتطلعي على رماد الماضي ، فذلك لأن في شواطيء الشرق معتكف حب قديم تلتف به خميلة ضاحكة مستبشرة وفي ناحية من هذا المعتكف القديم مهد صغير من الخشب المزخرف لايبرح اشد اثارة لعواطفك من الطبيعة ومفاتنها لأنه ظل ثلاث سنوات يستمع الى جرسك العذب وانت طفلة .

— دعني اذن احج هذا البيت . . دعني ارتاد مغانيه المستحبة لأهز ذلك الماضى النائم في مهد طفولتي .

فقال عمرو : سيكون لك ما تريدين : ثم التفت الى هند وسألها قائلا :

— وانت الا تشتركين معنا في هذا الحج المقدس ؟

فقطعت مارية عليه حديثه واستتلت قائلة :

— بلى انها ستذهب معنا . . .

ثم سكتت وحنت رأسها كأنها تفكر لجاء الألم والذبول واليأس صورة معتمة لتفكيرها ولم تلبث وهي فريسة هذه الهواجس الخفية ان اهتزت اهتزازاً عنيفاً واخذت تسعل سعالا مذيباً ارتفع له صدرها وهبط ثم سقطت على الحضيض فتهافت عمرو وهند عليها ملتاعين والهين ثم حملاها الى حجرة تطل على الخليج ففتح عمرو النوافذ التماسا للهواء بينما جثت هند حول سرير مارية تهديء روعها

وتلطف شجونهـــا .

ولما عاد عمرو الى ماريه اكب عليها يتفحصها وهو لا يدري هذا الذي جعلها شاجنة مبتئسة ، وكان عمرو يعرف ماضيها كله ولا يجهل شيئاً من مآسيه وصروفه المروعة الشجية ، ولكنه كان يتجافى ان يتحدث اليهـــا عن الماضي حتى لا تنطفيء في نفسها شعلة الحياة وحتى لاترى في طفولتها تلك الصور الجاهمة التي تفتح تحت قدميها هوة الفناء !

ولما اكب عليها وضع اذنه على صدرهـــا فاذا هو يحس خفوقه ونشيجه فرفع عينيه الى وجهها فاذا ذلك الوجه الذي كان يضحك للحياة منذ هنيهة قد عاد مسفوعا مقروراً كامداً !

وكانت مارية في خلال هذه الأغماءة تردد هامسة :

— ردوني الى امي . .ردوني الى ابي . .

فانتفض عمرو وراح راعشـاً ، وكان يخيل اليه ان مارية لم تعد تذكر شيئاً من طفولتها ، بل لقد كان يخالها لاتزال تلك الطفله الساذجة التي لا تعي مشاهد الحياة والوانها وفاته ان الحزن في الطفل ينهض ويترعرع كلما نهض الطفل وترعرع وفاته ايضاً ان ذلك الحزن الذي لا يدرك ولا يعقل وهو ناشيء وليد مقبل على نماء يدرك معه روعة الجراح المنبثقة من صدره ، لقد كان الحزن طفلا يوم كانت مارية طفلة ، ولكن الحزن لم يعد طفلا يوم اصبحت مارية امرأة تحس وتشعر !

ادرك عمرو هذا كله وادرك ايضاً ان مارية مشرفة على موت اذا لم تتصـــل بذلك الماضي البعيد ولكن هذا الفتى الرائع الرجولة كان يخشى ان يقتل الحزن هذه الفتاة التي احبها اذا ماحسر لها عن ذلك الماضي المترع بكثير من الصور البائسة فاعتزم السكوت الى النهاية تاركا للحوادث المباغتة ان تتكفل وحدها باذاعة الخفي الدفين

ولما اراق الماء على جبين الصبية الحسناء فتحت عينيها فقرأ فيهما الحزن والألم والموت وكانت دهشته عظيمة حينما سألته مارية قائلة :

ـــ الا نذهب قريباً الى زيارة الساحرة ليلى ؟

وكان ذكر اسم الساحرة امام هند كافياً لأثارة عواطف هند الفتاة التي تركت بلاد العرب لتبحث في بلاد الروم عن دروع ابيها فنظرت الى عمرو وقالت له :

ـــ لقد وعدتني بالمضي الى زيارة الساحرة ؟

فغمرت عمراً موجة من رثاء واخذه حنان ونزوع الى موآساة هاتين الفتاتين اللتين تشابهت احزانهما كما تشابهت صورتاهما فقال :

ـــ بلى سنذهب الى الساحرة ليلى ·

فصاحت الفتاتان :

ـــ متى ؟

ـــ بعد اسبوع . . .

وانثنى يطيل النظر الى الفتاتين فاذاهما تطفران فرحا فجاس بينهما وهو يضحك وقد نسي المشهد المؤلم الذي عرض له حين دخوله القصر وطفق يتحدث اليهما عن السياحة التي سيقوم بهـا حول الشواطيء في الليالي المقبلة وكانت هند تسأله من حين الى آخر :

ـــ متى يرد قيصر الي دروع ابي ؟

فكان يقول لهـا :

ـــ دعي اليأس جانباً وابتسمي للرجاء العذب فهو وحده كفيل بانجاح مساعيك .

* * *

في تلك الأثناء كانت ليلى الساحرة لاتزال قابعة في مخبئها الذي آوت اليه في غابة القصر وقد سمعت اكثر احاديث ماريه وهند ولم يفتها كثير او قليل من تلك الضجة التي اثارها وصول عمرو الى القصر . وكان قد دخل الغابة راكباً على جواده فرأته العجوز عن بعد فبقيت في مكانها تحجبها غلائل المساء الضافية · وتغطيهـا الأدواح المرسلة حتى اطمأنت الى ابتعاده ·

ولما ساد السكون الغابة ، وضاعت تلك الأصوات الهامسة في قصر تيودوس هزت العجوز عصاها ورفعتها الى ناحية ابراج القصر ورسمت في الهواء علامات خفية ثم راحت تضرب الأرض بعصاها وانطلقت تعدو في الطريق المفضي الى مكان عزلتها في صهريج موسيوس العبوس المكفهر وكانت تهمس في نفسها :

« الى شواطيء آسيه ! الى شواطيء آسية ايتها العجوز التي لم يتعبها التفكير في انتقامها العذب ! »

ومضت تتوغل في الأزقة والأحياء ، في الأوديه الظليلة ، وفي الذروات الكاسية العاشبة حتى لاحت لها عن بعد جميع الميادين والسوح فاستعرضت وهي على ذروة رفيعة هذه التماثيل القائمة في الميادين . من تمثال قسطنطين ، الى تمثال هيلانة ، ومن تمثال انستاس الى تمثال تيودوس الكبير ، ومن تمثال يوستانيوس الى تمثال تيودورا ثم عافت مكانها على الذروة وجاءت تستريح الى شاطيء يحسر عن المدينة فاستعرضت السماء والداماء وشهدت القصور المتناثرة هنا وهناك على شواطيء مرمرا والبوسفور من قصر الشالسيه ، الى قصر بوكولون ، الى قصر دافنه الصغير الى القصر المقدس ! ثم راحت تنظر الى البيع والمحاريب من كنيسة اياصوفيا الى كنيسة الرسل ، الى كنيسة القديس ديمتريوس ، الى كنيسة القديس اتيان ، الى دير شورا الرفيع المنار الى دير مياندر ! ثم انحت ناحيـة ابواب القسطنطينية فنقلت نظراتها من باب اندروني الى باب بولاندريا . ومن باب سان رومين ، الى باب اركاديوس ، ثم الى باب تيودوس ولما اجتمعت المدينة كلها لديها وهي على الشاطيء ، هزت عصاها ورفعتها الى جميع هذه الآفاق كأنها ترسم في مداها الواسع تلك الخطوط الوهمية التى رسمتها في فضاء غابة قيصر تيودوس وراحت تصرخ :

عليك لعنة الله يامدينة قسطنطين !

وكررت هذا النداء المحموم حتى غص الفضاء بالصدى ثم ارتدت ببصرها الى الميادين والقصور والكنائس والمحاريب والأبواب واردفت :

اي بزنطية ذات القبب البواذخ والعمد الشوامخ امرحي ماشاء لك زهوك المرح واختالي ما اراد لك كبرك الاختيال فان هذه العطور التى ترسلها جناتك، وتبعثها كرماتك، لهي اقل روعة واخفض شأنا من كل سمومي !

ان سماءك التى تتراءى لي في هذه الاسداف كرمس قديم قد حسرت لي عن حقيقة كبريائك ومزقت امامي الغلائل التي تحجب نفسك فتمثلتك عارية ورحت في هذا المساء اقلبك في يدي كجثة بالية ما اجدرني بالقائها الى اعماق اللجج !

عليك اللعنة ! لعنة الله يابزنطية !

ولما عادت الى صهريج موسويوس مثوى عزلتها الراعب رفع لهـا في احد سراديبه المظلمة تحت القباب والعمد شبح خفي فصاحت : حنظلة ؟

فقال زعيم العشرة ! ايت اللعن ! ماذا تريدين مني ؟ ! فقالت بلهجة تنم عن كبرياء وصلف !

— اذهب انت ورجالك فاعدوا الزوراق فانا جميعنا على سفر !

فقال حنظلة :

— والى اين ؟

فصاحت :

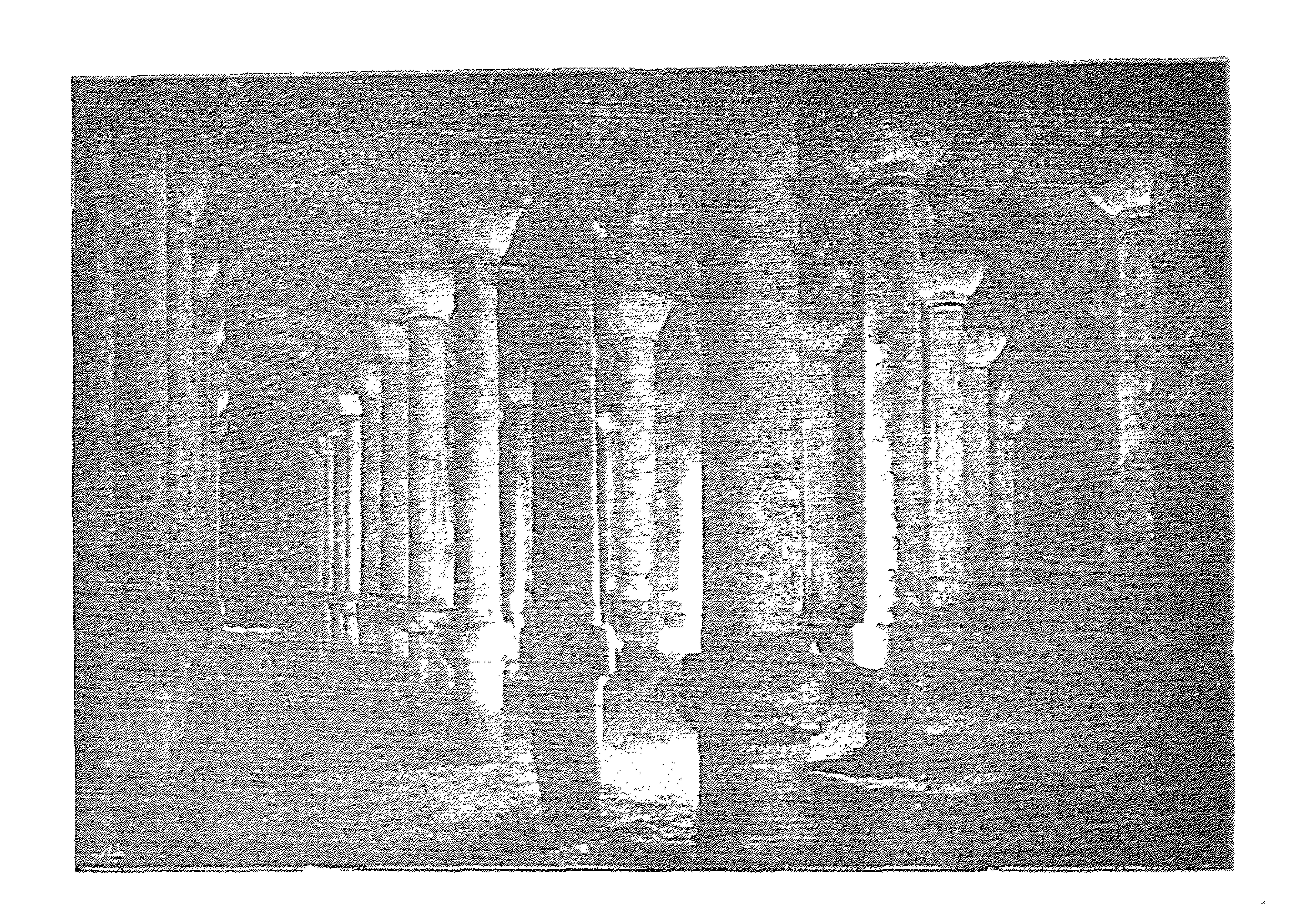
— الى شواطيء آسيه ! . . . اسامعي انت ؟ الى شواطيء آسية ! . . . فقـال حنظلة هامسـاً :

— الى قصر انتيغون ؟

فهزت رأسها ملتاعة واجمة !

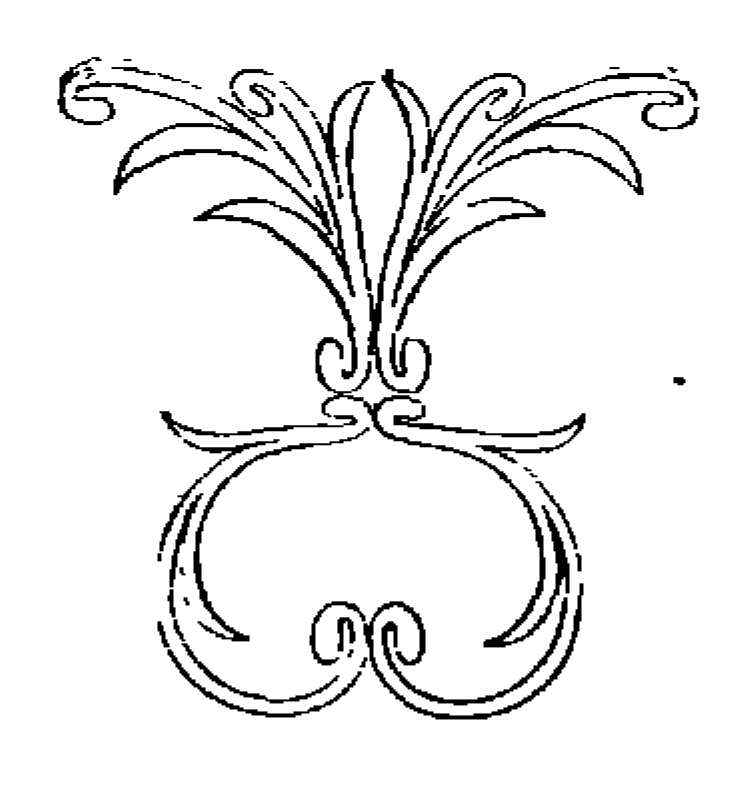
— نعم الى قصر انيتغون ! . .

انحنى حنظلة زعيم العشرة امام ليلى انحناءة نمت على خضوعه لهذه المرأة الهائلة ثم انحدر الى سرداب خفي تحت الأرض، فاستقبله رجاله العشرة بهمس شديد فاومض اليهم ايماضة خفية فهزوا رؤوسهم وراحوا الى مجاذيف معلقة على الحائط



صهريج موسويوس وكر الساحرة ليلى

فانتزعوها ، ثم ارتدوا الى اسلحتهم فتسلحوا بها وخرجوا من السرداب الخفي الى الأماكن الطافحة بالضياء ، فاذا هم امام الشاطيء وقد رست حياله الزوراق التي تحدثت ليلى عنها الى حنظلة فتهافتوا عليها وفي ايديهم المجاذيف يلوحون بها في الفضاء وحنظلة واقف على باب السرداب الخفي ينظر الى ناحية صهريج موسويوس قلقاً راعشاً ولما اطلت ليلى على زعيم العشرة كانت طلعة العجوز العافية قد اضمحلت وتوارت لتقوم مكانها طلعة المرأة الشابة الناعمة بجمال وظرف وكانت ليلى قد نزعت اطمار الساحرة ولبست غلالة من الحرير الأزرق فاستقبلها الملاحون العشرة وهي في مظهرها الجديد الأنيق بالهتاف ، ثم صعدت الزورق الكبير فجلست في مقدمته وجلس حنظلة الى جانبها وبعد لحظات اقلعت الزوراق الثلاثة من شاطيء مرمرا في طريق خليج بيكوس . ؟



الفصل الثاني عشر

الاشعة والظلال

ظلت شواطيء الشرق الضحيانة مثاراً لاحساس مارية خلال خمس ليـــال وكانت الفتاة في كل عشيةمن هاتهالعشيات تقف على شرفة قصر تيودوس تستعرض امامها جبال آسية الزاهية وضواحيها المنتشرة في السفوح وفي الاودية فلا تمل هذا المشهد الذي يتجدد ولا تعاف النظر الى الأفق المتورد الذي يظلل بيت انتيغون المنعزل مثوى ذكرياتها الماضية وقد اخذ مشهد البحر الجاهم العبوس يجذبها الى ارتياد ضفافه برغم احساس الموت الذي يتدافع في صدرها .

كانت مارية مدنفة عليلة لا تفارق صورة الموت عينيها ولكن هذه المسرات التي توهمت الحصول عليها في البيت المنعزل انستها المرض وانستها العذابات المريرة التي كابدتها في غضون حداثتها وانستها فكرة الموت فجعلت تنظر الى الأشياء بعيني طفل ساذج يرى في الطبيعة العاباً يلهو بها . ودمى يلذه ان يقلبها في يديه .

ولم يكن يشوقها ويستفز عواطفها اكثر من التحديق الى المهد الذي اصغى الى جرسها وهي طفلة ففي هذا المهد صور الطفولة العازفة عن تبعات الحياة الغارقة في العبث البريء والمراح الساذج .

لقد لبثت تفكر في زيارة قصر انتيغون المعروف بالصرح المنعزل خلال خمس ليال وكانت تذكر ما قاله لها عمرو قبل ايام وهي على الشرفة .

قال لها عمرو ، سنطوف بعد اسبوع بذلك المثوى الذي تحبين ، فراح قلبها يخفق هذا الوعد وودت لو ان الايام تمر كما تمر احلامها وهواجسها .

في اليوم السادس والعشرين من تشرين الأول جلست مارية الى النافذة المطلة على الخليج تنصت الى غناء لذيذ يردده الملاحون في الشواطيء المجاورة ، فأذكرها النغم

اناشيد عمرو المرحة الطروبة في ليالي الصيف الماضية وكان الحبيبان يومذاك يطوفان العباب الأزرق في زورق يصعد الصباح شواطيء الغرب ، ثم لا يلبث ان يرسو في المساء حيال شواطيء الشرق .

نعم لقد اذكرها غناء الملاحين في الشواطيء المجاورة ليالي الحب الصائفة واغانيها العذبة فجعلت تنظر الى الأفق البعيد والى رقص الاشعة والظلال في نواحيه الواسعة وقد احبت افناء احلامها وهواجسها في السماء المصحية وفي الضياء الذي يخلع على الطبيعة الحياة والرواء وانها لكذلك اذا عمرو يقتحم عزلتها الهائئة ويقطع عليها تأملاتها فالتفتت اليه وصافحت عيناها الساحرتان عينيه الضحوكين فقالت له :

— الا نذهب في هذا المساء الى البيت المنعزل ؟

فقال لها :

— لقد تأهب للملاحين ان يتهيأوا لهذه السياحة البديعة فينبغي لك ان تفتحي صدرك لحياة جديدة .

— وتلك الساحرة ؟

— سنراها وسنتحدث اليها عن الماضي .

ولما انضمت هند اليهما وسمعت حديثهما عن ليلى التفتت الى عمرو قائلة :

— احب ان اسمع من فم تلك العجوز حكاية موت ابي ؟ بل أريد ان اتعرف الى حقيقة ذلك الموت الذي حامت حوله الريب والظنون .

فأجابها عمرو قائلا :

— سنحاول التعرف الى الماضي حتى لاتفوتنا صورة من صوره . وفي المساء اقبل الملاحون الى قصر تيودوس على شاطيء الخليج فصعد عمرو ومارية وهند في زورق ازينت جوانبه بنقوش بيزنطية بديعة ، وقامت في وسطه مقاعد مغلفة بالحرير الأحمر فجلس عمرو في الصدر الى يمين مارية وجلست هند الى يسارها ثم تحرك الزورق فطاف نواحي الخليج مودعاً تلك القصور الرفيعة والمنازل البيضاء القائمة على شطئانه

وكان المساء ساجياً وادعاً فاجتاز الزورق الخليج ثم واصل طوافه بالشواطيء وهو يشق غلالة الماء الذي ظل حبيساً لايتفجر خلال عصور مديدة. ثم انحسرت المدينة امام عمرو وماريه وهند ، فاذا قبابها وابراجها وقصورها وربواتها الشاهقة تطل عليهم من الأعالي وانوار الشفق تغسل شواطيء البوسفور البعيدة : وقد اخذت تطبع في الأفق الوانا عدة اختلطت في بهائها روعة الألوان التي تترقرق في الجبال والربوات والأحراج .

ولما ابتعد الزورق عن الشاطيء وعانقت زرقة مرمرا زرقة البوسفور تحت الفضاء الأفيح اذا ذلك البهاء الذي يظلل شاطيء الشرق ينافس بهاء شواطيء الغرب فلاح للعيون عالم جديد يسبح في لألأ الشفق وقد انتشرت في هـذا العالم الذي تخفق فيه روح آسيه المتكبرة القباب والأبراج والأعمدة والقصور والكرمات والجنات واختلطت في روعة هذه المشاهد روعة الطفل الذي جاء يصب زفراته الأخيرة في الألوان الزاهية المتوردة .

وكان شراع الزورق يخفق في خفقة النسيم المعطر وهو يسير سيره المطمئن الوادع بينا امواج الشواطيء البعيدة تتناوح وبينا نسمات الطفل تهب لينة سجواء

وكان الملاحون قد تركوا الزورق يسير في ناحية الغروب كأنهم ينزعون الى اقتفاء اثر الشمس التي اخذت تهرب لتجد في زرقة الخضم معاذا تستريح اليه فحيت مارية من جديد البحر والأفق وهي لاتمل النظر الى المسافات التي يتركها الزورق وراءه ولم تكن تفرق من هذه الرياح المتناوحة ولا من هذه الأمواج العابثة لأن السكون الذي احسته وهي تنظر الى العالم الأسيوي المنبسط امامها جعلها لا تحفل بجرجرة اللجج وطنين الرياح السافيات وكانت تصيح كلما نأى خليج القرن الذهبي عنها « اقتربي . اقتربي ايتها الظلال التي احب في الوانها الكثيرة بهاء الشرق ومفاتنه

لقد كانت روح مارية في تلك العشية تطفو فوق الزبد الذي يحمل في بياضه اللجيني قبل الشمس الحمراء .

وابتعدت شواطيء الغرب كثيراً ولكن خيال المدينة الخالدة ظل ماثلا مشعشعاً ثم طلعت شواطيء الشرق على الزورق وتراءت اعمدة لياندر على الماء فراح صدر مارية يخفق ، واضطربت نفس هند ، وغامت عينا عمرو وكانت ظلال الجبال تغطي هذه الشواطيء الحادرة وقد لاحت متجهمة عبوسة كأنها حزينة ملتاعة لاحتضار الشمس :

ورأت هند الأودية والروابي والظلال والقصور والمعابد واشجار البلوط الدكناء فاشجاها المشهد فالتفتت الى مارية قائلة :

« اكان مولدك في احضان هذه الجبال العاشبة وفي هذه الأودية الدائمة النضرة والشباب ؟

فهزت مارية رأسها كأنها تريد ان تقول لها « نعم لقد كنت احفل ازهار هذه الاوديةوهذهالجبال بالشذا والعطر.. ولكن مساء الايام اماتفي نفسي الشذا والعطر

وطفقت هند تطيل نظراتها المسحوره في مفاتن كريسوبوليس (١) وفيالضفاف الحالية بالخضرة حائرة ساهمة لا تستطيع التعبير عن احساساتها وشواعرها . وقد هزتها هذه المشاهد الانيسة الى الماضي فذكرت حياة ابيها في هذه المغاني وعلمت اي سحر هز نفسه الى الغناء والحب .

لقد كانت تعلم حكاية ذلك الحب الذي اورث اباها الضنى والنحول فودت لو انها تستطيع ان تسأل هذه المراتع عن ذلك الهمس الذي ردده ابو هـا في الاودية والجبال والجنات حول الينابيع الثرة الدافقة .

وكانتشواطيء آسيه تزخر بالزوارق والفلك وقد اخذ الناس يتفرقون فيشتى الانحاء وكان عمرو في منعزل عن ضجيج النـاس في الشواطيء فلم ير امرأةمتشحة بالسواد تخترق الطريق المؤدية الىناحية قصر انتيغون ؛ يلتف بها عشرةمن الشباب ورسا الزورق حيالالشاطيء فصعد عمرو اليابسة واعانالملاحون هندا ومارية

---

(١) مدينة اسكدار اليوم وهي قائمة على الشاطيء الاسيوي .

على اللحاق به ولما احتوت ارض كريسوبوليس هؤلاء الثلاثة مضت انظارهم متوغله في القسطنطينية فاذا مشاهدها تبهرهم بهراً وكانت ابراج قصر تيودوس تلوح لهم عن بعد تلتف بها الاشجار والغياض

في تلك الاثناء كانت ليلى الساحرة تخترق الجماهير متوغلة في كثيف الاشجار غير مبالية بالنظرات التي اخذ الناس يرمونها بها وقد نم مشهدها عن اليأس والضنى والذبول فلما ابتعدت عن الشاطيء ورأت نفسها في نجوة من مراقبة الناس تنفست الصعداء واطلقت عبراتها قائلة :

« لقد عدت للمرة الأخيرة الى البيت المنعزل لأقف حيال جثة الماضي لعلها تتجدد وتستفيق تحت رنين صوتي ، قالت ذلك ثم رفعت عينيها الى الغابات البعيدة التي تغطي البيت المنعزل واستتلت قائلة :

« اتريد ايها المثوى الذي عرف امرأ القيس بن حجر ان تتعرف الى الألم الخفي الذي يترع ملذاتي ومباهجي وشبابي سماً ذعافا .

عشت حزينة آسية ولم يكن الحب حافزي الى الشعور بالألم والحزن لأن الحب لم يجد طريقه الى قلبي . ولأن قلبي ظل مغلقاً لا يتعرف الى امتع مسرات الحياة : ولكن البغض وهو اقوى من الحب هو الذي ارادني على الصدوف عن الطبيعة فلم يعلق نظري بهذا الشباب الذي يتجدد فيها وظل البغض حافزي الى الصدوف عن الجمال حتى في الحلم الذي يتفتح امامي في الرؤياء ولقد نشأ هذا البغض في نفسي عشية راح امرؤ القيس الملك الضليل يرتمي على صدري يخطف شحوب الموت على وجهه فلما تبينت جبينه الناصل وعينيه الغائرتين سألته عن هذا الذي يقاسيه ويكابده فقال لي « لقد جرعتني تيودورا ذعافاً يهشم نفسي تهشيما ، ويقرض عقلي وفكري ثم مضى يذكرني بحبيبته سيلفيا وصغيرته مارية وقال لي قبل ان يغمض عينيه « اذا ارادك الله على المضي الى الشام فلا تنسي تلك الطفلة التي تركتها تحت حماية البهاليل من ملوك غسان .

وانفرطت حياته وهو يستعرض بلاد العرب التي لم تذهله مفاتن الطبيعة في البلاد الاجنبية عن هيامه بها وكلفه بمغانيها .

اواه ! لا يبرح الأسى الذي عرفته عشية مات امرؤ القيس بن حجر يلاحقني حتى اصبحت استلذ النظر الى المشاهد المعتمة المنقبضة لان هذه المشاهد تستطيع ان توقظ في نفسي الراكدة احساس البغض .

قالت ذلك ومضت في طريق البيت المنعزل منحدرة الى خليج بيكوس وكانت قد رأت مارية وهنداً وأصغت الى همس عمرو فركضت الى ناحية ذلك المنزل المهجور لتكون اول الوافدين عليه .

وفي تلك الاثناء مضى عمرو بن الحارث الغساني بالفتاتين الى البيت عن طريق غابة دافنه التي ازهر فيها البلوط والخلنج وقد اراد عبور هذه الطريق الظليلة زلفى لماريه التي سلخت كثيراً من الايام بين اشجارها وازهارها .

وكانت هند تسير بين عمرو ومارية مطرقة واجمة كانها لم تجد في الشفق الذائب في زرقة الدأماء بعض العزاء الذي ينسيها ذكرياتها المرة الاليمة وهي لا تبرح تستعرض خيال أبيها ذلك الخيال الذي انطفأت في عينيه انوار الارض التي عاش فيها

ولما احتوت الغابة هؤلاء الثلاثة احست هند انها تمشي في صعيد لم يكن غريباً عن حياة ابيها فخيل اليها انها تسمع في جو الغابة القاتم العبوس همس ذلك الاب الشفيق الشهيد بل لقد كانت ترى في الاغصان والادواح والظلال والاشعة والسماء والماء طيف ذلك الملك العاثر الجد الذي مات في الارض الاجنبية ميتة ما تزال مظلمة داجية .

رأت هند في صباح هذا اليوم شمس القسطنطينية تسطع في سماء فيحاء فتراءى لها قلب ابيها القريح في الشمس والسماء فوارت عينها بكفها حتى لا تبصر هذا المشهد الاليم واخذت تمشي في الغابة ساكنة صامتة لا تسأل عن هذه الاشياء التي تلوح لها ولا تحاول ان تتعرف الى تاريخ هذه الامكنة التي طفحت بالحب

واللقاءات والقبل المعطرة .

ولكن مارية المدنفة العليلة لم تكن تمل النظر الى هذه الامكنة والى الكتابات التي كتبها المحبون على لحاء الشجر فكانت تكب على قراءة الكتابات متشوقة الى الاتصال بقلوب العاشقين .

وكان عمرو في جملة هؤلاء المحبين الذين طبعوا على لحاء الشجر صور الماضي الحافل بالهناءة واللذاذة وكانت مارية نفسها الاطار البديع لتلك الصور .

ووقفت مارية عن كثب من شجر البلوط وراحت تقرأ كتابة قديمة ثم صاحت

— الا تقرأ معي يا عمرو هذه السطور التي لم يستطع الناس ولا الزمن محوها.

فاقترب عمرو منها وطفق يحدق الى الكتابة فاذا هو يقرأ :

« هنا في هذا المعتكف الهادىء اودعنا همس قلبينا ثم استتلى قائلا :

« ان الحبيبين اللذين تركا همسهما اللذيذ في هذه الغابة الفينانة لم يكونا غريبين عنا ، لعلك تذكرين جيداً ذينك الوالهين . .

فضحكت مارية وقالت — نعم . نعم . لم انس الى الآن ذينك الحبيبين اللذين حملتهما اعراف المساء الى هذه الاماكن المنفردة فلما استوثقا من الابتعاد عن ضجيج الحياة في القسطنطينية راحا يكتبان على لحاء الشجر في غابة دافنه قصة حبهما الطاهر يخيل الي انك تعرف اسم تلك الحبيبة .

فضحك عمرو وأردف قائلا :

— مازلت أعرف مارية الطفلة الغريرة ؛ مارية الفتاة اللعوب . ولكنك انت أتعرفين ذلك المحب الواله ؟

فحنت مارية رأسها مستحيية وأجابت مردفة :

— نعم . نعم . لم يكن عمرو غريباً عني في تلك العيشة . . وبينما انا اضع اسمي الى جانب اسمه على لحاء الشجر اذ احسست ذراعين تتسللان حولي ثم رأيت رأسي يرتمي فوق صدر يخفق ويضطرب ، فالتفتت فاذا عمرو يهمس قائلا : ليت

هذه الغابة تعير حبناً بعض شبابها وروائها .

فقال عمرو :

وبينما كان رأسك مرتمياً على صدري الراعش الراجف كان زورقنا الابيض ينتظر معادنا على الشاطيء ، وفي تلك العشية المصحية القمراء عدت بك الى السياحة في البوسفور احمل همس قلبينا الى ثبجه وزبده : وكان حبنا الشاب في تلك العشية الساهرة احفل بالنضرة من الطبيعة، وكانت له قوة الامواج الصاخبة .وسكت عمرو ولم تعد مارية تنبس وراحت هند تقرأ بدورها الكتابات المنحوتة على لحاء الشجر وعلى المقاعد الحجرية المبثوثة في كل مكان من الغابة بين شجر الخلنج وشجر البلوط

وكانت انوار الشفق تخترق الغابة فتضيء عزلاتها ومعتكفاتها ونواحيها القاصية والدانية فعرض لهند في تلك الفينة شعر عربي مكتوب على لحاء شجرة بلوط باسقة فقرأته ثم قرأته اكثر من مرة ؛ ولما قرأت اسم الشاعر انثنت راعشة واجفة وصاحت صيحة اهتزت لها جوانب الغابة . ثم اذا هي جثة هامدة يحتضنها ثرى الغابة وكان لسقوطها العنيف جلجلة في نفسي عمرو ومارية فتركا الناحية المنفردة التي حاما حولها وخفا الى ناحية الفتاة يسألان عن معنى هذا الألم الذي تفجر في صدرها حتى جعلها هشيما .

ولما اكبت مارية على هند كانت هذه التاعسة التي تركت مغاني الشام للبحث عن دروع ابيها في قصور بيزنطية شبيهة بالدمى المحطمة التي يمر بها اعراب وطنها في خلال طوافهم بالصحراء فطفقت مارية تناديها مترفقة متلطفة وهند في غرق اليم .

وتهافت عمرو من ناحية اخرى على الفتاة التاعسة يهدهد اوجاعها واحزانها ويخاطبها بلهجة محببة انيسة ممزوجة بالمرارة والالتياع ولكن كلماته العذاب لم تهزها فظلت احساساتها راكدة نائمة .

ماذا حدث لها ، واي خاطر مباغت اقتحم نفسها المرحة في هذه العشية الضحيانة أكان الحنين الى الوطن هو الذي قوض صروح نفسها في الارض الاجنبية

لقد كانت مارية التي احبت هنداً تطرح هذه الأسئلة على نفسها فلا تجد جواباً تطمئن اليه فظلت احزان هند مبهمة غامضة لا تستطيع ان تحسر عنها .

وجعلت مارية تصيح :

ــ الا يوجد ماء في هذه الغابة ؟

فرفع عمرو عينيه وقال لها :

ــ ان الماء بعيد جداً عن هذه النواحي .

ــ دلني على مكانه فان هنداً في غشية مؤلمة وهي في حاجة الى الماء . .

ولكن ماء بيكوس الدافق الهادر بعيد من الغابة فليس في قدرتك وانت الفتاة الضعيفة ان تصلي اليه !

وفي تلك الأثناء رعشت نسمات ناعشة في الأفق فاهتزت الربوات المجاورة التي يغطيها الخلنج وتأرجت اعرافها حتى ملأت الغابة فتمايدت هند تحت تأثير هذه النسمات العذاب ففتحت عينيها ناظرة الى الفضاء الغارق في بهاء المساء ثم همست قائلة:

ــ الف تحية ايها الغاب الذي يحمل في كل وردة من اوراده عبق ابي العاثر الجد . لقد قرأت في اشجارك الوارفة الظل اشعار ابي فمست روحي روحه حتى راح حاضري الماثل يخالط غابره الذاهب .

وكانت هند تتكلم كأنها غريقة حلم بعيد تراءى لها في تلك اللحظة فاكبت مارية على جبينها تلثمه راعشة راجفة ثم قالت لها :

« اي هند الحبيبة لماذا تخاطبين الماضي بهذه اللهجة اليائسة ؟ .

فاستتلت هند قائلة :

« كانت هذه الغابة وطناً لشجون ابي واحزانه فلقد صب في اوراقها وازهارها عزيف نفسه فاذا هي حالية بالحياة والمرح والحب . .

وتضافر الحبيبان على انهاضها من عثرتها فنهضت وهي لا تبرح والهة شاجنة فلحظ عمرو هذا الشجن الذي يغالبها فراح يسند رأسها الى صدره واخذت مارية

تتحدث اليها بلهجة رحيمة شفيقة حتى اطمأن روعها ففتحت عينيهـــا وتفرست في ملامح عمرو ثم قبضت على يده قائلة :

— لماذا لم تذكر لي شيئاً عن ماضي ابي في هذه الغابة ؟ لماذا لم تصف لي ذلك الألم الذي تحيفه وهو بعيد عن الأهل والأحبة . بل لماذا لم تسمعني بعض الشعر الذي كتبه ابي التعس على لحاء الشجر ؟ .

فنظر عمرو اليها واجماً وقال لها :

— اكاد لا ادرك شيئاً مما تقولين ، قولي لي اين قرأت اشعار ابيك ؟

فمدت يدها الى شجرة البلوط المنفردة وقالت له :

« انظر الى هذه الشجرة الممتدة الافياء . أرأيتها ؟

— نعم رأيتها · فهل قرأت على لحائها شيئاً اثار نفسك واهاجها ؟

فتناولت يده ومشت به الى ناحية الشجرة ؛ فلحقت مارية بها وقد اوشكت ان لا تصدق هذا المشهد الجديد الذي لاح لعينيها .

ولما اقترب الثلاثةمن شجرة البلوط أومأت هند بيدها الى كتابة عربية لمتستطع الأمطار والعواصف وتعاقب الايام محوها وقالت لعمرو :

« لقد حمل ابي الى الارض الاجنبية التي فزع اليها فراراً من المنذر ملك العراق ذكرى طفلته المحبوبة ثم قضى نحبه وهو شديد الحنين الى الطفلة .

فقرأ عمرو على لحاء الشجرة هذا الشعر .

أأذكرت نفسك ما لن يعودا — فهاج التذكر قلبـــاً عميدا
تذكرت هنداً واترابهـــا — فأصبحت ازمعت منها صدودا
ونادمت قيصر في ملكه — فأوجهني وركبت البريدا

وسكت عمرو فقالت له هند :

— ارأيت هذا الذي تركه الحنين في نفس ابي ؟ ان هذه الشواطيء الأنيسة وهذه الجبال الزاهية والمراتع الهانئة لم تنس ابي طفلته التي كانت تضحك له وهو بائس

فقال لها عمرو :

ــ لقد ترك ابوك في هذه المغاني شيئاً كثيراً من شعره وشعوره . .

ــ كان ينبغي لك ان تقص علي حياة ابي ولكنك لم تفعل ويخيل الي انك تتردد كثيراً في تصوير حياته . قل لي أفي حياة ابي من الصور ما يرمض ويوجع ؟

ــ ناشدتك الله يا هند ان لا تسألي كثيراً فان ماضي ابيك لا يخصك وحدك بل هو يخص غيرك .

ــ ولكن هذه الكلمات المبهمة الغامضة لا تحسر هذا الشك الذي يتأكل نفسي فمن اين علمت ان ماضي ابي لا يخصني وحدي ؟ من اين علمت ان لي شركاء في هذا الماضي ؟ . كنت في السابعة من عمري لما اخذني ابي بين ذراعيه ثم راح يضمني الى صدره قبل ان يجعلني تحت رعاية ابن عمه يزيد بن الحارث بن معاوية ، وبعد ان حدق الي طويلا قبلني قبلات مفعمات بحنان ورحمة وحب وقال لي ستسألين يا ابنتي عن ارثك من ابيك، اذن فاعلمي ان ماضي حياتي الممض المرهوب هو ارثك الثمين » هذه هي كلماته رجعتها امامك فأنت ترى ان ابي لم يرد احداً على مشاطرتي ارثه من الماضي .

ــ ولكنك نسيت ان اباك بدأ حياة جديدة في عالم آخر هو غير العالم الذي عاش فيه بين اهله وصحبه ونسيت كذلك ان احساساً جديداً نشأ في نفسه وهو في الأرض الاجنبية التي استذرى بكنفها .

ــ لم افهم شيئاً من هذا الذي يهمس به فمك . نعم ان ابي بدأ حياته في عالم وختمها في عالم آخر ولكنه ظل يذكر التربة الأولى التي انبثق فيها فجر احلامه . . ان جبال اليمن العارية احب اليه من جبال بيزنطية التي تنعكس عليها الوان الغروب

ــ اعرف هذا كله : واعرف ان اباك لم ينس وطنه الأول ولم يقطع تلك الأواصر المقدسة التي تربطه بذويه وصحبه ، واعرف ايضاً انه كان يتبرم بهذه الجبال التي يرقص عليها ضحك الطبيعة لأن جبال بلاد العرب ظلت تهزه الى طفولته ، والى

شبابه ، حتى اشتد بها فتونا وحتى صار يجد في جبال وطنه التي كان يتمثلها في كل مساء متعة الحواس ولذة المشاعر . ولكن في حياة ابيك ذكريات يجب ان يتوزعها اناس اخرون .

قال عمرو ذلك كله وراح ينظر الى ماريه فاطرقت هند : فخيل الى عمرو ان موجة عاصفة من حزن قد غمرت نفسها من جديد وشعر انه افرط كثيراً في البوح باشياء ليس من حقه وحده ان يحسر عنها فبهت ، وساد الثلاثة صمت رهيب كصمتة الموت ومضت نواظرهم محدقةالى شجر البلوط . وكانت مارية تتساءل عن معنى هذه النظرات الراعشة التي صوبها عمرو اليها وقد خيل اليها ان الفتى الذي اولع بها واولعت به يطوي في صدره شجونا كثيرة قد تكون متصلة بحياتها وطفولتها فودت لو تسأل الفتى الجميل معنى نظراته اليها فثناها عن عملها نشيج هند المؤثر ففضلت ان تسأله في فرصة اخرى .

ورأى عمرو ان البقاء طويلا في الغابة قد يفضي الى كوارث جديدة فالتفت الى مارية قائلا :

ــ اخشى ان يطرقنا الليل ونحن في الغابة ثم التفت الى هند وقال لها :

ــ يجمل بك ان تنزعي هذه الالآم التي تفترس نفسك فان الألم الشديد قد يحول بينك وبين ماضي ابيك . . . ان في القسطنطينية امرأة تعرف هذه الماضي ، وفي وسع هذه المرأة التي كثيراً ما حدثتك عنها ان تقول لك اشياء كثيرة عن عيش ابيك الجديد هنا في غابة دافنه وهناك في مثوي انتيغون .

فحدجته هند بنظراتها كأنها تريد ان تطلع على دفائن قلبه ثم سألته قائلة :

ــ واين اجد تلك المرأة ؟

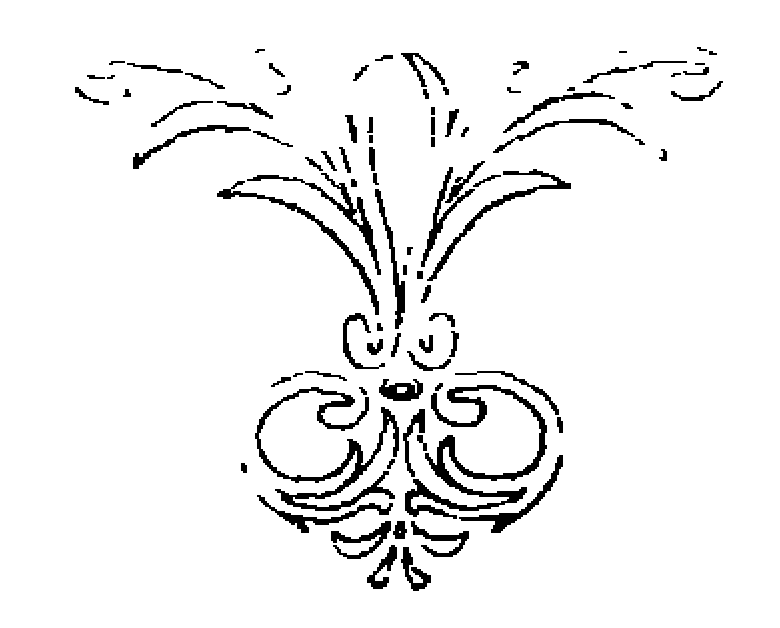
ــ في القسطنطينية .

ــ متى ؟

ــ غداً اذا شئت . .

ـ اشكر لك مروءتك ايها الغساني الشريف . . .

ولم تقل اكثر من ذلك ، لأن الحزن قد عقل لسانها ، فمشت بين عمرو ومارية وصعد الثلاثة في طريق المنزل المنعزل وفي تلك الأثناء كانت العجوز ذات الملابس السوداء قد دخلت ذلك المنزل القائم على شواطيء البوسفور من باب صغير تحمل مفتاحه بيدها وقد رابط حنظلة برجاله العشرة حيال الشاطيء .



الفصل الثالث عشر

المـــاضي ...

امتع المشاهد في القسطنطينية واشدها فتونا وسحراً مشهد البوسفور وضفافه الكاسية العاشبة . واجمل هذه الشواطيء التي تلثمها الشمس خلال شروق ، وخلال مغيب ، هو هذا الشاطيء الممتد من كريسوبوليس (١) الى خليج بيكوس ، وابهى العصور وازهاها عصر يوستانيوس وتيودورا ، واروع مفاتن هذا العصر قصر انتيغون الصيفي ، الذي بناه بناته على انقاض خميلة اكاديموس ، ملهى سقراط في طفولته . ومثوى لعبه ومراحه . بل وطن آلهة القدماء ، ومهد حسان المـاضي ، ومرتاد الشعراء الباحثين عن الشعر في الجبال والظلال والبحر ...

في ذات عشية من عشيات صيف سنة ثلاث وستين وخمسمائه عاذ امرؤ القيس ابن حجر ملك كندة بقصر انتيغون مع حبيبته سيلفيا فظللتهما بواسق الشجر في خميلة اكاديموس على السفائح الضاحكة المطلة على البوسفور وكان رجال من كندة ومعهم ليلى يقومون على حراسة الشاطيء في زورق خرج بالحبيبين من قصر تيودوس الى الضواحي الآسيوية .

« لقد قال امرؤ القيس لحبيبته سيلفيا وهو في الخيلة :

« انا اول من علمك الحب . واول من بلل عينيك بالدمع ، فكوني انت أول

« من يعلمني الصفح !

« وكان ينظر اليها فيرى عينها ذابلتين كأن الما شديداً قد امالهما الى الذبول فيروح امرؤ القيس مطوقاً هذه الحبيبة بذراعيه ويقول لها « كانت لياليك طاهرة هادئة فروعها حبي واترعها بالسهد والألم والرغبات الراعشة ! فكانت تقول : « اي

(١) اسكدار .

شاعري ! هون عليك ، فلولا الألم والسهد ماعذب هذا الحب ! وكانت ترفع عينيها الى السماء ثم تروح هامسة رباه « يامن وسع علمه كل شيء ، انك ساعة خلقت الفضيله اردتها على قبول الألم كمرشد لها ! ولكنك خلقت الجمال والحب ضعيفين واردتهما على قبول الألم فعجزا عن احتماله . . .

وحينما كانت سيلفيا تحدثه عن ماضي خميلة اكاديموس ، وتقص عليه الاقاصيص البارعة عن حياة شعراء الأغريق عن كثب من بواسق اشجارها . كانت عيناه تنظران الى تماثيل هؤلاء الشعراء ، ثم يشتد حنينه ، ويتطاغى حبه فيلتفت الى سيلفيا ويقول لها « لقد الهب شعراء وطنك خيالي . وفجروا مشاعري واصبحت انصابهم مغريتي بالشعر ! ثم يعود الى الشعر الرائق فيسمعها اعذبه واطيبه فتروح سكرى من رحيقين . رحيق الحب ، ورحيق الشعر !

هذه هي خلاصة تاريخ مثوى انتيغون الذي حجت اليه مارية وهند وعمرو ابن الحارث في اليوم السادس والعشرين من تشرين سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة وهي حياة شاعر عربي مليئة بذكريات الحب ، وذكريات المجد .

* * *

سار عمرو وهند ومارية في طريق قصر انتيغون تحت ظلال الشفق الممتدة من الغابة الى شواطيء البوسفور الأسيوية فحول هذا المشهد الفاتن نفوسهم الغائمة البائسة الى نفوس راجية مستبشرة فكانت مارية تأمل ان تجد في البيت المنعزل حياتها الماضية فتنصت الى خفقها وترى في صورها خيال طفولتها وكانت هند تطمح الى الاتصال بحياة ابيها الذي لم يكن بيت انتيغون غريباً عنه وقد خيل اليها ان اباها الذي ملأ الغابة باشعاره لم يتردد في اتراع هذا المثوى بكثير من زفرات نفسه ، وكان قلبها يهمس في اذنيها قائلا : « اذا كنت تريدين ان تتعرفي الى العالم الجديد الذي عاش ابوك في ظله فينبغي لك ان تحجي الى هذا البيت، اما عمرو فقد كان يأمل ان تجد مارية خيال مهدها تلك العافية الذاهبة وذلك الشباب الذي

صوحه الألم والحزن واليأس .

اخترق الثلاثة الغابة فانساهم تبدل المشاهد تلك الاشجان التي عصفت بنفوسهم منذ قليل فشرعوا يتحدثون ويتسامرون تحت ذوائب الشفق والهواء النقي يتسرب الى نفوسهم تخالطه اعراف الصنوبر .

ولما بدت لهم حدائق البيت المنعزل وطلعت عليهم شواطيء البوسفور تنفسوا الصعداء وصاح عمرو :

— لقد وصلنا !

وكان لامعدى لهم عن تساق التلال والذرى للوصول الى البيت المنعزل ثم انحدروا قليلا الى الشاطيء وسلكوا طريقاً قصيراً بلغ بهم حديقة اكاديموس فاذا بابها مفتوح امامهم فدخلوه ووطئت اقدامهم العشب الذي يغطي الارض ثم مضوا متوغلين في طريق مستطيلة قامت اشجار النارنج والسرو على جانبيها فظللتهم ادواحها المتشابكة ثم بدا لهم البيت وسلالمه الرخامية وحناياه المرمرية فوقفت مارية وهند تتأملانه ومضى عمرو الى البيت فصعد سلمه في مثل خفة الوميض وكان بابه مفتوحاً فأجفل وكاد يعود الى الفتاتين اللتين انتبذتا في الحديقة ناحية تطل على القصر ولكن الفتى الصليب العود لم يلبث ان استرد رباطة جأشه فدخل البيت ثم لحقت به الفتاتان .

كان البيت مؤلفاً من طابق واحد وقد اشتمل على مقاصير عدة وخلوات كثيرة متفرقة وفناء داخلي من الرخام الأبيض المحلى بنقوش بيزنطية فطفقت هند تنظر الى جمال زخرفه وهي ذاهلة مبهوتة بينما راحت مارية تنظر الى قناطره وحناياه نظرات غائمة

وجعل الثلاثة يطوفون حول الغرف التي يحفها الصمت العميق حتى وقف عمرو حول غرفة منعزلة يقوم على بابها تمثالان لفتاتين تمثلان ربة الشعر وربة الحب عند الاغريق ثم التفت الى مارية وقال لها « اتعرفين هذه الغرفة ؟

فهزت رأسها وقالت مردفة .

— نعم ، في هذه الغرفة مهدي الاول ...

ـــ ايلذك ان تجوسي خلالها ؟

نخفق صدرها ولم تجب فقال عمرو :

ـــ ان شحوب وجهك ينم عن خوف شديد فهل صرت تخافين عبور هذه الحجرة وكنت تلحفين في زيارتها ؟

فاطرقت واجمة وطفق عمرو يتفرس في ملامحها ثم رفعت عينيها الى هند كأنها تريد ان تسألها عن رأيها في الدخول الى الحجرة فقالت لها هند :

ـــ اذا كنت تخافين استعراض الماضي النائم في هذه الحجرة فلا يضيرك ان تصدفي عنها . . . .

فاغمضت مارية عينيها واستتلت قائلة :

ـــ لندخل · لندخل ..

ففتح عمرو الباب وتقدم الفتاتين الى داخل الحجرة . ففتح النوافذ المطلة على الحديقة وعلى البوسفور .

وكانت ارض الغرفة مغطاة بالطنافس الشرقية البديعة والرياش الثمين الغالي وقد قام في وسطها مهد كبير من الخشب المرصع بين عمد من الرخام الابيض تظلله سجوف من القطيفة الحمراء وامام السرير منضدة من المرمر قام عليها تمثال صغير يمثل فارساً عربياً على رأسه عمامة مطرزة والى جانب المنضدة آنية بديعة من الخزف واسلحة ودروع عربية .

لم تفطن هند حين دخولها الحجرة الى التمثال ولم تر الاسلحة فظلت نظراتها محدقة الى السقف المحلى بالفسيفساء ثم انشأت تتأمل في السجوف التي تغطي المهد .

ووقفت مارية عن كثب من هذه الودائع المقدسة وقفة العابد في محرابه؛ وجعل عمرو يسبح في غمرة هواجس قاسية عنيفة منعته ان يرى هذه الاشياء المقدسة التي تمثل الماضي .

لقد كان السكوت العميق سكوت الموت العبوس المكفهر يظلل هذه الحجرة

التي لم يطرقها طارق منذ عهد بعيـــد ؛ وكان زفيف الموج في شواطيء البوسفور الصدى الوحيد الذي يقلق هذا السكون المهيب المرهوب ، فلم يشأ عمرو افناء الوقت في التأملات والهواجس الراعبة فالتفت الى مارية قائلا :

ـــ انت هنا قريبة من ماضيك فهل تريدين ان تحسري هذه السجوف عن مهدك الاول ؟

فترددت مارية قليلا ثم وارت عينيها بكفها قائلة :

ـــ افعل ما تشاء . افعل ما تشاء !

وراحت هند تنظر الى يده التي ارتفعت الى الستـــائر المسدولة وهي اشد ما تكون تشوفاً الى ما وراء الستائر من مشاهد عزيزة على مارية .

وازاح عمرو الستائر ففتحت مارية عينيها على مهد غارق برياحين ندية كأن حاملها جاء بها في هذه العشية فارتاعت لمشهد الرياحين وعجبت لوجودهـا في المهد وصرخ عمرو صراخاً شديداً نم عن حيرته وقلقه .

ـــ من اين جاءت هذه الازهار ؟ وكيف وجدت هنا ؟ واي يد اقتطفتها من حدائق القصر ثم جاءت بها لتكون غطاء لمهد مارية ؟

حينما دخل عمرو القصر الفى ابوابه مفتوحة فغشيه خوف وهم برجعة ولكنه اطمأن الى خلو القصر من الرواد وهو يعلم ان الناس لا يجرؤن على طرق ابوابه لا في النهار ولا في الليل ولكن مشهد هذه الازهار جدد في نفسه القلق فمضى ذاعراً خائفاً ثم التفت الى مارية قائلا :

ـــ اخشى ان يكون في القصر اناس سبقونا الى زيارته . فهلمي بنا نبحث عنهم في الغرف ...

ولم يكد يلفظ عبارته الاخيرة حتى رن في اذنيه صوت مجلجل كالرعد فألقى باذنيه للسمع فاذا صائح يصيح :

ـــ حذار ان تفعل ايها الأمير الفتان الذي تجول في عروقه دماء مارية ذات القرطين

فبهت عمرو لهذا الصوت وراح يجيـــل نظراته في جوانب الغرفة يبحث عن مصدره ومأتاه فوقعت عيناه على الساحرة ليـــلى وهي واقفة وراء السجوف وكانت ملابسها الزرقاء اشد اثارة لرعبه وخوفه من صوتها العاصف فصاح :

ليلى انت هنا ؟

واغمي على مارية وهي تصيح : الساحرة ، الساحرة .

وكان الم هند شديداً فطفقت تصيح :

ــ ليلى ، ليلى ، من تعرف ابي التعس ؟ . .

فقالت ليلى متطامنة هادئة :

ــ نعم انا ليلى ايها التعساء ! ليلى الهازئة بعظمة يوستانيوس الكبير العابثة بعظمة يوستينوس الصغير . نعم انا هي ليلى رفيقة ذلك الرجل المنكود الحظ الذي ساقه قدره الأسود الى هذا العالم ليموت ميتة ما كان جديراً بها ، اي عمرو ساعدني على نقل مارية الى هذا المهد فان اغماءها لا يلبث ان يزول .

فتردد الفتى قليلا فحدجته ليلى بعينين حمراوين واستتلت قائلة :

ــ اتتردد يا مولاي في نقل هذه الفتاة الى سريرها ؟ لقد كنت احسبك تحبها وتحب لها الحياة فجاء ترددك برهاناً على انك لاتعرف الحب ..

وكانت ليلى تعلم اي حب يحمله هذا الغساني الجيل في جانحتيه لمارية ولكنها ابصرته راعداً راجفاً فأحبت ان تهز الحب في صدره فلا يحس خوفاً ولا يعرف جبناً فكان للعجوز ما ارادته فان حبيب مارية ما لبث ان تهافت ليعين الساحرة على انهاض مارية فحمل رأس الفتاة الذاهلة في يديه ومضت ليلى تحمل قدميها ثم مشى عمرو ومشت هي معه الى المهد فغيبا الجسد الهامد في الرياحين والازهار !

وعادت ليلى الى عمرو قائلة :

ــ والآن يحق لك ايها الأمير ان تسألني ما شئت!من اين اتيت ؟ولماذا اتيت ؟

ولم تشأ ان تتنكب عن النظر الى هند فحدقت اليها فوقعت عيناهـــا على الفتاة

الناعمة الوثابة الطفارة ؛ ولما اقتربت منها وهزت يدها رأت في عينها السوداوين ذلك السحر الذي رأته في عيني امريء القيس بن حجر فقالت لها هادئة :

— لقد عرفتك طفلة واصغيت الى جرسك العذب ثم رأيتك تودعين اباك ناعمة وادعة لاتفكرين في غيرلهوك ومراحك ثم رأيتك قبل ايام في معبد اياصوفيا بعد عشر سنوات تخيل الي انني لم اكن غريبة عنك. ايتها الفتاة ناشدتك الله ان تحسري عن خفايا صدرك ، لماذا تركت وطنك ؟ واي عاصفة حملتك على متونها الى هذه البلاد الأجنبية ؟

فأغمضت هند عينها وانثنت هامسة :

— لقد سألت عن ميراثي من ابي فقيل لي ان قيصر يحرص على هذا الميراث فصدفت عن مغناي الأول وجئت هذه البلاد الاجنبية لأظفر بضالتي ..

— اكنت تتوقعين ان تري في القسطنطينية اناساً يساعدونك على الوصول الى ضالتك ؟

— لقد قالوا لي ان في القسطنطينية امرأة تعرف ماضي ابي . وان في قدرتها وحدها ان ترد الي ودائعه المقدسة .

فهزت ليلى رأسها وقالت لها :

— لم يخدعوك يا بنية حينما قالوا لك ان ماضي ابيك المثقل بالآلام والشجون وديعةفي يدي امرأة الا فاعلمي ان تلك المرأة التي جئت هذه البلاد الاجنبية للبحث عنها هي من تصغين الى كلمها ..

— ردي الي دروع ابي ..

فوضعت ليلى يدها على كتف هند وقالت لها :

— هوني عليك يا فتاتي فلن يطول الأمد حتى ترد اليك ودائع ابيك .

واختنق صوتها فلم تزد ولكنهابقيت تنظر الى هند فرأت كلماتها تلك قد اجدت وادركت ان موجة الأمل العذب بدأت تغسل نفس الفتاة المعذبة ولما عادت الى

السرير اذا عمرو وهند يرعشان من شدة الخوف ولكنهما فضلا الصمت وجاهدا كثيراً في حبس عواطفهما .

ازاحت ليلى الازهار والرياحين عن السرير فبدا وجه مارية مسفوعاً شاحباً كأنه وجه ميت طال عليه الأمد ، وكانت عينا الفتاة مغمضتين لا تريان وجه الساحرة العبوس المكفهر فكاد عمرو يجن امام هذا المشهد الأليم وقد خيل اليه ان الفتاة التي احبها صارت في الهالكين ولكنه ظل واجماً وبقيت عيناه شاخصتين الى جسد مارية الهامد .

دارت الساحرة دورتين حول السرير ثم وقفت تتأمل في وجه مارية لا تمد يدها اليها ولا تنبس بكلمة حتى ايأس سكوتها العميق فتى غسان الشريف فالتفت اليها قائلا :

— ينبغي لي ان افعل من اجل مارية ما انا مستطيع ان افعل ، فهل انت في حاجة الى مساعدتي لأنهاضها من هذه الغشية المؤلمة ؟

فلم تجب فقال عمرو :

— ان سكوتك العميق يورثني كثيراً من الشجن فهل صرت تشكين في اعادة الحياة الى مارية التعسة ؟.

فلم تجب فاكفهرت سحنة عمرو فأردف :

— ولكن موت مارية كارثة يجب ان نتوزعها انا وانت . . . افهمت ؟ . انك لن تبرحي هذا المكان المنعزل قبل ان تقدمي حساباً على ماجنته يداك فقد كنت باعث موت هذه الفتاة التي امضت حياتها وهي لاتعرف كثيرا او قليلا من عطف والديها.

فرفعت الساحرة عينيها الى عمرو وقالت له وادعة هادئة :

— ولكنك لست مسؤولا عن حياتها وموتها ؟

— أتقولين ذلك ؟ اذن فمن هو المسؤول عن حياتها وموتها ؟ .

— انا وحدي ! يخيل الي انك ما زلت تجهل ماضي حياتي .



يوستينوس قيصر (جوستين الثاني)

ــ ولكن اية علاقة لماضيك بهذه الفتاة ؟

ــ اعلم انك تحبها ، واعلم ايضاً انها تحبك . ولكنك انت لا تعلم حبي لها وحرصي على حياتها بل انت لا تزال تجهل ان في جو بيزنطية عيناً ساهرة ارقة لا تستحب الغمض قبل ان يرد الى الفتاة اسمها الحقيقي وارثها من ابيها فصاح عمرو :

ــ واي شأن لك في هذا كله ايتها المرأة ؟

ــ قلت لك انك تجهل ماضي وانك لا تعلم شيئاً عن حبي لهذه الفتاة التي حملتها بين ذراعي وهي طفلة . . اذن فاسمع . لقد مات ابوها ولكنه ارادني قبل موته على حمايتها وماتت امها بعد موت ابيها بأيام فسألتني الدفاع عن كيانها .

ــ قد يكون كلامك صحيحاً وقد يكون من حقك ان تدافعي عن حياتها ولكن ليس من حقك ان تكوني سبباً في موتها .

ــ انها لم تمت ولكنها نائمة .

ــ ناشدتك الله ان تردي الحياة الى صدرها .

ــ سأفعل ولكن بشرط ان لا تمنعني عملا اعمله . انه عمل جسيم رائع ينبغي لك ان تمضي متجلداً شجاعاً حياله . والتفتت الى هند قائلة :

ــ كذلك ينبغي لك ان تتجلدي . .

فقال لها عمرو :

ــ افعلي ما تشائين بشرط ان تردي الحياة الى مارية .

فشخصت ليلى الى ناحية المنضدة الرخامية التي قام عليها تمثال الفارس العربي فحملت المنضدة وجاءت بها الى ناحية السرير ثم اسدلت عليها غطاء وارى طلعة ذلك الفارس عن العيون وغطى دروعه واسلحته فلم يفطن عمرو وهند الى حركتها وظلت انظارهما محدقة الى السرير ، وبعد ان اتمت الساحرة عملها غمست يدها في صدرها ومضت تخرج منه حقاً صغيراً ؛ ثم اقتربت من السرير وقد اخذت انفاسها تتقاصر وتلهث ، فصبت رذاذاً من سائل في الحق على جبين الصبية النائمة ووقفت

تنظر الى وجهها الكامد الخابي .

مضت لحظات على ليلى وهي تتفرس في جبين مارية فخيل الى عمرو ان لا نهاية لانتظاره فكاد يطفر من اليأس ولكن نظرات ليلى المسددة اليه منعته ان يتحرك فلبث شاجناً وكذلك كان شأن هند .

وبعد قليل وضعت ليلى اذنها على صدر مارية وصاحت .

ــ الا تسمعين صوتي يا بنية ؟ .

فاهتزت مارية في سريرها وفتحت عينيها فكاد عمرو يثب من فرحه فنظر الى الساحرة متسائلا فأومأت اليه بالصمت فصمت .

ثم عادت الى مارية فنادتها قائلة :

ــ مارية ! مارية ! اتسمعين صوت ابيك ؟ لقد كنت طفلة حينما خرجت بك الى ابيك في هذا البيت المقفر وكانت السماء غائمة والارض ندية بالوحول والبرق يلعلع في كل ناحية . فلم احفل بهذه السحب الوطفاء بل واصلت سيري حتى بلغت بك هذه الحجرة وانت بين ذراعي تتململين . .

ولما ابصرني ابوك دالفة اليه تحت الودق المنهمر راح يحتبسك بين ذراعيه باكياً ملتاعاً ثم قال لي :

« ما اجمل هذه الطفلة . ان في وجهها جمال سيلفيا ! . . أتسمعين هذا الذي اقصه عليك ايتها التعسة !

فرفعت مارية عينيها الى الساحرة وقالت لها :

ــ اسمع ! اسمع !

فاستتلت العجوز قائلة :

وقبلك ابوك اكثر من مرة . ثم اعادك الي قائلا : «لقد بت اخشى عليها قيصر فاهربي بها واسهري على حياتها» فعدت بك الى امك في ذلك المساء وكانت في النزع فلما شهدتك راح وجهها مضرجاً بحمرة زاهية هي حمرة الموت ثم همست في اذنك قائلة:

— ستعيشين في هذا العالم منفردة كالزهرة البرية، فلا يشم عطرك أولئك الذين بللوا اكمامك بالدمع ، اي بنية ان لك في هذا العالم اباً شفيقاً حال بينه وبين امك ضعف ارادة جدك وغلظة كبد جدتك وستعيشين منذ هذا اليوم يتيمة لا تعرفين اباك الذي احبك . ولا تحملين في صدرك كثيراً او قليلا من ذكريات امك . ولما مضى ابوك الى المنفى دعاني جدك اليه .

فصاحت مارية وهي تتململ في سريرها :

— اعرف هذه النهاية ؛ اعرفها جيداً واعرف ان يوستانيوس قيصر كان ينظر الي بعينين مات فيهما البغض والحقد . ولكن امراً واحداً لم اعرفه بعد ... من يكون ابي ؟ .

هزت هذه الأسئلة الساذجة التي بدأت مارية تلقيها على الساحرة شجون عمرو فلم يشك في انه مقبل على مشاهد جديدة غير مستحبة .

لقد كان يعلم ماضي مارية وكان يعرف اباها ولا يجهل شيئاً من امر أمها ولكنه كان حريصاً على ان يظل الماضي نائماً حتى لا تكون يقظته سبباً في اطفاء شعلة الحياه في صدر مارية المريض . بل لقد كان يعلم اية اواصر تربط مارية بهند ومن اجل هند ومارية جعل يناشد الساحرة السكوت . ولكن الساحرة التي ظلت السنوات الطوال صامتة ساكتة لم تعد تحب هذه الخرائب التي تعيش في روحها فأصرت على الافضاء بحديث الماضي ثم نظرت الى هند فرأتها تضطرب وترعش كأنها بدأت تدرك ما يجول في اعماق نفس الساحرة .

واستتلت مارية قائلة :

— أتعرفين ابي ؟ اذا كنت تعرفينه ففيم سكوتك هذا ؟ ولماذا تترددين في البوح باسمه ؟

فوضعت الساحرة يدها على التمثال الصغير ورفعت صوتها قائلة :

— اترين الى هذا الفارس ؟ لقد بهر جماله سيلفيا ابنة يوستانيوس وتيودورا

فراحت عالقة به ومضى عالقاً بها .

فنظرت ماريه الى التمثال وحدقت في ملابسه العربية بينما هند تتأمل هذا المشهد حائرة مشدوهة . وبينما عمرو ينظر الى اهتزاز يدي الساحرة وهما تقلبان ذلك النصب الصغير .

وتابعت الساحرة حديثها قائلة :

ـــ اي مارية اتريدين التعرف الى ابيك ؟ اذن فاعلمي ان اباك هو امرؤ القيس بن حجر ملك كندة .

فخرجت من صدر مارية صيحة الممة رددتها جوانب البيت ، وراحت هند التي روعها همس ليلى باسم ابيها جافلة مذعورة ثم اغمي عليها فسقطت على حضيض الغرفة ناشجة شاجنة وكاد عمرو يسقط على الارض ولكنه تجلد ومضى يستند الى الجدار وهو ينظر دائماً الى تمثال امريء القيس الذي ادنته الساحرة من مارية التعسة ثم رفع صوته قائلا :

ـــ ماذا فعلت ؟ اما فكرت في نتائج عملك الذي قتل هاتين الفتاتين وهما في غضارة الشباب وغضارة الاحلام ... ان عملك هذا لفظيع .

ـــ ولكن ذلك الملك التعس الذي مات بين ذراعي قد ارادني عليه ، وقال لي لما اشتد به النزع « اذا قدر لك ان تري مارية وهنداً وهما كل ما اترك في هذه الحياة فلا تترددي في ان تضمي الواحدة الى الأخرى . بل ينبغي لك ان تردي اسلحتي ودروعي الى هاتين الأختين اللتين ابت الأقدار الا ان تعيشا نائيتين مغتربتين لا تعرف واحدتهما الثانية ! ابعد هذا الذي سمعته من امريء القيس بن حجر تريدني على السكوت ؟

« لقد كنت انصت الى كلماته واتسمع الى خفق قلبه فكان يبدو لي ضاويا متعباً مكدوداً وكنت اتعمل الابتسام . واتكلف الفرح حتى لا يقتله الأياس العنيف فقلت له « نم هانئاً وادعاً فان ليلى التي عرفت طفولتك وشبابك ستظل الساهرة الآمينة

وكان حبه لمارية شديداً مثل حبه لهند ، بل لقد كان يرى في خيال مارية الطفلة ابتسامة لطيفة ساحرة تهدهد آلامه في المنفى ، وكانت صورة هند التي نأت عنه تثير في نفسه حنينا الى الوطن الذي ولد في ارضه ، فكانت ماريه حاضره الجديد في بزنطية ، وكانت هند غابره القديم في الوطن الأول .

ووقف ليلى عند هذا الحد تحبس زفراتها وتمنع خفق فؤادها فقال لها عمرو وقد اشار الى هند الغاشية .

ــ دعها تستيقظ من غشيتها . . .

ولكن ليلى لم تسمع بل ظلت تتخافت بصوتها كأنها تتحدث الى ذلك الماضي البعيد .

ــ وددت لو انني كنت استطيع انقاذك من الموت ، فما بلغت امنيتي فقضيت نحبك وانت تحدق الى الأفق كأن خيال اعوامك الذاهبة قد تراءى لك في الغيوم وفي السحب ، بل كأن نغمات ابنتيك وهما كل ميراثك في حياتك الطافحة بالألم والضنى والدمع عادت تقرع سمعك وتهز مشاعرك اي ملكي ! سأنقذ ابنتيك ، بلى سأنقذ ابنتيك معاً ! وسأرد اليهما دروعك التي لم يبخل قيصر علي بها فارادني على تسليمها لمارية حينما تبلغ ربيعها الثامن عشر . . .

فصاح عمرو :

ــ هل اعطاك قيصر دروع امريء القيس واسلحته ؟ . .

فأجابته ليلى قائلة :

ــ انظر الى هذه المنضدة . . الا ترى هذه الأسلحة وهذه الدروع فتقدم عمرو الى المنضدة وراح يتأمل في دروع امريء القيس وفي اسلحته ثم غيب رأسه في صدره وذرف دمعه ذرفانا اليما !

وتهافتت ليلى على هند تريق على وجهها الشاحب ذلك السائل الناعش الذي اراقته على وجه مارية فانتفضت الفتاة وعادت اليها الحياة فاذا هي تهمس :

ــ اختي مارية . . مارية . . مارية اين انت ؟

فخرق نداؤها الضعيف سمع مارية المتعبة المكدودة فصاحت :

ـ هند اختي . . .

وتضافر عمرو وليلى على انهاض هند فوثبت الى ناحية المهد ومارية لاتستطيع نهوضاً فانهضتها ثم مضت الأختان متعانقتين ، وظلتا كذلك متلازمتين لحظة مستطيلة ترسلان الآهات وترددان الزفرات :

وكانت هند تقول لمارية :

ـ اذن فقد كان دم ابي يجول في جسدك ؟

فكانت مارية تقول لها :

« الآن ادركت لماذا كانت عواطفي الجائشة في صدري تجذبني اليك فلقد احببتك في دمشق كاخت ثم احببتك في هذه البلاد الأجنبية التي قتلت ابانا كاخت . .

وجلست على حافة السرير وذراعاها مطوقتان اختها ثم طفقت تقص عليها قصة الماضي في دمشق وفي القسطنطينية فقالت لها هند :

ـ أكان اسم امك سيلفيا ؟

فقطعت ليلى حديثها قائلة :

ـ ان مارية ابنة ملك عظيم ، وحفيدة ملك عظيم : . . . وكان جدها يوستانيوس يحبها الحب كله ولكنه كان يخاف ان يلحقه العار اذا ذاع امرها فارادني على تربيتها في هذا البيت المنعزل فلما بلغت ربيعها الخامس عشر عهد الى الملك الحارث بن جبلة بحمايتها ثم ماتت امها سيلفيا الفتاة الناعمة بعد موت ابيك بقليل فكان من حقي ان اسهر عليها . فهذا الجمال الأخاذ الذي ترينه على وجه مارية انما هو مزيج من جمال ابيك العربي وجمال امها الروماني . .

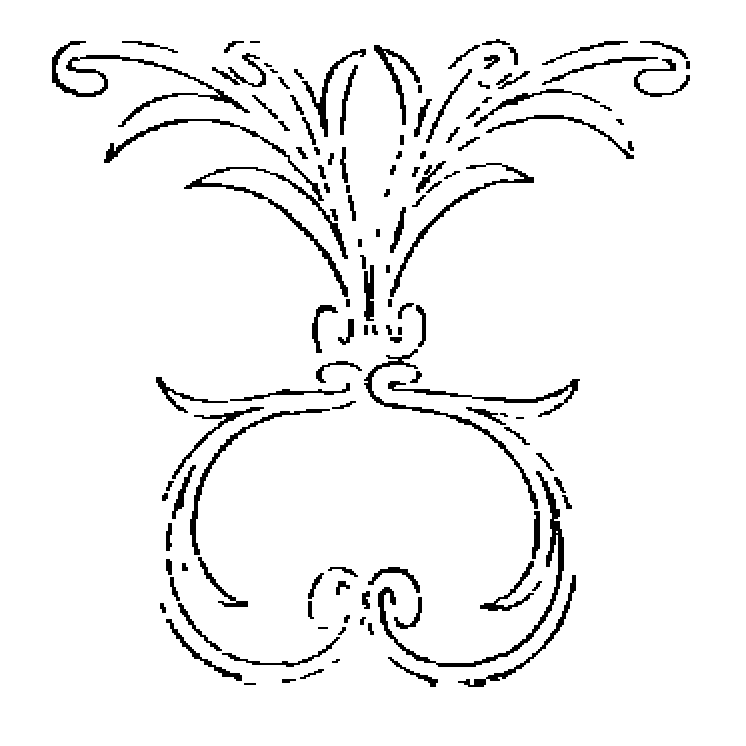
فنظرت هند الى مارية نظرات غائمة وقالت لها :

ـ اختاه اختاه اطبعي على جبيني قبلاتك الندية فان على شفتيك اثاراً مقدسة لقبلات ابي الذي اغمض عينيه وانا طفلة ساذجة تمنعني الوصول اليه جبال وبحار

وخلجان واودية .

وزالت في عيني مارية حملقة الخوف فارتدت فرحة قريرة ، ثم اذا بهـــا تدني فمها من فم هند وراحت الاختان غائبتين في لذاذة القبلات الحارة .

وكانت ليلى خلال هذا المشهد تبكي وعمرو يمسح دموعه المرسلة وانوار الشفق المصفرة تنتشر في الجبل وفي البحر وفي الوادي وفي كل ناحية من هذه النواحي التي تمثل روعة الشرق وجماله ؟.



الفصل الرابع عشر

المجد

مضت لحظات تذوقت الأختان خلالها جنى التقبل المعسولة والعناق اللذيذ ثم اذا هما تصطنعان الجد في السؤال عن ماضي ابيهما وعن حياته في بيزنطية وعن مصير دروعه واسلحته ولباسه فقامت العجوز الى دروع امريء القيس واسلحته فوضعتها عن كثب من الأختين وقالت لهما :

« لم يشأ بوستانيوس قبل موته ان تبقى هذه الدروع وهذه الأسلحة في يدي خلفه وابن اخيه يوستينوس فقال لي انه لا يمنع ورثة امريء القيس استرداد ودائع لها نفاستها وقدرها الرائع في عيون ذويه واهله ، ثم كاشفني بندمه على قتل ابيكما وقال ان تبعة هذا الموت الذريع لا تقع عليه وانمـــا هي تقع على تيودورا زوجه وحينما عرضت لقيصر وهو يحتضر في قصر الشالسيه صورة ابنته سيلفيـــا قال لي « لعل هذه البريئة غفرت لأبيها قبل موتها الا ليتها علمت اي الم احمله فيصدري ، بل ليتها علمت توبتي ..

ولما تطاغى النزع على نفسه راح يحدجني بعينيه الغائرتين وقال لي « بلى لقد ماتت سيلفيا ولكن ابنتها ما تزال في الاحياء فاذا قدر لك ان تتحدثي اليها عن امها وابيها وكان لا بد من ذكر اسمي امامها فليكن حديثك عني رقيقاً عذباً لا تخالطه روح البغض والسخيمة فاني لا اريد ان تنقل الى حفيدتي مارية صورة مشوهة يرسمها الحزن ويصبغ الوانها البغض .

وكانت الفتاتان تنظران الى تلك الدروع والأسلحة ناشجتين والهتين وقد اثرت فيهما قصص ليلى واحاديثها ولكن مارية كانت اقل اضطلاعاً بالآلام والأشجان من هند فتهافتت على السرير مصفرة ذابلة وراح صدرها يرتج ويخفق

واخذ يرتفع ويهبط تحت عاصفة من سعال عنيف اطفأ ذاكرتها واخمد احساسها فانتقلت نفسها من هذا العالم الذي تنيره شمس دافئة الى عالم آخر يغشاه برد اليم ، وكانت يداها مقرورتين كثلوج الجبال وقد اخذ فمها المفتوح ينفث دماً قانيــاً كان المرض يضغط عليه وهو حبيس في صدرها فتفجر .

لقد اثرت في نفسها الرقيقة قصة حياة ابيها وفي هذه القصة صور معتمة محزنة لم تستطع ان تنظر اليها ، ثم جاءت احاديث ليلى الساحرة عن جدها وامها فجددت شجونها واحزانها فعلمت انها ابنة الحب والقبل المعطرة وان اباها تقبل الموت من يدي احب الناس اليها فماتت امها بعد ذلك غماً والتياعا .

كانت هذه المآسي كافية لهدم نفسها التي خربها الألم ومزقها الداء . بل لقد كانت مزنة خفيفة من حزن كافية لتقويض هذه النفس التي غذتها الآلام والتباريح خلال عشر سنوات .

عاشت مارية في العــالم منفردة فلم تعرف اباً تفزع الى صدره وتبترد بظله ، ولا اماً تشكو لها هــذا الذي يحتويه قلبهــا وتجد في قبلاتها وبسماتها خيال الرجاء الحلو ، وكانت الأعوام تمر بها وهي تسأل نفسها « امن الممكن ان لا يكون لي والدان يهدهدان آلامي ! امن الممكن ان انشأ في هذا البحر الزاخر الذي يسمونه العالم وحيدة فريدة تلطمني امواجه وتغرقني لججه ، ثم لا اجد معاذاً اعوذ به في حين ان لهذه السوابح التي تحلق في الفضاء اوكاراً تفزع اليها بعد طواف اليم

ولما حسرت لها الساحرة بعد عشر سنوات عن ماضي حياتها ادركت ان اباها في الهالكين وعلمت ان امها التي تمثلت خيالها في احلامها الزاهية المتوردة في الهالكات . فروعها هذا الختام الذي انتهى اليه طوافها فاذا مرضها الهاجع يستفيق في صدرها واذا هي جسد يتضاعى من الألم على فراش استقبل طفولتهــا البريئة ضحوكا مفراحا .

التفت عمرو بن الحارث الى ليلى قائلا « لقد اردتك على الصمت حتى لا يقتل

الحزن هذه النفس الوالهة المدنفة فلم ترضي بمشيئي ؛ ولم تستمعي الي ؛ وابيت الا مواصلةالبحث فيدوارس الماضي وطلوله العافيه وانت تعلمين اية صور بشعة تحتويها هذه الدوارس ! كنت اخاف على مارية ان تتصل بماضي حياتها وكان مرضها مانعي وارادي عن البوح باسم ابيها واسم امها . فقد كنت ادرك ان مارية قد بلغت ربيعها الثامن عشر ولا بد لها وهي العليلة المدنفة من مفارح ومغابط تنسيها ولو الى اجل آلامها العنيفة ، وكنت لذلك اغذيها بالحب والفرح والرجاء حتى استطعت ان احملها على التعلق بالحياة فلما نعمت بعافيه واغتبطت بشباب اذا حديثك المباغت عن الماضي يقتل في نفسها العافيه والشباب . . .

ومسح عمرو عبرات عينيه فقالت له ليلى :

ـ في احدى العشيات المصحية القمراء وفدت على قصر تيودوس ، فالفيت امرأ القيس بن حجر وسيلفيا يتبذان في غابةالعصر مغنى ظليلا وقد تشاركا احساساً وتماثلا اهواء واخذا يتحدثان عن الحب وعن القبل المعطرة في غير مخافة وامامهما طفلة يداعبانها ويلهوان بالحديث عنها فلما ابصرني امرؤ القيس دالفة اليه اومأ بيده الى الطفلة وقال « ان مارية في حاجة الى من يرعاها ويحميها في الأيام المقبلة فكوني الراعية الساهرة . فلما سألته معنى هذا الذي يقوله اجابني : ان قيصر قد ولاني امر فلسطين وانا راحل اليها تاركا هذه الطفلة التي لاتستطيع سيلفيا ان تعيش معها في قصر الشالسيه حتى لاتثار شكوك ابيها فهل ترضين بحمايتها فاجبته قائلة رضيت ثم جلسا الى موهن من الليل يلهوان ويسمران وانهما لكذلك اذا قيصر يباغتهما في وكرهما وكان يصغي الى احاديثهما وراء اشجار الغابة فلما عرفاه راحا يرعشان وحاولا اخفاء الطفلة فما وجدا الى ذلك سبيلا فقال لهما قيصر محتدماً ثائراً ، لقد عرفت حبكما وعرفت اي حصاد جاء به هذا الحب ! ثم اخذ الطفلةبين ذراعيه فخشيت سيلفيا ان يفتك ابوها بابنتها فراحت جاثية على قدميه باكية ضارعة فرق لها والتاع لمشهدها فوارى عينيه بكفه حتى لا يشد هذه الصور البائسة التي

ارتسمت على وجهها وكان قيصر يحب ابنته سيلفيا حباً جما ولا بدع ان يحبها قيصر ويفتتن بها فلقد كانت سلوته الوحيدة في العالم .

لقد رأيت قيصر يتوارى وراء ظلال الاشجار متطامناً وادعاً كأنه لم يطلع على ذلك المشهد الحافز الذي عرض له في جنة القصر ثم فارق ذلك المغنى الجميل غير متبرم بالطفلة وبعد اسابيع علمت سيلفيا ان قيصر دعا اليه في قصر دافنة الصيفي امرأ القيس بن حجر فكادت تجن من الرعب والذعر ولكنها اطمأنت في المساء حينما رأت حبيبها يعود اليها قائلا « وداعاً يا أفقي المضيء فلقد ارادني قيصر على السفر الى فلسطين في صباح الغد لجئت اليك احمل في يدي قلبي المحطم فعلمت مارية ان أباها قد اراد ابعاد حبيبها عن بيزنطية فبكت بكاء مراً فكفكف امرؤ القيس عبراتها المرسلة ودعاها الى التؤدة والرفق وترك الأسى الذي لا يجدي ونصح لها ان تسهر على طفلتها وان تنقلها الى مكان منعزل لا يستطيع قيصر ان يصل اليه .

ثم فارقها بعد وداع حافل بالمشاهد المؤثرة وخرج يودع قيصر وزوجته تيودورا في الشالسيه فالبسه قيصر تاجاً وقلده سيفاً وقال له « لقد وليتك امر فلسطين فاحرص على حماية اطرافها من الفرس » ودعته تيودورا الى حجرتها وسقته خمراً في كأس من الذهب فشرب التعس وهو لا يدري ما تحتويه تلك الكأس. ثم فارق قصر الشالسيه تتنازعه عاطفتان عاطفة فرح عنيف بعثها في نفسه تفكيره في الرجوع الى بلاد العرب ، وعاطفة حزن عميق نشأت عن فراق ابنته وحبيبته وكنت في جملة الحاشية التي خرجت معه الى فلسطين فلما بلغنا انقرة من بلاد الروم ظهرت على امريء القيس اعراض مرض خبيث فلم يستطع مواصلة السفر فوقف وصحبه فوق قنة جبل والتفت الي بعد ان حسر عن صدره قائلا :

« انظري الى هذه القروح التي تملأ صدري ، انها تؤلمني كثيراً فهل لديك من العقاقير ما يخفف آلامها ؟..

واختنق صوته فلم يعد ينبس ثم رأيته يرمي بنفسه على العشب فوق قنة الجبل

وصدره لا يزال مكشوفاً تبين منه تلك القروح التي تبعث صديداً وقيحاً ودماً فاحماً فركعت عن كثب منه واخذت يديه فاذا هما مضطرمتان مشبوبتان وقد ظهرت عليهما قروح خبيثة كتلك التي يطفح بها صدره ولما حدقت اليه اذا هذه القروح ايضاً في جبينه ووجهه ..

روعني هذا المشهد الدامي فصحت : هذا هو السم يا مولاي فتصاعدت اناته وقال لي هامساً :

ـــ بلى هو السم ! لقد ادركت في هذه اللحظة لماذا كانت تيودورا تلح علي في المعاقرة . وادركت الآن معنى تلك النظرات الحائرة التي كان قيصر يرسلها الي وهو يريدني على السفر الى فلسطين . ثم سكت واغمض عينيه حتى لا يفتحهما بعد ذلك اليوم ولم يمت لأن الموت لم يشأ ان يلتهم فريسته الجميلة قبل ان يسرف في تشويه صورها الزاهية . ففقد امرؤ القيس ذلك النور المقدس الذي كان يتفجر من عينيه ولما صحت برجاله ان اميركم اصبح اعمى عقل الرعب السنتهم وراحوا ينظرون بعيون ذاهلة الى تمثال الألم الراقد على اعشاب الجبل .

وبعد قليل اهتزت تلك الجثة المضرجة بالوحل والدم والقيح اهتزازة عنيفة هي اهتزازة الموت . وارتفع من صدر ذلك النسر العظيم الذي حلق في سماء العرب انين شجي ففتح فمه ليتحدث الى صحبه بالحديث الأخير وكانت القلوب واجفة والعيون واكفة والأفهام حائرة والعقول ذاهلة ولكن ذلك التعس لم يستطع كلاماً فظل صامتاً كدمية من هذه الدمى التي تعرض لنا في الصحراء .

ثم فتح فمه نزلة اخرى وقال :

ـــ نعم لقد سقتني تيودورا السم ولكن قاتلي الحقيقي لم يكن قيصر ولا تيودورا وانما هو الطماح الأسدي الذي ما انفك منذ وصوله الى القسطنطينية يغري قيصر بقتلي : لقد قالت لي سيلفيا يوم جئت الى وداعها ان اباها كان يجهل لقاءاتنا الخفية ولكن الطماح الذي اقام مستخفياً بالقرب من قصر تيودوس والذي كان

مطلعاً على غرامنا مضى اليه في قصر الشالسيه وقال له ان امرأ القيس بن حجر غوي عاهر وهو يراسل ابنتك ويواصلها وقد قال في ذلك اشعاراً يشهرها بها في العرب فاحفظت احاديثه قيصر فمضى يترع كأسي ذعافا .

وسكت امرؤ القيس ثم صاح :

ــ اين هي ليلى ؟

فاقتربت منه واخذت رأسه في يدي وقلت له :

ــ مولاي ! تكلم .

فقال لي :

ــ فكري في ابنتي مارية : فكري في سيلفيا التي تركتها للحزن واليأس ثم فكري في الانتقام من قاتلي . وداعاً . وداعاً يا ارض وطني . . .

وكانت ظلال المساء الساجي منتشرة في كل ربض . وفي كل ناحية والهواء يهب بارداً صارداً في الجبل الرفيع الذرى . فأحس امرؤ القيس حاجته الى الابتعاد عن هذه النواحي هرباً من ذلك البرد اللاذع الذي البس مأساته لباساً قاتماً وطفق يصيح

ــ اي رفاقي امضوا بي الى السهل فان القر هنا وجيع اليم .

ولما وقفت ليلى الساحرة في حديثها عند هذا الحد طفق عمرو وهند ينظران اليها مروعين ذاهلين وكانت يد هند على صدرها كأن الفتاة التاعسة تريد حبس نشيجه ثم روعها سكوت ليلى فقالت لها :

ــ ثم ماذا ؟ هل مات ابي في ذلك الجبل الغائم ام نقله صحبه الى السهل ؟ .

فلم تجب ليلى ولكنها اكبت على مارية الراقدة الهاجعة وتفرست في وجهها ملياً ثم اراقت على جبينها قليلا من ذلك السائل الناعش فاهتزت الفتاة وفتحت عينيها وهمست قائلة :

ــ هند ! اختي هند اين انت ؟

فأثار صوتها العذب الحلو شعور هند فاقبلت الى ناحيتها صائحة :

ـــ مارية ! مارية ! .

ومضت ليلى في حديثها :

ـــ ارأيت ايها الامير كيف ان في قدرتي ان ارد الحياة الى مارية ؟

فقطعت هند عليها حديثها قائلة :

ـــ ولكنك لم تنجحي في احياء ابي بعد موته !

فهزت ليلى رأسها واجابت مستحيية :

ـــ كانت السموم تهاجم اباك من كل ناحية . فكان السيف الذي قلده اياه قيصر مسموماً وكان تاجه مسموماً وكان لباسه كذلك مسموماً . وبينما كان جسمه يتناثر تحت تأثير هذه السموم المتنوعة المختلفة اذا احشاؤه تتمزق تحت تأثير ذلك الرحيق الذي شربه على مائدة تيودورا فكيف تريدين مني ان انقذ حياته والموت يهاجمه في كل ناحية من نواحي جسده ...

ولما نزلنا به من الجبل نصبنا خيامنا عن كثب من السفوح . وكان صحيح العقل . رابط الجأش لا يحفل بهذه الآلام التي تمزق نفسه فدعا اليه رفاقه فاحدقوا به وجلس بعضهم امام فراشه في الخيمة . ثم دعاني اليه واجلسني في وسط اصحابه ورفاقه وقال لي بلهجة وادعة انيسة :

ـــ لقد قطعت كل صلة تربط حاضري بماضي ايامي ، فلست اسألك شيئاً عن الأمس واليوم . ولكني احب ان اسألك ايتها المرأة التي حباها الله الذكاء واشراق الذهن شيئاً عن الغد فليس شك في انك تعرفين كثيراً من خفايا الغد المجهول فقلت له

ـــ ولكنك في حاجة الى الراحة يا مولاي وليس في وسعك وهذه القروح تجتاح جسدك ان ترهق نفسك باسئلة عنيفة !

فابتسم وقال لي :

ـــ ان سكون الموت يغشي نفسي فما احس شيئاً من الوصب ، قولي لي اتعرفين شيئاً عن الغد ؟

وخيل الي انه يريد ان يسألني شيئاً عن المصير الذي صار اليه قومه آل آكل المرار بعد تلك الملاحم الكثيرة التي نشبت بين إمريء القيس والمنذر ملك العراق فلما سألته اذا كان يفكر في مصير ذويه هز رأسه وقال :

— اني لااسألك شيئاً من هذا ولكني اسألك عن مصير هؤلاء الذين يضغط عليهم الروم والفرس ؟

— ماذا تقول يامولاي ؟

فلم ينبس وغرق في لجة هاجس عميق ، حتى خيل الي انه لن يتكلم وكذلك صمت اصحابه ورفاقه وبعد قليل اهتز ذلك النسر العظيم الذي لم يمل الطواف في الآفاق البعيدة النائية تحت متون الرياح الهوجاء الصاخبة ورفع يده الي صائحاً :

— منذ عشرين سنة جئت سطيحاً في البلقاء وكان الموسم في البادية موسم شعر وخطابة والناس يتبارون في الأصغاء الى حديث سطيح عن نبي من العرب يخرج بقومه من عزلتهم الجافة الى البلدان الظليلة التي تخضع لقيصر ولكسرى فجلست عن كثب من سطيح تحت قبة من الادم والى جانبي شيخ جليل من آل جفنة هو جبلة الاكبر والد الملك الحارث وكان يأنس بسطيح ويستروح الى فصاحته ولا يمل احاديثه عن البادية وشعرائها وخطبائها . فتقدمت من شيخ غسان وسألته اذا كان سطيح يهزل في حديثه عن ذلك النبي فانتفض الشيخ لسوألي انتفاضة غريبة وراح يتأمل في ملامحي كأنه يريد ان يستوثق من جدي في حديثي وقال لي « احترس ان تشك في سطيح فأنه رجل يتحامى الكذب ولا يستسيغه ، ولقد بلوته وتعرفت الى احاديثه والى تأثيرها في الذين يفدون الى استماعها من كل فج عميق : فلم اره كاذبا ولا هازلا فسألته ان يصحبني الى قبة سطيح فما تردد ، وكنت تواقا الى الوقوف على خفايا المستقبل فبسطت يدي الى سطيح وقلت له اقرأ فراح محدقا الى يدي ، ثم رفع عينيه الي قائلا : « اري غيوماً تظلل افق حياتك ولكنك لاتستطيع افلاتا من بردها الأليم . . .

ولم يشأ الكاهن ان يستفيض في حديثه عن تلك الغيوم ولكنه قال لي سيضطرك عدوك الى هجرة قاسية لا تحمل الى نفسك شيئاً من الدعة وستموت في الاغتراب ميتة النسر الذي تدفعه الرياح السافيات الى التنقل في الأجواء الحارة والأجـوا الباردة ولكن المجد الذي تبحث عنه في الملاحم الحمراء لن يفوت حياتك العظيمة فروعني قوله ولكني تجلدت ورغبت في الأصغاء الى حديثه عن نبي العرب فقلت له

— لقد سمعتك تتحدث عن نبي عربي يخرج من جزيرة العرب ثم يرث هذه البلدان الظليلة التي تحتضر تحت ضغط الروم والفرس فهل لك ان تدلني على مكانه ؟

فهز يدي وقال لي متطامنا :

— ان زمن ظهور هذا النبي لم يعد بعيداً فهو يعيش الآن في تفكير الطبيعة وفي تأملاتها . في ينابيعها الهادرة . وجناتها الخادرة . في شفقها المضرج بارجوان . في فجرها الرائع الضحيان .

ثم رفع صوته صائحاً « ان رسالة هذا النبي ستمتد من الصحراء العريانة الى السهول الفينانة .

فقلت له :

— ممن هذا النبي ؟

فقال لي :

— من قريش سادة العرب

— اين يكون مولد هذا الرسول المرتقب ؟

فصاح سطيح صيحة عظيمة ردد صداها الفضاء ومضى قائلا :

— في مكة ذات القبب !..

لقد تعاقب الجديدان على نبؤة سطيح . فلم يفتني المجد الذي رافقني في كثير من الملاحم . وطاردني المنذر ملك العراق حتى اقسرني على الارتماء في احضان قيصر : فعشت في بلاد الروم تحت افق بارد مقرور . ثم حلقت كالنسر في هذا الافق الذي

تغشاه الرياح السافيات. فاتعبني الطواف ولم يستطع جناحاي التحليق بي في الأفق الغائم فانحدرت الى الارض هذا الانحدار الاليم وجاءت نهايتي صورة صحيحة للنهاية البشعة التي رسمها سطيح ولكني لا ادري وقد تحققت نبؤة الكاهن في الأمر الذي له علاقة بحياتي اذا كان حديثه عن ذلك النبي قد تحقق .

وهنا سكت امرؤ القيس ولكن يده ظلت تضغط على يدي وبعد قليل رفع صوته قائلا :

— ليلى ! ليلى ؛ تعلمت في البادية فن العرافة والسحر ووثق الناس بعلمك وتجاربك : فهل تعرفين شيئاً عن نبي يبعث جديداً في العرب ؟ وهل لديك علم بما قاله سطيح عن هذا النبي العربي الذي سيمشي بقومه الى حياة موثقة : والى مجد اكيد . .

حدثيني ايتها المرأة التي شاركتني في آلام المنفى ومسراته : حدثيني عن ذلك النبي الكبير فليس يجدد حياتي الناصلة غير الاصغاء الى نبرات صوتك حينما تتكلمين مختالة فخورة عن تلك البداية البارعة التي تحمل الى انحاء العالم البعيد ضجيج الحياة في جزيرة العرب .

وهنا سكت امرؤ القيس فأطرقت واجمة ورحت افكر في هذه الأسئلة التي القاها علي وانا لا أملك جواباً عليها وأخذ صحبه ورفاقه ينظرون الي مشدوهين حائرين لا يدرون معنى هذا الذي سمعوه من فمه فخيل الي انهم يشاطرونه رغبته وانهم يطلبون الي ان احسر لهم عن المستقبل .

فرفعت رأسي وقلت :

— من علامات ظهور هذا النبي الذي بشر سطيح بمولده ان ينتصر العرب على الأحباش ثم على الفرس والروم .

فهز امرؤ القيس يدي صائحاً :

— ثم ماذا ؟ ثم ماذا ؟

فواصلت حديثي قائلة :

« ثم يرث العرب العراق والشام ويزحفون الى اراضي الروم والفرس .

ـــ ثم ماذا ؟ ثم ماذا ؟

وكان الانفعال قد حبس لسانه فما استطاع ان يتكلم ولكن قلبه ظل يخفق خفقاناً عنيفاً فقام صحبه يدثرونه بدثار كثيف حتى لا يضني البرد جسمه التعب المكدود وأخذت في تلك اللحظة اريق على جبينه المكفهر سائلا كنت احمله في داخل جيبي فانتعش وتهلل وفتح فمه قائلا :

ـــ ثم ماذا ؟ ثم ماذا ؟

فصحت :

« ان هذا الزحف المجيد سيمتد ، وسيمتد كثيراً حتى يشمل عالمـــاً جديداً هو غير هذا العالم الذي نعيش فيه ، وسيخرج من جزيرة العرب ملوك يرثون خيرات الارض ، ثم يواصلون زحفهم الى البحار والخلجان والجبال والسهول ..

وهنا ابتسم امرؤ القيس وظهرت على وجهه المشوه صورة فتانة لرجاء عذب حلو ، ثم احتواه سكون فخم رائع وكانت اروع كلماته تلك التي رددتها جبال الروم .

ـــ اصبح في قدرتك ايتها الروح التي عاشت في الغيم الصارد ان تحلقي في افق تنيره شمس دافئة هي شمس الانتصار التي لا تغطيها السحب الوطفاء .

وكانت الكلمات تخرج من فمه سائغة عذبة لا يتخللها كثير او قليل من هذيان المحتضر ولغوه وظل جبينه الذي صوحه الألم مرتفعاً يغشاه كبر لم نعرفه في غير ابن حجر ، وفي تلك الفينة خيل الي ان عينيه الخامدتين تحدقان الى شيء لاح له من بعيد ؛ ثم رأيته يبسط يديه الى الامام كأنه ينزع الى لمس ذلك الشيء البعيد ففتح فمه هامساً :

« الا ترون الى هذه الرايات التي تغطي الأفق ... انها رايات صحراء العرب جاءت تستريح في ارض الرومان والفرس .

وهنا رق صوته رقة عظيمة نخيل الي ان ذلك الصوت العاصف المرنان الذي هز الكماة والذادة الى النصر في الملاحم والمعارك لن يرتفع بعد هذا اليوم ، وادركت ان الصداقة مهما كانت بريئة وصافية ستظل عاجزة عن ان ترد الى هـــذه النفس العاثرة املها الخائب ، ولما عدت الى التحديق في جراحاته، رأيت على وجهه المشوه ابتسامة ! اجل رأيت على وجه امريء القيس بن حجر واحزناه ابتسامة عذبة كأن طيفاً عزيزاً قد تمثل له في ساعة احتضاره ؟ رب ! امن الممكن ان يكون هذا الذي يطفو على عينيه المطفأتين خيال الماضي السعيد ، كلا لم يكن الماضي بروائعه الخالبة منشأ هذه الابتسامة التي ارعشت شفتي المحتضر وانما كان هنالك شيء اعذب من الماضي واجمل!

اخذت انظر الى وجهه المصوح المشوه فاذا تلك الابتسامة لا تفارقه ثم رأيته يمد يده الى ناحية بعيدة ! الى ناحية رسمها في ذهنه فلم ترها عيوننا وابصارنا ، ولا لامستها ايدينا ، ثم اخذ يتحدث الى ذلك الطيف الحبيب الذي عرض له في الناحية المجهولة البعيدة القصيـــة !

« لقد ظل ضوؤك يتراءى لي في المساء عند اشتداد الجونة ، وفي الصبح عند إئتلاق النهار ! وكان يعرض لي متلفعاً بثياب الحرب ! فيلذني اني اراه على مثال الكمي الغطريف فاناديه فيختفي كوميض البرق ! ثم الحق به فينأى عني . فاعود الى نفسي ، فاراهـــا عاجزة عن اللحاق به ، اواه لا تزال اشعتك المقدسة ايها الطيف المبجل مغريتي بالأمل والحيـــاة ، اقسم بتراب ابي وامي ، وهما كل ما احببت في مـاضي طفولتي . وفي رونق شبابي ، ان اشعتك المقدسة ستظل مـالئة عيني ، وان القبر مهما حجبني عن بهائك وفتونك لن تمنعني اصلاده ان اطل برأسي عليك لأراك في موكبك الرائع ! ايها المجد ، يامن تراءى لي حتى في احلامي الموجعـــات المضنيات انك لتجذبني الى اسفار بعيدة ، في مواطن لا استطيع ان اجد لها اسماً ! . . ناشدتك الله ايها المجد المجلبب ببهاء ثلاثين معركة ان تمنع اشعتك عني ، فان نفسي لا تقوى على سفر جديد وهي في حاجة الى الراحة والى الدعة ! بل ان قلبي الذي حبسته على هواك عاد

خلاء منك . وقد ماتت فيه خيالاتك وطيوفك ! وخبت في نواحيه انوارك واشعتك وهذه ذكرياتك الماجدة قد حالت كلها في قلبي الى رماد لا يبين منه غير قبس شاحب كليل ، واحزاناه اذ سأمر على بقاياك الأخيرة من غير ان تأخذني عليها لوعة او روعة ، وسأبتسم حينما يحتويني القبر لجدي العاثر ! وارثي لجناحي المهيض ! واتحسر على شباب ذوى وهو يشعر بالخجل من موته في ارض اجنبية مجهولا حتى من العصر الذي ولد فيه ! . . .

وداعاً وداعاً ايتها الرايات المنشورة . والابواق العازفة ، والطبول الخافقة ، وداعاً وداعاً يا اغاني العطرات وداعاً ايتها القصائد التي كنت اتلوها على الجبان الرعديد فيعود اغزر مني مروءة واربط جأشاً ! وداعاً وداعاً ايتها التعاسة التي رافقتني الى خاتمة المطاف ولكنها لم تستطع ان تنزع مني شممي وكبريائي ! . . . »

ورفع صوته قليلا ليهمس باسم احبائه فقال :

ـ هند ! مارية ! سيلفيا ! جزيرة العرب .

وكانت هذه الأسماء التي رددها اجمل اشعاره التي املاها الموت عليه وفي المساء دفن الملك التعس في سفح جبل تظلله اشجار البلوط وفي اليوم التالي عاد صحبه الى بلاد العرب حاملين الى كندة نبأ هذا الموت الحافز وعدت انا الى القسطنطينية لأنفذ ارادة القتيل المقدسة .

وعلى الأعوام نسي الناس حتى قيصر مأساة امرىء القيس الذي احتضنته جبال لا يتراءى فيها خيال وطنه : فلم يعد له من ذاكر غيري ؛ ولا يفتأ طيفه المضرج بالدماء يطالعني في الحلم وفي اليقظة بل ان كلماته لا تنفك ترعد مجلجلة في اذني . . .

حملت الى سيلفيا نبأ هذا الموت ؛ وهي الفتاة الرقيقة الرحيمة فروعها واشجاها وكانت التعسة قد عادت الى قصر الشالسيه لتقضي بقية عيشها غير بعيدة عن مهدها الأول فلم يشأ ابوها ان يسلبها تلك الطفلة اليتيمة فلما انتهيت من سرد قصة ذلك الموت الشجي راحت سيلفيا مغتمة وكانت مريضة عليلة لا تقوى على مغالبة هذه

الكارثة التي جاءت تقوض بنيان عافيتها فمدت الي يداً ترتجف وقالت لي لن يطلع علي الصبح وانا في الأحياء ؛ وكانت صادقة في هذه النبوءة فلما وافيتها غداة اليوم التالي رأيت في حجرتها قيصر وزوجه تيودورا والوصائف وبعض رجال الدين وقد شرع هؤلاء يصلون صلاة الموت ثم رأيت قيصر وزوجه راكعين حيال سرير سيلفيا وقد لاحت لها خيالا ضاوياً هزيلا تحت انوار الشموع فجعلا يبكيان فبكيت لهذا المشهد ومضيت انظر الى سيلفيا لعلها تفطن الى وجودي في الحجرة ، فكان لي هذا الذي املته : فقد جعلت سيلفيا تنظر الى رجال الدين الذين ازدحموا حولها كأنها تجد عزاء لطيفاً في صلواتهم فوقعت نظراتها الذاهلة الذائبة علي فهمست قائلة

— أأنت هنا ؟

ولم تكن قد تكلمت قبل وصولي الى حجرتها فأشرق جبين يوستانيوس وخيل اليه ان ابنته استردت عافيتها وان الموت نأى عنها فلن يطرقها بعد هذا اليوم فشرع ينظر الي نظرة الرجل الذي اشفى على الغرق وهو يقتحم التيار فلما بدا له الشاطيء عاد مفراحاً طروباً ثم افسح لي الطريق حتى اشرفت على سرير الهالكة فقلت لها :

— تشجعي يا مولاتي فليس يدفع الموت عنك غير لياذك بالشجاعة .

فحدجتني بعينين غائمتين رأيت فيهما صورة الموت المعتمة وقالت لي :

— سنتلاقى بعد فراق . ان روحينا تجتمعان في العالم الآخر : في العالم الذي يموت فيه البغض والثأر اصغي الى هدير الأمواج التي تلطم الصخور في البوسفور انها تفصل بين الشرق الذي مات فيه حبيبي وبين الغرب الذي سأموت فيه ولكنها ستظل عاجزة عن ترويع الحب الذي خلق احلامنا اللذيذه .

لقد تركني حبيبي ليعيش في جنات آسية الزاهية الخضلة وليفتح عينيه على يقظة طروبة سارة هي وليدة الأحلام الحالية بالسكون والدعة . فطفقت انتظر معاده وانا جالسة في حجرتي المطلة على البحر راجية لهاتين الضفتين النافرتين عناقاً لذيذاً فلم يتحقق هذا الرجاء العذب وظلت الضفتان بعيدتين نافرتين ولكن احلامي

وهواجسي لقيت احلامه وهواجسه في عالم الحب...

ولم تستطع سيلفيا ان تنافح هذه التيارات العظيمة التي اخذت تغرق نفسها فأغمضت عينيها ولكنها ظلت ترسل الكلام متقطعاً مهمشاً وقيصر ينظر اليها نظرة الواله الملتاع .

ولما جثوت حيال سريرها خيل الى قيصر انني قادرة على احيائها فقال لي راجيا

ــ الا تستطيعين ان تدرأي الموت عنها؟

فاطرقت واجمة وقد شعرت بحرج موقفي وخيل الي ان قيصر لا يهزل في حديثه وانه يريد ارادة اكيدة ان لا يقرض الموت هذه الزهرة العابقة ولكن صوت سيلفيا انقذني من هذه الحيرة فاذا تلك الفتاة التي ضحكت في الماضي للحب وللقبل المعطرة المتأرجة تهمس كأنها في حلم .

« ليلى ... ليلى اسهري على البنت سهرك على الأب والأم ثم رفعت صوتها قائلة

« ايها الحب عد الى غاباتك الوارفة فان الحبيبين اللذين وجدا في جناحيك

« ذلك المغنى الوديع قد عادا اليك جديدين في شبابهما جديدين في احلامهما ...

« انهما يمشيان في تلك الطريق المفضية الى غاباتك فافتح ذراعيك لهما راتقبل قبلاتهما

« الأخـــيرة ! ؟ »

وقضت نحبها في هدأة الغروب بينما امواج البحر المغتلمة تلطم صخور الشاطيء وبينما الودق المنهمر يسقي السهول والأعشاب والجبال الخضراء .

وهنا انقطع صوت ليلى ولم تعد تتكلم ولكنها تهافتت على مارية وهند تضمهما الى صدرها الراعش ومارية سادرة حائرة لاتبدي ولا تعيد وقد اغرقها المرض في ذهول عميق منعها حتى التفكير في هذه القصة المؤثرة التي جاءت ليلى تقصها عليها وعلى هنـــد !

وظلت الأختان امداً طويلا بين ذراعي الساحرة وعمرو بن الحارث يتفحص دروع امريء القيس واسلحته وبعد قليل اقصت ليلى الفتاتين عن صدرها وتحفزت

للخروج من الغرفة ففطنت هند الى حركتها فقالت لها :

— الى اين ؟

فنظرت ليلى اليها وقالت لها :

— الى قصر الشالسيه .

فشخص عمرو الى ناحيتها وقد رابه ذهابها في مثل هذه اللحظة الى قصر الشالسيه فسألها قائلا :

— اتذهبين الى لقاء قيصر ؟

— نعم .

— وماذا تفعلين هنالك ؟

— اسعى الى انقاذ الملك المنذر .

فبهت عمرو لحديثها وسألها قائلا :

— ولكنك تهزلين في حديثك فليس ثمة خطر يتهدد المنذر . .

فهزت رأسها ومضت قائلة :

— اذا فكرت في كارثة امريء القيس جيدا بدا لك حديثي بعيداً عن الهزل

فوثب عمرو وراح يهز يديها قائلا :

— لعلك تعرفين اشياء لانعرفها نحن ؟ تكلمي . .

ثم تركها ليقف على باب الحجرة كأنه يريد ان يمنعها الخروج فضحكت وقالت له

— اذا منعتني الخروج الليلة فلا يعود في وسعك ان تنقذ حياة سيد غسان . . دعني يامولاي انطلق في سبيلي ، دعني اخلص اولا هذا الملك الشريف الذي كان احب البنين الى الحارث بن جبلة ثم اصنع بي بعد ذلك ماتشاء . .

— لقد سألتك اذا كنت تعلمين اشياء لانعلمها نحن فلم تذكري كثيراً او قليلا مما تعلمين .

— ان هؤلاء الرومان الذين لم يخجلوا من قتل امريء القيس بن حجر وهو ضيفهم

الـكبير لا تستحي نفوسهم من وضع السم في كأس الملك المنذر وهو عدوهم ، دعني يامولاي انطلق في سبيـــلي ! ؟

ــ لماذا تترددين في البوح بالسر الذي يحمله صدرك ؟ . .

ــ ليس في صدري سر كما تتوهم ولـكن هنالك حقيقة لاتجهلها انت ولا يجهلها صغير او كبير في غسان فان هؤلاء الرومان الذين وثق بهم بعض اجدادك قد ارادتهم الطبيعة اعداء للعرب ، كما ارادت هذه المدينة الماكرة الماجنة طريقاً لعالمين يتناظران ويتكارهان . انا لا ادري لمـاذا تطرح علي هذه الأسئلة الغامضة وانت تعلم ما تجنه قلوب الرومان . . مولاي يكفي ان تنظر الى هذين الشاطئين المتعـــارضين اللذين لايجتمعان ولا يلتقيان حتى تدرك روعة الحقد الذي يجيش في صدور الرومان والآن دعني انصرف فلقد قمت بنذري لامرىء القيس بن حجر في اعادتي دروعـه واسلحته الى ابنتيه وفي ضم مارية الى هند فبقي علي ان امنع حدوث كارثة جديدة قد يفضي وقوعها الى انهيار صرح الأسرة العربية .

فأطرق عمرو يفكر وجعلت مارية وهند تتساءلان عن معنى هذه الاحاجي في غير جدواء ثم رفع عمرو رأسه وقال للساحرة .

اذن الحق بك ..

ــ افضل يا مولاي ان تبقى في مكانك ، او ترجع الى قصر تيودوس فان ظهورك الى جانبي يفسد علي تدابيري وخططي . .

ثم همست في اذنه قائلة :

« ان مارية مشرفة على موت قريب فليس من المروءة ان تتخلى عنها بينما هي في حاجة الى الأحبة الذين يرافقونها الى مقر راحتها الـكبرى ، اسامع انت ؟

فاضطرب عمرو وقال لها :

ــ اصادقة انت ؟

ــ لماذا تشك في حديثي ؟.. اليس مرض البنت صورة لمرض الأم ؟

ثم تعملت الضحك والتفتت الى مارية وهند قائلة :

ــ الى الغد . . . الى الغد القريب . .

قالت ذلك ثم ضربت بعصاها ارض الحجرة فأفسح عمرو الطريق امامهـــا فخرجت وهي تصيح :

ــ يا لثأرات امريء القيس ، يا لثأرات امريء القيس .

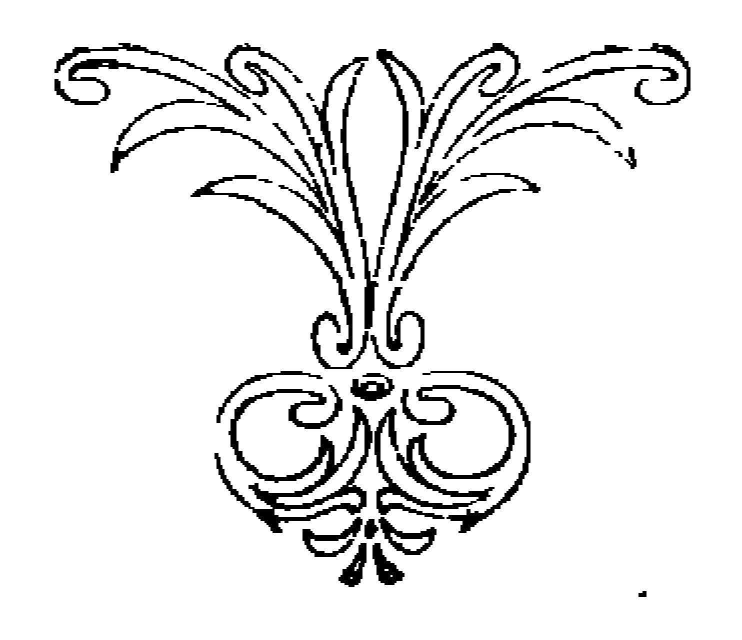
وعاد عمرو الى هند ومارية فالفاهما راعشتين راجفتين وهما تنظران الى الباب الذي خرجت منه الساحرة .

وكان البحر في الخارج ثائراً صاخباً والليل ينشر ذوائبه الفـــاحمة على البيت المنعزل ، فلما دنت ليلى من الشاطيء استقبلها حنظلة زعيم العشرة بتحية كندة فقالت له بصوت اجش .

ــ الى قصر الشالسيه ايها الغطريف حنظلة

ــ لبيك ! لبيك .

ثم تحركت الزوراق تحت الفحمة الراعبة .؟



ألفصل الخامس عشر

في ساحة ايبودر و م

غص ميدان اوغستون على رحبه وامتداده بالجموع الزاخرة واخذت طوائف من طلاب الجامعات تتهافت عليه من جميع النواحي ، من ناحية الميزه ، ومن ناحية ميدان قسطنطين. ثم انحدر هذا السيل العرم الى ساحة ايبودروم ليلهو ويسمع ضحكه وهتافه هذا العالم الذي يميد من ظلم الرومان في الشرق والغرب !

وفي خفة البرق انتشرت هذه الجموع في نواحي الملعب وراح الطلاب يملأون المقاصير والغرف والمنابر وتسلق فريق من الناس العمد والأقواس وعاذ فريق بعمود الأفاعي فركبوا غاربه وطفق الطلاب يهتفون ويصفقون ويغنون.

وبعد لحظات غشي الصمت هذه الزواخر ، فانثنت العيون الى نواحي الشالسيه حيث الأروقة تطل على الملعب. وامل الناس ان يفتح الباب الذهبي ، فيخرج قيصر وحاشيته الى الملعب . ولكن شيئاً من هذا لم يحدث . فظلت مقصورة يوستينوس في الملعب عارية من بهاء قيصر . وبهاء حاشيته !

ولما فني صبر الناس ، وذهب جلدهم قال هونوريوس الطالب في جامعة الفنون الجميلة لرفاقه « ما اجدرنا ايها الرفاق بالمضي الى الشالسيه لنوقظ قيصر من سباته ، ونسمعه اصواتنا فيأذن بافتتاح المعاهد التي اغلقها عمه يوستانيوس في اثينا (١) وفي نيسه ! بل لعل قيصر لايمنع الناس من دراسة هوميروس وسفوكول ؛ فقال انتيباس الطالب في معهد الحقوق « ملت نفوسنا دراسة اللاهوت . وصدفت اذواقنا عن التحليق في عالم مملوء بالأشباح والصور الذاهلة الجامدة ! فاولى لنا ثم اولى لنا ان نفتح عيوننا على ضياء يونان القديمة، فأنها وحدها تستطيع ان تبعدنا عن هذه السدفة المخوفة!

---

(١) التاريخ العام لأرنست لافيس وارمان رامبو .

ورفع اركاديوس الطالب في معهد الآداب صوته وهو يومض بيده الى صرح المعهد الماثل وراء قصر مجلس الشيوخ ثم اردف :

لقد كانت هذه الساحات مملوءة بانصاب الشعراء والحكماء والفلاسفة، فعادت مملوءة بتماثيل البطاركة والقياصرة ! ولماذا ؟ ذلك لأن الفلاح السلافي الذي اسمته امه يوم ولد اوبرافادا (١) والذي اسمى نفسه يوستانيوس قد منع الناس ان يزينوا ساحات بيوتهم وقصورهم بتماثيل ترمز الى ماضي ابائنا ، ولكنه ارادهم على رفع الانصاب والتماثيل للبطاركة وللرسل ! . . . لهف نفسي الا يكون لهوميروس هذا الشاعر الذي احببته نصب من المرمر في قاعة مجلس الشيوخ او في معبد اياصوفيا . . .

ان كثيرين من فلاسفة اليونان في الاسكندرية واثينا قد عاذوا بكسرى عدونا الألد فراراً من الاضطهاد والظلم فخلت منهم معاهد الفنون واقفرت صروح العلم. وكان الموت ايها الرفاق الأحبة نصيب الذين رفضوا ان يفارقوا مقاعدهم في جامعتي اثينا والأسكندرية

وهنا تطاغى الحزن على نفس اركاديوس فوصف امام رفاقه الطلاب مصرع ذلك الفيلسوف هيپاتسي وكان ذلك في ليلة طخياء ، وقد خرج نابغة الأغريق من منزله الى الشوارع فرمتـــه تيودورا بالغوغاء فمزقوه شر ممزق (٢) وعرضوا جثته في هذا الملعب ! . . وكان الرجل في حياته شرف جامعة الاسكندرية ، ومجد اثينا .

ولما سكت الخطيب ليمسح عبرة ترقرت على وجنتيه صاح صائح في الجماهير !

ان الجوع قد امض الشعب فينبغي لقيصر ان لا يمنعـــه صبابته من الخبز وما يضير قيصر لو انه باع نفائسه وروائعه ليطعم الناس ! ايها الرفاق ان خمسة وعشرين عاماً من عمر الانسان لاتكفي لحمله على نسيان ماضيه والالم يوقظ الألم ،

---

(١) لم يكن جوستنيان او يوستانيوس يونانيا ، بل كان فلاحاً سلافيا من مقاطعة ايليريا وكان اسمه الأصلي اوبرافادا وقد ظل حريصاً على هذا الأسم حتى تنزل له عمه جوستين الأول عن الملك فدعى نفسه يوستانيوس تشبهاً بقياصرة روما.

(٢) التاريخ العام لارنست لافيس وارمان رامبو ج ١ ص ١٧٤

فقد ظلم انستـــاس قيصر الشعب وحبس عنه الخبز فمـــا هي ليلة حتى طفر المضطهدون من بيوتهم الى السوح والميادين ، فاشعلوا النار في قصر بروكوميس حاكم المدينة،ثم تقدموا الى اياصوفيا يريدون انتزاع نفائسهافارادهم الجندعلى الرجوع فصمدوا للجندواحرقواالكنيسة(١)وارتدواموقرين باللآلي،والذهب والفضة(٢) ثم مضى الشعب الى ساحة ايبودروم . نعم الى هذه الساحة لينعم بملاذه واهوائه .

لما وقف الخطيب عند هذا الحد من خطبته صاح الناس :

ــ كان الله لأمك ايها الشريف هراقليوس .

وفي تلك الأثناء اخترق الملعب الشاعر كوريسبيوس فأخذته العيون فأومض بيده ان اسكتوا . فغشي الصمت الجميع ، ثم صعد الشاعر المنبر ودعا الشعب الى الرفق والتؤدة وقال ان يوستينوس رجل طيب القلب رقيق الحاشية . وهو الى ذلك شديد العطف على رجال الفنون ، ثم قال لهم « منذ عشر سنوات . وكان ذلك في اليوم الأول من ارتقاء قيصر العرش خرجت النساء من بيوتهن وجئن الى هذا الملعب وقيصر يومئذ في مقصورته . فما ان ابصرهن باكيات جازعات حتى امتنع عن اللهو وقال لهن ما خطبكن يا نساء الرومان فقلن له « ان في ديماميس القسطنطينية وسجونها رجالا لنا عزلهم يوستانيوس عن العالم فهل لك ان تخرجهم فينطلق الزوج الى زوجته ، والأب الى ولده فرق قيصر لهن وسرح بعولتهن واولادهن (٣) .

فقال هوراتيوس الطالب في جامعة الفنون :

« امستطيع انت يا كوريسبيوس ان تحمل قيصر على الرضى بما نريد ؟ ايستطيع قيصر ان يترك ولو لحظة واحدة هذه الحياة التي يمضيها في الكنائس والبيع ليسمع صوت يونان القديمة !.. فقال كوريسبيوس :

ان الهتاف لقيصر في ساحة ايبودروم لا تستطيع جدران الشالسيه ان تمنع تدفقه الى سمع يوستينوس . فاهتفوا معي بحياته وانا الكفيل بايراق هذه الأماني

---

(١)و(٢) التاريخ العام لأرنست لا نيس وارمان رامبو ج ١ ص ١٩٣

التي تحملونها في صدوركم . ايها الرفاق يا اصحاب هوميروس واصدقاء سفوكول وحراس ارثنا من الماضي ان اعداءنا القدماء قد اطمأنوا الى موت يوستانيوس وتيودورا وبلزاريوس فعادوا الى الثورة في اسبانيا وروما ودلماسيا وانطاكية ونصيبين ووادي الفرات! فهل يرضيكم ان تنقلبوا جنوداً في صفوف العدو، وانتم جنود الرومان

فقال اركاديوس :

لقد رضينا بما قسمت ، فلنهتف لقيصر على ان يهتف قيصر لنا . . .

وكانت لحظة قصيرة كافية لاحداث تبدل عظيم في نفوس الجماهير فارتفعت الأصوات بالدعاء ليوستينوس. وحمل الهواء هذه الأصوات المتحمسة الى مقاصير الشالسيه وكان قيصر في هذا الصباح المصحي مجتمعاً الى الملك المنذر الغساني في قاعة الحب (١) فخرج الى السطح المطل على ابيودروم وحيا الشعب الروماني بصوت ضعيف راعش ووجه شديد الصفرة وكان الملك المنذر عن يمين قيصر فلما ابصره الشعب مضى في الهتاف لملك الشام

وفي تلك الأثناء انحى الشاعر كوريسيبوس ناحية الشالسيه فاخترق الاروقة والممرات الرخامية . ولحق به هونوريوس واركاديوس وانتيباس وهوراتيوس، وظل الشعب مجتمعاً في ابيودروم وفي الميادين المؤدية الى قصر مجلس الشيوخ ومعبد أياصوفيا وكانت اناشيد كوريسيبوس التي نظمها في مدح قيصر تخرج من الأفواه حلوة ندية كنسمات هذا الصباح الرائق . .

وبعد قليل خرج قيصر من قصر الشالسيه الى مجلس الشيوخ في موكب فخم رائع فاجتاز اروقة المجلس تحت عاصفة من الهتاف .

كانت سلطة مجلس الشيوخ تتناول الجرائم والمؤامرات السياسية وكان رجاله ينتخبون من صفوف النبلاء والأشراف وكان للمجلس حق في انتخاب الامبراطور وانتخاب البطاركة، بل لقد كان له فوق هذه الحقوق التي ينعم بها سلطان كبير على امور الدنيا وامور الدين، ففي قدرته ان يسقط الامبراطور، وان يعزل البطريرك وان يقرر الحرب والهدنة

---

(١) شارل دوهل في كتابه « القسطنطينية »

ولم يكن في الامبراطورية البيزنطية من ينازعه الامر والسلطان غير مجلس الاشراف والنبلاء. فمن حق هذا المجلس ان يعبث بارادة مجلس الشيوخ او يحترمها

ولما دخل يوستينوس القصر كان شيوخ بيزنطية مجتمعين تحت القبة الكبرى، فتحدث اليهم قيصر عن غايات الشعب وتكلم على الخطر الذي يحدق بالبلاد من جراء الثورات القائمة في ايطاليا واسبانيا ودلماسيا والشرق فرفض الشيوخ اخلاء سبيل فلاسفة اثينا والاسكندرية وابوا ان يدرس هوميروس وسفوكول في الجامعات ولكنهم وافقوا على قمع الثورات بشدة وعهدوا بقيادة الجيش الروماني الى طيباريوس قسطنطين (١) رئيس الحرس.

وفي المساء علق على باب قصر مجلس الشيوخ امر قيصري بمنع دراسة هوميروس وسفوكول واريستوفان وسقراط وافلاطون واشار الأمر القيصري الى تجدد المنازعات والمعارك في آسية واوربة، فلم ترق هذه الاوامر الشعب البيزنطي فتفرق في الشوارع صاخباً لاعناً

ولما عاد قيصر الى الشالسيه استقبلته زوجه الامبراطورة ايدوكسيا بين ذراعيها وقالت له تذكر يا مولاي ما قالته تيودورا لعمك يوستانيوس حينما اراد الشعب الروماني ان يخلعه ويولي هيباتيوس في مكانه. نعم تذكر يا مولاي كلمات تيودورا حينما احدق الشعب الثائر بالشالسيه وايبودروم. فقد دب الوهن الى نفس يوستانيوس واخذ ينزع الى مسايرة الشعب. فالتفتت تيودورا اليه وهو يحاول ان يهرب على زورق وقالت له « لقد قال شاعر اغريقي ان العرش اجمل قبور الملوك » (٢) فانتبه عمك الى غلطته فتجلد ولم يجبن. وفي اليوم الثاني ردت جيوش بلزاريوس جموع الثائرين (٣) افلا تفعل انت ما فعله يوستانيوس؟ وكان قيصر ضعيفاً وشديد الورع فأثرت كلمات زوجه في نفسه فقال لها:

— لقد رضيت بالعرش قبرا ...

---

(١) و (٢) و (٣) التاريخ العام لأرنست لافيس وارمان رامبو ج١ ص١٧٧

الفصل السادس عشر

قيصر والمنذر

اشتهر قصر الشالسيه باروقته المذهبة، واعمدته الملونة، وافنيته الحالية بالانصاب والتماثيل، ثم بهذه الفسيفساء الخاطفة على قبابه وحناياه واقواسه، ثم بهذه الغرف الفيح التي امتزج غابرها بغابر الفن الاغريقي الخالد، وامتع هذه الغرف مشهداوادعاها الى سحر وفتون، واشدها اثارة لشعور الشاعر، وعبقرية الناثر، هي هذه الغرفة المعروفة بغرفة اللآلىء القائمة قبتها الملونة بالفسيفساء على عمد باسقة من البرفير، ثم قاعة الحب، ثم قاعة اللقاءات الخفية، ولقد بنى القياصرة هذه الغرف، ارضاء لميولهم الى العزلة ومساوقة لنزعاتهم في الابتعاد عن ضجيج الحياة ومكاره السياسة.

لما هبط المنذر ملك الشام القسطنطينية وتفرقت حاشيته وصحبه في قصر تيودوس الرفيع المنار اراد يوستينوس الثاني ملك غسان على البقاء في الشالسيه، عن كثب منه، وجعل مقامه في غرفة الحب، المتصلة بقاعة اللآلىء مثوى وحدة قيصر ومكان انقطاعه! وقد لبث المنذر في الشالسيه خلال اسبوعين من غير ان يتصل بعمرو، او بواحد من رجال حاشيته، فالتاع من هذه العزلة التي اراده قيصر عليها، وساورته في شأنها ظنون وريب وراح قلبه مفعما بهواجس مرة ضاق صدره عن حملها فسأل قيصر اكثر من مرة ان يأذن له بالمضي الى قصر تيودوس فما سمع قيصر له حديثاً، بل لقد اصر على ان يظل المنذر في القصر وسأله ان لا يفاتحه كرة اخرى في موضوع لا يروقه ولا يحبه فلم تبدر من الملك الشآمي بادرة تنم عن السأم، ولكنه اخذ يفكر في وسيلة يستميل بها قيصر الى قضاء لبانته في اللحاق بحاشيته وذويه!

وكان قيصر نزاعا الى كل ماله صلة بالدين ، وكان كذلك جم الوساوس ، كثير الريب ؛ شديد الخوف من المنذر ومن طمحات نفسه ، وهو بعد لم ينس ثورة المنذر عليه وصموده لجيش الرومان في البلقاء وحوران وعلى ابواب دمشق !

وعلى الايام اشتدت وساوس قيصر ، وتطاغت هواجسه نخيل اليه ان في وسع المنذر ان يعود الى الشام فيقتحم حصون الرومان ويوغل فتحاً في البلاد التي يطمع في اخضاعها لسلطانه ، واشتدت هذه الوساوس حينما قام البرابرة في افريقية والقوط في اسبانيا ، والبنادقة في ايطاليا للانتقاض على عماله فتغيرت طباعه اللينة الهادئة نحال الى ذئب ولما اجتمع طلاب الجامعات قبل ايام في ساحة ايبودروم ليرغموه على فتح مدارس اثينا والاسكندرية التي اغلقها عمه يوستانيوس اصبح كل شيء في العالم مخيفاً في نظره وباتت الاشياء الحقيرة التي تعرض لها مغريته بخوف شديد حتى لقد راح يظن الهواء ثائراً عليه وحتى خيل اليه ان صدى تكسر الأمواج على جوانب الشالسيه في بحر مرمرا العبوس المكفهر عاد يحمل اليه هتاف الثائرين وضجيج المتآمرين !

ولم تفت المنذر هذه الوساوس الطارئة ، نخشي طغيانها على نفس قيصر ، فيصيبه من امرها مالا يحبه ولا يتطامن اليه . وكان يفكر في الهرب من القصر ! فما استطاع الى ذلك سبيلا لأن قيصر الممسوس قد احاطه بالجواسيس والعيون وفي بعض الأحايين كان المنذر ينزع الى القاء نفسه من نافذه غرفته المطلة على البحر فيثنيه عن ذلك ارتفاع النافذة ، ويرده عن المضي في ارادته أن الشاطيء بعيد قصي !

وفي ذات مساء احس المنذر سأماً شديداً من هذه العزله التي اقسر عليها فعاذ بغرفته وعاد الى النافذة المطلة على البحر وقد ازمع ان يرمي بنفسه الى اللجج فيسبح مااستطاع ان يسبح حتى يصل الى اقرب ساحل ، وانه لكذلك يهم بالقاء نفسه اذ طافت عيناه بزورق جاء في تلك الفينة يرسو حيال الشالسيه نخفق قلبه وكاد يتحدث الى بحارته الذين اخذوا في تلك اللحظة ينظرون الى اسوار القصر

الغليظة والى ابراجه الباسقة فثناه عن عمله صوت اجش تصاعد الى اذنيه من الزورق فاصغى اصغاء شديداً فاذا قائل يقول . . .

— لقد اتينا لأنقاذك يامولاي !

هز هذا الصوت الرقيق الحلو المنذرالى ماضيات ايامه . فخيل اليه انه يعرف صاحب هذا الصوت ! ولكن ايغاله في خربات الماضي واطلاله لم يحسر له عن هذه الغيوم العالقة بذاكرته فظل امر هذا الصوت الذي انصت اليه خفياً مجهولا

ولما حاول الابتعاد عن الشرفة اذا ذلك الصوت الذي خرق سمعه يقول :

— يلوح لي انك لم تعرفني يامولاي ! فانا هي ليلى الكندية !

فشحب وجهه شحوبة ائمة وفي خفة البرق راح يذكر تلك المرأة المتلفعة بالسواد وقد كانت عن كثب منه في اياصوفيا فانحسر الماضي امامه في اقل من القليل فذكر الساحرة وتمثل كارثة امريء القيس بن حجر فارتد الى النافذة صائحاً :

— ليلى ! ليلى ! . .

فقالت ليلى وهي في الزورق !

— حذار ان تقفز من النافذة يامولاي فانك ان فعلت ذلك حملت نفسك على موت فظيع ! . . .

فقال المنذر :

— ولكنني هنا في خطر . . . فصاحت ليلى ! . .

— اعلم ذلك ! وسانقذك في هذا الليل . . .

وبينا المنذر على الشرفة اذا صوت قيصر يلعلع في الرواق المجاور فصدف عن مكانه مخافة ان يباغته قيصر فيذيع امره ويكشف سره وفي تلك الأثناء دخل قيصر الى قاعة الحب وهو يرعد كالذئب فاخاف مشهده المنذر ولكنه تجلد فقال له قيصر

— لقد خنتني ! . . .

— انا ؟ . .

— نعم انت ، ومن قبل خان ابوك الحارث بن جبلة عمي يوستانيوس !

— سيدي ! . . .

— افلم يرفض ابوك اصراخ بلزاريوس ساعة احدق الفرس بجيشه من كل فج عميق

— سيدي ! انك في حديثك هذا تهين رجلا كريماً شجاعاً كان احب الناس الى يوستانيوس الكبير !

— ولكن اباك امتنع عن نصرة بلزاريوس فاغرى امتناعه المنذر ملك العراق بالزحف حتى بلغت جيوشه شواطيء كريسوبوليس وحتى نصب خيامه عليها واقام حصناً لانزال ابراجه تنظر الى شواطيء القرن الذهبي نظرة مفعمة بالبغض والاحتقار وددت لو انني استطيع ان اهدم هذا الحصن فاستريح من النظر اليه خلال صباح وخلال مساء. فما وفقت الى هدمه لأن كسرى عاد ينذرني باجتياح الفرات ان انا اتيت امراً يخرق حرمة الصلح والموادعة . . .

— لو كان يوستانيوس حياً لما عامل ابن الملك الحارث بمثل هذا الجفاء .

— كان عمي طيب القلب .

— بل كان عمك شجاعاً شريفاً كالحارث بن جبلة .

— ما معنى هذا الذي تقوله ؟

— معناه ياسيدي ان قيصر لم يرث من اخلاق عمه كثيراً او قليلا ؛ ومعناه ان يوستينوس الصغير يهدم بيديه الضعيفتين حصناً اقامه يوستانيوس الكبير على تخوم الشام لحماية ملكه الضخم ومعناه ايضاً ان يوستينوس الصغير ينسى يوم تدمر .

— امهددي انت ؟

— كلا ولكني احب ان تنظر الى كوارث ايامك الماضية فترى في ظلماتها ذلك الضوء الذي نشرته غسان في أفق حياتك فان يوم تدمر لايبرح جديداً طريفاً كآخر عهدي به وقد كان في وسع ملك العراق ان يواصل زحفه الى قلب بلاد الروم لولا تلك الدماء التي غسلت ارض تدمر .

ــ امهددي انت ؟ ..

ــ ان الحارث بن جبلة قد حمى يوستانيوس الكبير، ثم جاء ابنه المنذر يطرس على آثاره فنشر حمايته على يوستينوس الصغير .

ــ ولكنك بقيت خلال ثلاث سنوات متمرداً على قيصر .

ــ أنسيت ظلم قوادك وعمالك ؟

ــ أمن اجل هذا الذي تسميه ظلما تمردت على قيصر وقتلت قائده هياس ؟

فاصفر وجه المنذر وجحظت عيناه واخذ قلبه يخفق ، ثم مضى قائلا

ــ اذن فأنت تعتقد ان ميتة هياس ...

فقاطعه قيصر قائلا :

ــ اعتقد ان هياس لم يمت ميتته البشعة الا لأنك اردتها له .

ــ ولكنك تهينني انا الذي انقذك من العار .

ــ فصاح قيصر :

ــ لقد مكر قومك بنا في كثير من المواقف وكنت انت اول الماكرين .

ــ احذر يا سيدي ان تسيء الى قومي فانهم يغضبون لهذه الاساءة ولا يطيقون حملها سواء أكان صاحبها قيصر ام كسرى ؟

ــ امهددي انت ؟

ــ اذكر جيداً ان غسان من ورائي وان فتيان العرب ليسوا اقل حماسة وغيرة على مليكهم من فتيان الرومان . اذكر جيداً ان ابرهة صاحب الفيل قد ارتد خائباً عن الكعبة وان جيوشه قد لفظتها صحراء العرب الى البحر .

ــ امهددي انت بهؤلاء الحفاة العراة ؟

فوثب المنذر وثبة الأسد الجريح وانثنى قائلا :

ــ ولكن هؤلاء الحفاة العراة ، هؤلاء الحفاة العراة ، هم اقل خيانة من الرومان

فمضى قيصر يذرع ارض الحجرة قلقاً فزعاً واخذ يقلب كفيه ألما وكمدا ، وكان كما

وصفه مؤرخو عصره ضعيفاً جباناً كثير الشكوك كثير التقلب يعيش في قصره عيشاً حالياً بالمخاوف وتفترس نفسه اشباح وطيوف يبتدعها وهمه فلا يلبث ان يحسبها حقيقة بريئة ولم يكن على شيء من صفات عمه يوستانيوس الذي اشتهر بالحزم والتماع الذهن واشراق الخاطر ومصانعة الأمور ومداراة الغساسنة واصطناعهم في محاربة اعدائه وخصومه ، بل لقد كان يعيش في الشالسيه بعيداً عن الناس ويتجنب الاختلاط بهم ثقة منه ان الناس حتى هؤلاء الذين يتقدمون اليه بالزلفى والحب يتآمرون عليه ويفكرون في قتله وقد طوى كما ذكرنا في فصول هذه الرواية اكثر ايامه عدواً لغسان وكانت الدولة في ايامه تسبح في فوضى اجتماعية دينية اثارها التنافس القائم بين احبار النصرانية في روما وبيزنطية وهو تنافس قديم ظهرت بوادره في القرن الرابع للميلاد ثم تجدد في سنة ٤٤٩ في مؤتمر خالكدونيا (١) وظل على احتدامه وشدته الى عصر يوستانيوس الأول الذي لم تفته اضرار المنافسات الدينية فحول الخواطر والأفهام الى الاهتمام بالفتح الحربي في آسية واوربة وافريقية وصرف العامة والخاصة ورجال الدين الى العناية بتوسيع حدود الامبراطورية وتوثيق كيانها في البلدان التي اخضعها لرايته في انحاء العالم .

هذه هي سطور قليلة تصف لك قيصر وصفاً بريئاً لا يخالطه كثير او قليل من

---

(١) ادعى آريوس بطريرك الاسكندرية ان طبيعة السيد المسيح طبيعة بشرية ولم يقل بألوهيته فعقد في القرن الرابع بمدينة ازنيق مؤتمر قرر المجتمعون اليه رفض البطريرك آريوس ثم ظهر راهب اسمه افتخاس فادعى ان في المسيح طبيعة كما ان له جسما فوافق على دعواه مؤتمر عقد في اياثلوغ ولكن مؤتمراً جديداً عقد في مدينة خالكدونيا — هي ضاحية قاضي كوى اليوم وتقع على شواطيء القسطنطينية الأسيوية — سنة ٤٥١ فرد دعوى الراهب افتيخاس ووافق على ان لاهوتية السيد المسيح وطبيعته شيئان لا يفترقان وانهما يكونان جسماً واحداً وقدظلت المجادلات حول هذه الموضوع الى ما بعد عصر جوستين الثاني وكانت مثار محن كثيرة «المؤلف

خيال الروائيين ووهم القصاص ، فليس غريباً وهو من علمت ان يصدف عن محاسنة المنذر وان يتنكر للغساسنة وهم الذين حاسنوه وحالفوه في حروبه مع الأكاسرة والمناذرة .

ثارت ثائرة قيصر حيال عنفوان المنذر وصلفه فجعل يذرع ارض الحجرة قلقاً فزعاً واخذ يقلب كفيه من فرط الالم . ثم التمع في ذهنه خاطر جديد ، فمضى الى الباب وصفق بيديه ووقف ينظر الى الستائر المسدولة . وكان المنذر خلال ذلك ينظر من النافذة الى ذلك الزورق الذي اخذ يتقدم تحت ذوائب المساء الى القصر وقد جلست في مؤخرته امرأة متشحة بالسواد تحمل بيدها مشعلا تبين ملامحها على ضوئه .

وفي الحق لم يكن في وسع المنذر ان يصف الشعور الذي تولاه ولا موجة الاحساس التي غمرته فقد كان وهو على الشرفة يطيل النظر الى الزورق والى المرأة حتى قرب الزورق من الشاطيء الذي قام عليه قصر الشالسيه . وفي تلك اللحظة لاح لملك غسان وجه تلك المرأة على ضوء المشعل فاضطرب وعاد يفكر في الكلمات التي سمعها من فم الساحرة .

وكان الشاطيء مقفراً من الرواد فتسلقت المرأة جدران الشالسيه على الحبال واخذ الملاحون الذين رافقوها في هذه السياحة يربطون الزورق حيال الشاطيء بعد ان همست المرأة في آذانهم همساً خفيفاً .

وتمهل المنذر لحظة . فاذا هو يبصر المرأة تدخل حديقة القصر فعلم من الخطوط التي رسمها الزورق على الموج ان الساحرة قادمة من شواطيء كريسوبوليس الآسيوية ولم تكد تمضي لحظات حتى غيبت الأشجار ذلك الطيف الماثل فترك المنذر النافذة وادار عينيه الى ناحية يوستينوس الذي كان لا يبرح يصفق بيديه ...

وكان الألم الشديد قد هد قوى قيصر هدا فلاح ناصباً مكدوداً ، ثم ايأسه سكوت من في القصر فعاد الى غرفة اللآلىء مسفوعاً عانيا ...

ثم تولته نوبة عاصفة فجعل يئن انين المحتضر وقد نسي المنذر ونسي حواره معه وكان تاجه لا يبرح على رأسه فانتزعه ورمى به الى الأرض ومضى يركله بقدمه وهو لا يدري ما يصنع حتى خيل الى المنذر انه عاد مجنوناً ملهوفا .

وبعد قليل اغمض قيصر عينيه ورقد رقدة عميقة :

في تلك الأثناء اطفأت يد غريبة انوار القصر فغشيته ظلمة راعبة شملت غرفه ومقاصيره وجناته فكاد المنذر يجن من الرعب وروعه انه حبيس في حجرة لا يقع طرفه فيها على غير سكون الموت وصمته . وماذا في قدرته ان يفعل لانقاذ نفسه من هذا الأسر وهو في قاعة العرش عن كثب من رجل احمق يستطيع في كل حين ان يستنفر لنجدته الحرس والحاشية .

ايهرب وينجو بنفسه من هذا الموقف الغامض الأليم ام يبقى وهو يعلم ان بقاءه في القصر لم يعد محموداً بعد المعركة الحادة التي قامت بينه وبين خليفة يوستانيوس وليس الهرب ميسوراً ما دامت اروقة القصر تتصل بالحرس والحاشية ، وليس بين هؤلاء الا من يشك في امره اذا خرج من القصر تحت ذوائب الليل ·

وبغتة ازدحمت في نفسه خواطر مرة نقلته من هذا الحاضر الذي يعيش فيه الى ماضيه في الشام فانشأ يذكر ايابه الرائع من تدمر واجتماعه في قصر البريص الى جبلة بن الأيهم والى ولديه النعمان وامرىء القيس وكان الشك يومئذ يخالجه في قيصر وفي رجاله ، ثم ذكر حديثه في ذلك الاجتماع الى ولديه والى جبلة وقد ظل هذا الحديث سراً في الصدور .

ولم تطل تأملاته كثيراً فقد رد اليه سكونه فابتسم وهمس قائلا :

« فيم هذا الخوف وهذه غسان تستطيع ان تجتمع تحت راية ولدي في ثورة طامية ينخلع لها جنان عدوي !.. لقد وعدني جبلة بالانتقاض على ملك قيصر في الشام وفي فلسطين اذا انا ابطأت في الرجوع الى غسان .

ربما عتم الخوف ان تجدد في نفسه ، فزالت في وجهه تلكم البسمات التي بعثها

الأمل منذ هنيهة فصاح .

— وعمرو .. اين هو عمرو ؟ اخشى ان تكون يد الظالم العاتي قد امتدت اليه وهو بعيد في قصر تيودوس ؟.. الآن ادركت لماذا ابى قيصر علي ان استقر في قصر تيودوس عن كثب من عمرو ومن حاشيتي ..

ولما انتهى الى هذا الحد من مخاوفه عرض له في الحجرة طيف تلك المرأة المتشحة بالسواد فأجفل مذعوراً وطفق يتقهقر امامه والطيف يلاحقه .

كيف استطاعت الساحرة ان تدخل القصر وهو محاط بالحرس والحاشية ؟

جعل المنذر يردد هذا السؤال وهو يتراجع امام الطيف حتى اصطدم ظهره بالنافذة المطلة على البحر ، وفي تلك الأثناء خيل اليه انه يسمع صوتاً رقيقاً ، اعتاد ان ينصت له في الماضي فاذا ذلك الصوت يقول له متطامنا .

— اي مولاي ! انني مدركة ذهلتك . مدركة حيرتك .

ثم خيل اليه ان يداً تمد اليه . وانها كذلك تشد كفه احر شدة . فخمدت مخاوفه ولم يعد يتوجس خيفة من ذلك الطيف الذي اطل عليه ثم اخذ يهمس :

— ليلى ! ليلى !

— اعرفتني حقاً يا مولاي ؟

— رأيتك منذ قليل تصعدين الشاطيء . ثم سمعت كلامك وتحدثت اليك .

فابتسمت الساحرة وشملتها سكينة وفرحة . كأنها عادت صبية مراحاً لاهية واستتلت قائلة :

— في قدرتك ان تبتعد عن هذا القصر الراعب ، فان زورقي ينتظرك على الشاطيء .

— وهذه الجثة النائمة ؟

قال ذلك وأومأ بيده الى قيصر النائم الراقد في سريره .

فقالت له :

ـــ انه سيظل نائماً لا يعرف استفاقة .

ـــ وكيف ذلك ؟

ـــ ستعلم كل شيء بعد حين .

ـــ والحرس ؟

ـــ انهم يغطون غطيط الكلاب

ـــ لعلك قتلت حرس قيصر ؟

ـــ كلا ولكن الخمرة اذهلتهم عن هذا العالم

ـــ وكيف تسنى لك ان تحملي الخمر الى هؤلاء ؟

ـــ لقد فكرت في عملي منذ الليلة الفارطة فجئت القصر ولم اكن غريبة عن رجاله ، وكانوا يعرفونني ولا يتهربون مني ، بل كانوا يشترون مني العقاقير التي تعيد الى المدنف العليل القوة والعافية والشباب الذاهب ، وكانوا كذلك يشترون مني العطور والبخور ولا يترددون في البوح بخفايا قلوبهم

ولما ابصرني رجال الحرس دالفة اليهم غشيتهم غاشية من فرح شديد :وراحوا بي محدقين . فسألني رئيسهم ان اهبه الحب لأن زوجته اصبحت تمل لقاءه ولأنه اصبح يعاف هجرها وصدوفها عنه ، فمنحته سائلا ينيمه ويغرقه في سبات عميق ، وقلت له هذا سائل غريب فينبغي لك ان لا تتردد في شربه عشية الغد ، وفي وسعك ان تصب بعضه في كأس امرأتك فلا تلبث ان تحس مثل احساسك وتغدو كلفة بك حريصة على ان لا تجفوك . واقبل رجال الحرس علي فسألني بعضهم الحب وألحف علي فريق في الحصول على العطر فجملت اغدق عليهم الشيء الكثير من ذلك السائل الذي اصارهم الى مثل ما رأيت في هذه الليلة فهم الآن صرعى غرق اليم

وكانت تقص قصتها على الملك المنذر وهي تغلو في الضحك فروع ضحكها الملك الشاب فالتفت اليها قائلا :

ـــ وقيصر ؟

— امض انت الى الزورق الذي ينتظر معادك حيال الشاطيء اما انا فسأبقى هنا حيال سرير قيصر

فبهت المنذر لحديثها وسألها قائلا :

— ماذا اتبقين هنا ؟ الا تخافين ان يلحق بك اذى قيصر ؟

فضحكت ضحكة جشاء مرهوبة وقالت له :

— لقد تعاقبت على يوستينوس ثلاث ليال وهو يبحث عني حتى ظفر بي عشية الأمس فلما اجتمعت اليه في حجرته طلب الي ان اصنع له علاجا يزيل هذا القلق الدائم الذي يحسه وانت تعلم ان قيصر عليل منذ الطفولة وانه يعيش في القصر عيشاً حالياً بالخوف والشك والحذر بل انت تعلم ان قيصر يجفو جميع الناس فلا يخالط غير نساء القصر وغير البطريرك الشيخ .

— لعلك تحملين الى قيصر ذلك العلاج الذي سألك احضاره ؟

— انه في جيبي . . .

— اراك تضحكين ؟

— ايضيرك ضحكي يا مولاي ؟

— كلا ولكني بدأت اشك في قدرتك على انقاذ قيصر من علته ويلوح لي ان العلاج الذي تحملينه في جيبك لا يحمل الى قيصر امنيته في الشفاء . .

— اخشى ان يضيع الوقت يامولاي : فان الزورق ينتظر معادك حيال الشاطيء

— ولكنك لم تذكري لي شيئاً عن العلاج ؟

— ستعلم كل شيء حينما تكون بعيداً عن مطاردة الرومان . لقد كان قيصر مزمعاً على ارسالك الى جزيرة بروتي على شاطيء مرمرا لتكون في هذه الضاحية التي تلتف بها المياه من كل جانب ضفيه الدائم . . بلى ان جزيرة بروتي هي المنفى الذي ارادك قيصر على الأخلاد اليه حتى تلفظ روحك ! اراك ترعش ؟ فهل اخافك حديثي يامولاي ؟ ألى هذا الحد تبعث هذه الجزيرةالتي

يلطمها موج الزاخر الهزج في نفسك ارتماضاً ورعباً . .

ــ ليلى !

ــ مولاي ان في قدرة الملاحين وكلهم من صحب امريء القيس بن حجر ان ينقلوك في هذه العشية الى بيت انتيغون عن كثب من عمرو وماريه وهند !

فصاح المنذر :

ــ ماذا تقولين ؟

ــ اقول ان الوقت يكاد يضيع ، وان في قدرتك متى بلغت البيت المنعزل واجتمعت الى عمرو ان تواصل سيرك الى الشام تحت حماية رجالك الذين يحتويهم قصر تيودوس فاني ماضية بعد قليل الى القصر لايقاظ هؤلاء الفتيان الذين ابوا الا ان يصحبوك فيطوافك الشاق ، اذهب يامولاي فان الطريق خلي من الرقباء والرواد

ــ وانت ؟

ــ ساقف هنا على الشرفةلاراقب حركة الزورق حتى اذا وصل بك الملاحون وكلهم من كندة الى الشاطيء واطمأنوا الى دخولك بيت انتيغون رفعوا الي المشعل من بعيد فتكون انواره دليلا على انك نجوت من الخطر ، فلا اتردد انا في انارة قصر الشالسيه علامة على نجاح تدابيري واذ ذاك يعود الملاحون الى هذا الشاطيء لنقلي الى خليج القرن الذهبي .

ــ متى نتلاقى ؟

ــ في عشية الغد اذا شئت ، في البيت المنعزل لا في قصر تيودوس المخوف ، في شواطيء آسيه الباسمة ، لافي هذه الشواطيء الجاهمة . . . الى اللقاء يامولاي ؟ . .

ــ ولكنك نسيت شيئاً واحداً كان ينبغي لك ان تذكريه . .

ــ ذلك الشيء ؟ . .

ــ ليس من شك ان تفكيرك في قيصر قد انساك هندا ومارية ؟

ــ سترافقك الأولى في سياحتك .

— ومارية ؟

— ستبقى هنا . .

— ماذا تقولين ؟ امارية تبقى هنا ؟

فتنهدت ليلى واستتلت قائلة :

— ان هذه البقية المقدسة التي غادرها امرؤ القيس بن حجر في الارض الاجنبية لن تستقبلها ارض الوطن ، انها ستموت في الهزيع الأخير من هذا الليل في الغرفة التي اصغت في الماضي الى خفق ابيها وذلك لأنها مريضة يامولاي ومرضها شديد

— وهند ؟ لقد ابت هذه الفتاة ان تغادر هذه الشواطيء قبل ان تسترد دروع ابيها .

— مولاي ان دروع امريء القيس واسلحته قد ردت عند غروب الشمس الى ابنتيه .

— أحسرت اذن عن ذلك السر الذي غيبه صدرك الأعوام الطوال؟

— نعم ! نعم ! انطلق الآن في سبيلك قبل ان يفوت الوقت .. ثق ان قيصر سيفتح عينيه بعد قليل ولكنه سيطبقهما بعد هذا اليوم ..رح يامولاي رح .

فشد المنذر على يدها وتلفع بردائه منحدراً الى الشاطيء وفي تلك الأثناء اتجهت ليلى الى النافذة واخذت تنظر الى حركة الزورق .

وكان المنذر في خلال ذلك قد اجتاز الأروقة الخالية من الحرس وتسرب الى الحديقة وهو لا يدري ما يبطنه الغد وبعد قليل اشرف على الشاطيء فجعل ينظر الى قصر الشالسيه نظرة خوف وذعر فأبصر ليلى على الشرفة وهي تصفق بيديها للملاحين فسكنت نفسه قليلا وشخص الى ناحية الزورق فاستقبله الملاحون بتحية غسان .

— سلام الله يا خير الفتيان .

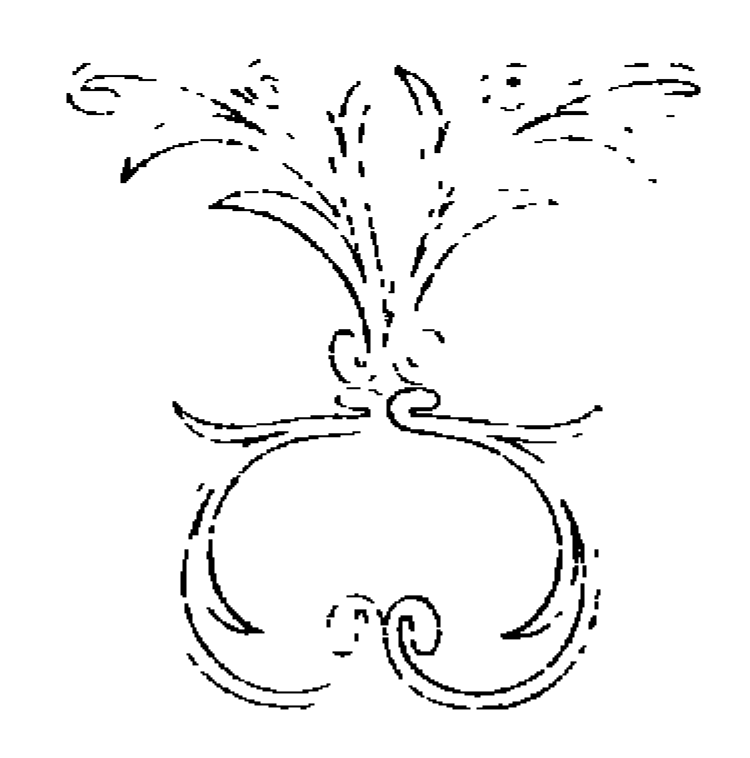
ثم صعد الزورق وعيناه تنظران الى اللجج ثم تدفق الزورق في سيره منتحياً ناحية

الشواطيء الأسيوية فتنهدت ليلى كأنما نفس ابتعاد المنذر عن صدرها وانثنت قائلة :

ـ اذا قدر الله لك يا مولاي ان تصل سالماً الى الشام فلا ينبغي لك ان تنسى هذه المرأة الوالهة العانية التي حملها الوفاء على مغالبة الأحزان الشديدة والآلام المضنية . بل ينبغي لك ان تذكر في كثير من الورع هذا المؤدب العظيم الذي نسميه الأسى. فلقد اجدى عليك وعلى وطنك وخلصك من صلف الرومان وكبريائهم

وكانت تنظر دواماً الى الزورق وهو يطفو فوق الامواج المغتلمة في ذلك الليل الضحيان حتى ابتعد وابتعد كثيراً وحتى لم تعد تبصر غير طيفه العائم فظلت تحدق اليه امداً ليس بالقصير . وهي ناعمة قريرة .

وبعد لحظات ارتفع لها ضوء المشعل في شواطيء آسية فأحست في صدرها خفقة الفرح واطمأنت الى نجاح تدابيرها . واستيقنت ان المنذر بلغ الشاطيء في غير عسر ولا ارهاق . فنهدت الى شموع القصر وانارتها فاذا القصر يشتعل ويضطرم .



الفصل السابع عشر
الجنون والخوف والالم

لم تتردد ليلى بعد ان اتمت فعلتها في الشخوص الى ناحية ذلك السرير القيصري الذي يسبح في الزخارف والنقوش فجلست حياله تنظر تارة الى وجه قيصر الشاحب وطوراً الى منضدة صغيرة قامت الى جانب السرير فوقع نظرها وهي تنظر الى المنضدة على كأس تخالطها نقوش مصرية بديعة ويصاقبها حق من الخزف الثمين فأنشأت تتفرس في الحق وقد زال هاجسها المعتم ورأت في السكون الذي يشمل القصر سانحة تسعفها في اتمام عملها الذي ما برحت تفكر في تحقيقه ثم مدت يدها الى الحق وجعلت تتأمله قائلة :

ـ انقليلا من هذا السائل الذي احمله في صدري لا يغير لون مائك ايها الحق الثمين الذي اعتاد قيصر ان يشرب منه ،

ومدت يدها الى صدرها غير راجفة ولا واجفة فانتزعت منه حقاً صغيراً من الزجاج الأبيض الصافي ثم راحت تدنيه من الشموع المتألقة حول السرير وهي تقول

ـ ان لون هذا السائل يماثل لون هذا الماء فليس سبيل للشك الى قلب قيصر

وبعد قليل سيفتح يوستينوس عينيه وهو يحس احتراق جوفه . فلا يلبث ان يتناول هذا الماء الممزوج بسائلي المميت ثم يعود الى سريره مطمئناً الى النوم والى الراحة فلا يفتح عينيه الا في الهزيع الأخير من الليل .

بلى وستكون يقظته راعبة . فانه سينظر الى هذه الاشياء التي تحدق به فلا يفقه لها معنى ، وسيعود الى حياته فيراها مضبة معتمة كهذا الأفق الذي يغطي بيزنطية اجل سيعود قيصر الى حياته فلا يتصل بالماضي ولا يطل على الحاضر ثم كذلك لن يتعرف الى مستقبل ايامه ، لأن يقظته ستجيء مترعة بالأشباح والصور البشعة

ولأن هذا السائل سيحرمه العقل والذاكرة ويحمل الى نفسه الذهول والنسيان .

ولم تلبث ان عادت الى النافذة ، فأطلت على البحر وعلى القمر السابح في سماء مصحية ساجية وشهدت كذلك الأشعة والظلال تتراقص فوق الامواج والأثباج وفي الحق لقد كان هذا الليل البيزنطي الذي لا تحلم بمثله مدينة من المدن يحمل الى الأفق المتأرج تنهدات المحبين وزفرات الوالهين المنتشرين في كل ناحية من شواطيء العالمين الأسيوي والأوربي . وكان الحب وحده يخلع على الطبيعة مرحه وعبثه واستهتاره وقد ترك في كل ضاحية من هذه الضواحي الفتانة بعض عيدانه وبعض اوتاره . فاطمأن العشاق المماريح الى نغمات العيدان ، وهم لا يحسبون حساباً لهذه اليد الرهيبة التي تبسطها ليلى الساحرة في الغسق الساجي لقطع الأوتار الصداحة ، وتهشيم العيدان المغردة .

وكانت امواج الشواطيء البعيدة تنقل الى ليلى صدى هذه الأناشيد فلا تأنس بها ولا تستروح اليها فقد ظل قلبها مغلقاً بغطاء كثيف يمنعه حلاوة هذا الرنين الشجي حتى لم تعد تستملح غير نغمة واحدة هي نغمة الموت الذي ينقل الأحياء الى عالم قصي بعيد سكانه الأفاعي والصلال والدود والصديد .

وبغتة رفعت يدها الى الشواطيء صائحة :

— هنالك في الأرض الأسيوية روح تذوب ولكنها روح مقدسة ولدها الحب في ابهى لياليه . وهنا في هذه الأرض التي هي بداية عالم آخر روح تذوب . ولكنها روح شريرة ولدها البغض في ابشع لياليه ، وطفقت تتأمل وهي على الشرفة في البيت المنعزل وفي حدائقه المشرفة على البحر فلاحت لها اعمدته وانصابه وتماثيله وبدت لها الصخور والأحراج والغابات فاخذت تصب احلامها المتمردة في هذه هذه المشاهد التي اعتادت الطواف بها في الماضي وانثنت تهمس في نفسها همساً غريباً لو سمعه الناس لارتعدت فرائصهم من الرعب .

« لقد نشرت في هذه الامكنة اعلام الموت والجنون والمرض فلن يقدر

« للاحياء بعد هذا اليوم ان يجدوا في ظلالها غير الأشباح الراعبة وغير الحيـــاة
« الكامـــدة ...

ومضت تضحك ضحكة مجلجلة ثم برحت الشرفة الى سرير قيصر فاذا هو قد استفاق فاقتربت منه وقالت له هامسة :

ـــ اي مولاي كيف انت ؟

فجعل قيصر يحدق اليها حتى اذا عرفها اطمأن الى وجودها حياله فقال لها :

أأنت هنا منذ زمن طويل ؟

فقالت له بلهجة رقيقة ناعمة تعملت فيها الرأفة والرحمة .

ـــ لقد سمعتك تصفق فاقبلت على صدى التصفيق .

ـــ أكنت في القصر قبل هنيهة ؟

ـــ ألم تطلبني اليك يا مولاي ؟

ـــ نعم ! نعم ! لقد اردتك على المجيء الى قصر الشالسيه لأن الآلام التي احسها قد هدت قواي هدا ... والآن قولي لي اين هو علاجك المنقذ ؟

فهمست ليلى في نفسها قائلة :

ـــ كنت صادقة حينما قلت للمنذر ان قيصر المريض سوف لا يذكر كثيراً او قليلا من ذلك النزاع .

ثم التفتت الى قيصر واردفت :

ـــ ان العلاج الذي اردته حاضر لدي يا مولاي .

ـــ اشكر لك صنيعك الذي لا ينسى .

ـــ يخيل الي انك تعب مكدود يا مولاي .

ـــ صبي قليلا من رحيقك في هذا الحق الذي ترينه امامك على المنضدة فان قلبي يحترق ويخيل الي ان حر الصحراء كله قد اخذ يلفحني حتى صيرني مسفوعاً كما ترين.اعطني هذا الحق ، اعطني هذا الحق،فليس هذا العطش الذي احسه مما يطاق.

فتظاهرت ليلى بصب الماء في الحق واراقت سمومها فيه ثم جاءت الى ناحية قيصر غير مضطربة ولا قلقة فتناول التعس من يدها الحق وراح يصبه في جوفه مطمئناً الى قدرة الساحرة على انقاذه من الآلام التي تضنيه ، ثم نظر اليها نظرة مترعة بالسكون وقال لها :

— لقد كان عمي يحبك كثيراً وكانت تيودورا تخصك باعجابها وعطفها بل لقد كان عمي يرجع اليك في كل ما له صلة بحياته . فلا يأنف من اصطناع تجاربك وعلمك حتى في شؤون الدولة .

— هذا صحيح يا مولاي .

— ولم يكن يتردد في الالتجاء اليك اذا احس مرضاً .

— أرأيت يا مولاي كيف بدأت ذاكرتك تنتعش وتستفيق تحت تأثير علاجي فحدق يوستنيوس اليها وقال لها :

— ولكني عاجز عن ايفائك حقك من الشكر .

— لا تشكرني يا مولاي بل اشكر الله الذي هيأ لك امرأة تسهر عليك في نومك ويقظتك .

— ايكون في قدرتي بعد هذا اليوم ان اكافح هذه الدسائس التي يبثها في القصر بعض القواد وبعض البطاركة . انت تعلمين انني من ايليريا وان اسرتي سلافية وان اشراف بيزنطية يعملون في الخفاء على ارجاع الملك الى اسرة يونانية .

لقد لبثت هذه الدسائس مطوية فلم يتصل امرها بأحد لأنني بالغت كثيراً في اخفائها

— ليس في وسع اخصامك مهما كانت كثرتهم ان يصلوا الى شهواتهم لأن عافيتك قد ردت اليك وسيكون في مقدورك ان تتغلب حتى على دسائس البطريرك الذي يعمل وهو في انطاكية على ارجاع الملك الى اسرة يونانية .

— كنت اخشى الموت قبل ان امزق هذه الدسائس التي يحوم بها حولي بطاركة الاسكندرية وانطاكية ولكن حديثك قد جدد الأمل في نفسي . انهم يرشحون للعرش

هرقل الصغير وهو صبي كما تعلمين وليس في وسعه ان يجمع اليه جميع شعوب الدولة

— اطمئن يا مولاي فليس لهرقل الذي يسهر بطريرك انطاكية على تربيته وتعليمه من وسائل الحزم والقوة ما يبلغ به امانيه واماني اصحابه الواسعة .

— كيف ترين الى صاحبي قسطنطين طيباريوس ؟ الا يصلح للقيام بأعباء الملك من بعدي ؟

— طيباريوس ! طيباريوس !

— اراك تفكرين !

— افكر في هذا الشاب الذي استطاع في مدة قليلة ان يجمع اليه كثيرين من القواد . انه فتى حازم وفي طاقته ان يكون قيصر الرومان .

— ولكن طلاب الجامعات يريدون الي ان ابعدهم وان اخرق حرمة الأرثوذكسية.

— ان قليلا من الحزم يكفي لكبح جماح هؤلاء الذين شغلتهم الأهواء عن الاخلاص لقيصر .

— لم اعقل شيئاً من حديثك فماذا تقولين ؟

— اقول ان في قدرة قيصر ان يرسل اعداءه الى المنافي البعيدة في الصحراء فاذا عمل ذلك استطاع ان يحفظ الدولة .

— سأعمل بنصحك منذ اليوم .

— ولا بأس ان تقذف بطريرك الاسكندرية الى افريقية .

— وبطريرك انطاكية ؟

— في جزيرة بروتي دير اعتاد قياصرة الرومان ان يسجنوا فيه البطاركة !

— ولكنك تعرضين علي اموراً لاجلد لي على احتمالها !

— اتجبن ياسيدي عن مناهضة اعدائك ! وقد كان عمك لايخني هامته لا كبير كبير في الدولة !

— ايتها المرأة الهائلة من لقنك هذه الأحاديث !

— مولاي ان قليلا من حزم يوستانيوس يكفي لانقاذ الدولة من دسائس الخارجين على الدين الصحيح ! اسمع . . . لقد عرضت لي في هذه اللحظة فكرة تنجيك من جميع هذه المخاوف!

— وهذه الفكرة ؟

— لما اشتد طغيان البابا سيلفير على الأرثوذكسية واخذ يهاجمها من كل النواحي بعثت تيودورا القائد بلزاريوس الى روما لتأديبه فدخل القائد عليه وهو في مصلاه فانتزعه من قلب المعبد وسجنه في مدينة ليسي (١) وخلف البابا سليفير البابافيجيل فسار هذا سيرةسلفه ، واخذ يناهض الأرثوذكسية مناهضةعنيفة،فزين له يوستانيوس ان يحضر الى القسطنطينية ليسمع رأيه واحاديثه ففعل ولكن فيجيل لم يكد يدخل ابواب الشالسيه حتى دهمه حرس قيصر وحتى ساقه هؤلاء الى جزيرة بروتي حيث لبث منفياً خلال عشر سنوات (٢) ! افلا تستطيع يامولاي ان تحمل بطريرك الاسكندرية على زيارتك في الشالسيه ! حذار يامولاي ان لا تفعل هذا الذي اردتك عليه

فصاح يوستينوس :

— كفى كفى ولا تزيدي على حديثك شيئاً فاني تعب ؟ !

— ولكن هذا التعب الشديد لايلبث ان يضمحل،ومدت يدها الى صدرها فاخرجت منه حقاً صغيراً واردفت :

— في هذا الحق سائل غريب فاذا شربت منه نعمت بعافية وزالت اوهامك .

— اسقني من هذا السائل الناعش المجدد للقوى ولك كل ما املك من نفائس وطرف

— لا احتاج الى غير عطفك يامولاي .

قالت ليلى ذلك ، ويدها ممتدة الى ذلك الحق الذي شرب منه قيصر قبل لحظات ثم رفعته الى التعس ، فجرع منه جرعة ثانية ، وهو مطمئن الى ان السائل يحمل اليه الصحة والعافية والشباب .

---

(١)و(٢) تاريخ البابابوية وعلاقتها بالأمبراطورية الشرقية — لافيس ورامبو

واحبت ليلى ان تبدد في نفسه بعض هذا القلق الذي يخامرها فقالت له :

— ستنام يا مولاي بعد قليل نومة هانئه راغدة تعرض لك فيها احلام زاهية متوردة وتحمل اليك كثيراً من الصور الفاتنة التي تطمئن الى مشهدها ؛ ثم تستفيق وليس في صدرك بعض الألم وبعض الداء .

وحاولت ان تخفي ما في نفسها وراء ارادة عنيفة وصبر جميم فلم يبد عليها وهي تساعد قيصر على الرقود في سريره كثير او قليل من الخوف وكانت كاذبة في ارادتها قيصر على الاطمئنان الى السائل والى النوم الخلي من الاحلام المروعة .فلقد كان ذلك السائل الغريب اشد فتكا بالنفوس من الموت نفسه . لأنه يحمل في عناصره الذهول والجنون والخوف الذي يتجدد في الصباح وفي المساء ، ويذكر القراء ان ليلى قد تخيرت من بين سمومها الكثيرة هذا الذعاف الذي يقرض العقل والذاكرة ولم تكن ترغب في موت قيصر لأن موته يريحه من متاعب واوصاب يئن منها ويرزح تحت وقرها . بل احبت له الجنون والذهول والخوف مع الحياة الطويلة التي يرافقها موت بطيء .

ولقد تم هذا الذي ارادته الساحرة .فرقد قيصر رقدة عميقة تتالت عليها لحظات بطاء . شهدت فيها ليلى هزال يوستينوس وسقامه وشخوب وجهه ثم مضت الى الشرفة تنظر الى الشواطيء الأسيوية وتتأمل في البيت المنعزل وهي تهمس :

— لقد وصل المنذر الى بيت الآلام والدموع وستصافح عيناه عيني مارية الذاهلتين الغائمتين فما اوجع هذا المشهد، هنالك قبر يستريح صاحبه. وهنا قبر لن يقدر لصاحبه ان يمضي ايامه مستريحا .

واستجاشت صورة الموت الجاهمة في نفسها ذكريات بعيدة كانت تفضل الف مرة ان لا تستفيق ، فتمثلت تلك الليلة الصاردة التي يلفحها الثلج والبرد والتي تلقت في غيومها روح سيلفيا حبيبة امريء القيس وعلقه النفيس في دارهجرته وموضع اغترابه ، ثم تمثلت هذه البائسة وقد اشفت على الموت وبرح بها سعال

يهد القوى فأخذ صدرها القريح ينفث دماً يخالطه صديد مريع .

وكذلك تمثلت ليلى الساحرة في وسط هذه المأساة جبين سيلفيا الغاتم المكفهر وعينيها الهامدتين الكامدتين وصوتها الخافت الضعيف ثم مضت تستعرض آلام مارية واوجاعها . وخفق صدرها ، وارتعاش جسمها ودمعها الذي ينفثه صدرها الرثيث وسعالها المذيب . ذكرت هذا كله وهي تنظر الى خمائل البيت المنعزل والى شطئانه الوارفة الظل ، ثم الى افق بيزنطية الغارق في الضياء والبهاء فالآنت هـذه الصور البائسة قلب ليلى فراحت تذرف دمعها ذرفاناً اليماً وقد نسيت مأساة قيصر ونسيت ما يحيط بها من مشاهد الموت .

وكان حزنها جديراً برحمة ، خليقـاً برثاء فقد جعلت هذه المرأة التي عاشت عيشها الطويل في عالم يزخر بالدموع والآلام ترثي مارية رثاء وجيعاً اليماً نم عن مدى الحزن الذي استطال في نفسها ، حتى ملك مشاعرها واحساساتها .

وتتالت عليها ساعات ودقائق وهي على النافذة تستعرض هذه الذكريات الشجية حتى استفاق ذهنها على لحام بليغ . فتركت النافذة وجاءت الى ناحية سرير قيصر وهي مطمئنة الى انها مشرفة على مشهد حافز وكانت قد ارادت نفسها على التجلد فوقفت حيال السرير تنظر الى وجه قيصر وقد اصطبغ بأرجوان ، وأخذ هذا التعس ينشب اظافره في جبينه وفي وجهه وفي عينيه صائحاً صياح الألم واليأس .

لقد كانت لقيصر عينـان يبصر بهما ولـكن هاتين العينين اللتين سطعت فيهما بروق الذكاء قبل ليال عادتا خابيتين كامدتين وانقلبت نظراتهما الى حملقة شاردة هي حملقة المجنون المعتوه الذي يعتصره الخوف والشك والمرض ، وكان لقيصر كذلك شباب تضحك فيه الوان الحياة ومسراتها لحال هذا الشبـاب الى شيخوخة باردة ماتت فيها الألوان الزاهية فما عادت تستسيغ غير التقطيب والتعبيس .

وكان لقيصر عقل صحيح لا يفوته شيء من احاجي الحياة وخفاياها لحال هذا العقل في خطفة الوميض الى تمثال لا يحس ولا يشعر ولا يفقه شيئـاً من هذه

المشاهد التي تحيط به .

جعلت ليلى تنظر الى هذا الشبح الذي مزقه الألم نظرات استطالت فيها لذة عميقة لا يحسها غير هؤلاء الذين فتشوا عن النصر في كل ناحية حتى تحصلوا عليه في نهاية الطواف واخذت تضحك لهذا المشهد ، بل اخذت تغني وتغرد كأنها في مهرجان كل ما فيه يهز النفس الى المفارح والمغابط !

وطفقت تطوف انحاء الحجرة عابثة لاهية وقيصر يتململ في فراشه من الموضى وذهول ولما ابصرته يتضاغى من الألم تحت تأثير ذلك الذعاف الذي حملته على شربه راحت ترقص وتثب ؛ ثم اخذت تقهقه حتى غصت انحاء الحجرة بضحكها وانها لكذلك اذا النسيم العليل الذي تحمله شواطيء مرمرا الى القصر ينقل اليها انشودة مرحة يتخللها عزف بديع فشخصت الى النافذة ، واطلت منها على البحر المترامي النواحي ، فابصرت زورقا ينحدر الى خليج القرن الذهبي حاملا الى ضفافه بعض المحبين الذين اعتادوا الطواف في كل مساء حول الكرمات البيضاء المنتشرة على شطآنه فاذكرها هذا الغناء تلك الليالي القريرة التي سلخها امرؤ القيس بن حجر مع حبيبته سيلفيا حيال هذه المراتع السعيدة فأثارت هذه الذكرى الجديدة التي طرقتها على حين غرة حماستها واحقادهــا فبرحت النافذة رجاة ان تتلهى بهذا العذاب الذي يحسه قيصر .

وكان يوستينوس في تلك الأثناء قد جفا فراشه وطفق يطوف انحاء الحجرة يحطم زخارفها ويلقي تماثيلها وانصابها الى الأرض وهو يصيح صيحة الألم والرعب !

فجلست ليلى الى سريره واخذت تنظر اليه هازئة ساخرة ، ثم انطلقت تقول :

ـــ اي مولاي العظيم ، اين خميسك العرمرم ذلك الخميس الذي لم يثنــه النصر عن الزحف في اراضي الفرس . وفي اراضي العراق . فانشاء يتوغل في افريقيه وفي انحاء العالم القصي البعيد بينما رايات الامم التي اجتــاح امصارها تتوارى وتختفي في الأفق الواسع لتفسح الطريق امام راياته الخافقة . . .

بلى ابن خميسك العرمرم يدفع عنك هذه البدوية التي جاءت تغزوك وانت محاط بكبرياء ملكك الواسع الذي ما عرف في ايامه السلاف غير بهاء النصر .

لقد نام جيشك : وطويت راياتك ، وسكن ذلك الضجيج الذي تبعثه طبول الحرب، وخفت الصوت الذي تعالى بالدعاء لك ! وبردت تلك الحماسة التي استثارت قوادك الى الفتح في آسيه وافريقيه ؛ وخمدت تلك البروق في تلك العيون التي اعتادت ان تنظر الى بهاء النصر ، فما عادت تقع على غير الأنكسار ! بلى بلى لقد طوى الله رايات الرومان في هذه الليلة لترتفع في مكانها راية صحراء العرب بعد رقدة عميقة ، سكنت فيها النفس الى ظلم الأجنبي . .

الآن يلذني ان افضي اليك بذلك السر الدفين الذي يحمله صدري ! فلقد تنبأ الرهبان والكهان والعرافون في كل ناحية من نواحي هذا العالم بحياة جديدة يحياها هذا الشعب العربي الذي ازجاه ظلم الرومان والفرس الى الخمول والى الحياة الجافة البليدة . وعما قريب يخرج سيد قريش من مكة حاملا الى العالم بهاء شعب جديد يرث هذه الارض التي تطاغى فيها ظلم الرومان والفرس . وعما قريب تنظر الشعوب وادعة الى هذه البداية البارعة التي ستحمل اليها ذكاء شعب تخيره الله للعمل الرائع الجليل .

اي يوستينوس ! ان آلامك ودموعك وهذا الذهول الدائم الذي سيرافق ماتبقى لك من الايام المرة الشقية . وهذا الشرود الذي الحه في عينيك ان هذا كله لايوازي بعض ذلك الالم الذي قتل امرأ القيس بن حجر الملك الشاعر . .

✡ ✡ ✡

طغت لجج الخضم في الخارج : واخذت الامواج المتدافعة تلطم الزوارق والفلك حيال الشاطيء ، واحتجب القمر في الافق الافيح وتوارت الكواكب خلف سحب وطفاء . ونشر الغسق ظلامه الفاحمة في الكرمات والجنات والقصور والاكواخ؛ وهجعت المدينة هجعة الموت المثلجة فاذا هي جثة محنطة سكن فيها ضجيج الحياة .

ثم ثارت العاصفة فرمت بالزوارق الضعيفة : واقتلعت غصون الاشجار ، وقذفتها الى انحاء بعيدة وتهدمت اكواخ الصيادين على شوطيء مرمرا والبوسفور ونهدت الطبيعة من عزلتها غضبى مهتاجة كأنها تشارك ليلى في احساس البغض الذي لايعرف ركوداً .

وفي تلك الأثناء هدأت ثورة يو ستينوس التعس فسقط على أديم الحجرة كتمثال شاحب ماتت فيه الحياة وراحت ليلى تنظر من الشرفة الى الطبيعة الجافلة الغضبى ، والى البحر المخيف الراعب والى أفق بيزنطية الجامد كرمس قديم . فروعها هذا المشهد واشجتها ثورة الماء والهواء فصبت سائلها المميت في البحر وانثنت هامسة :

« قري مكانك في أعماق الدأماء ، يا احلام البغض الممضة التي صحبتني في ليل حياتي المكفهر فان نفسي قد عافت التحديق الى طيوفك المضرجة بالدماء .

لقد القيت بغضي الى البحر وعدت الى الناس مولودة جديدة تأنس بحياة جديدة عناصرها الفرح والحب والرحمة .

ولم تقل اكثر من ذلك ، فتركت النافذة وتهيأت للخروج من القصر ، ولكنها عادت الى سرير يوستينوس ، فتفرست في وجه الشاحب ، وفي جبينه المسفوع ثم راحت ترخي الستائر الأرجوانية المحلاة بالذهب على فريستها المشوهة رابطة الجأش لاتحس ذعرا ، ولا يخالط نفسها ندم .

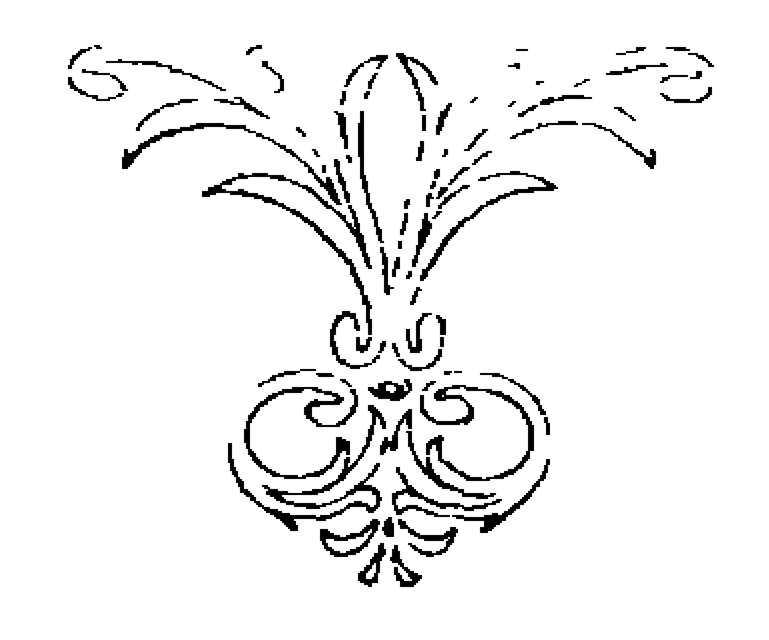
وبعد وقفة قصيرة حيال السرير غادرت القصر تحت ظلال الليل وانحدرت الى الشاطيء فاذا ذلك الزورق الذي حمل المنذر الى البيت المنعزل ينتظر معادها بعد رجعته فلما رأته همست في نفسها قائلة :

— سيعتقد الناس ان قيصر قد خالطه مس اليم ، وسيرون ان جبينه المضرج بالدم لم يعد حرياً بتاج يوستانيوس ثم رفعت صوتها صائحة الآن اصبح في مقدورك يا ليلى الكندية ان تمضي الى قصر تيودوس لايقاظ حرس غسان النيام الى قصر تيودوس ! الى قصر تيودوس .

قالت هذا كله ثم وثبت الى الزورق ، غير حافلة بالموج الذي يتدافع حوله، ولا مكترثة لصخب العاصفة. فاستقبلها الملاحون صامتين مطرقين فالتفتت الى كبيرهم وقالت له

— ناشدتك الله يا حنظلة ان تمضي بي الى ناحية الخليج .

فلم ينبس الرجل ولكنه اطرق فنم اطراقه عن احترامه هذه الارادة التي لا تغلب وبعد قليل تحرك الزورق في طريق الخليج تحف به ثورتان . ثورة السماء وثورة الدأماء



الفصل الثامن عشر
الى شواطيء كريسوبوليس

طافت ليلى الساحرة بقصر تيودوس وجاست عيناها خلال جناته فودعتها وداع من لايطمع في رجوع ، وداع روح تتالى عليه الألم في ناحية من نواحي العالم فعزف عنها رجاء ان يجد الشفاء في ناحية اخرى وقبل ان تصعد الزورق تحت انظار حرس غسان الكمي راحت ناشجة شاجنة ثم نظرت الى القصر نظرة اودعتها كل ما في حياتها من شجون وذكريات وصاحت :

« لقد كنت ايها القصر في الماضي الذي تصرم مثوى حبيبين كريمن اعتزلا العالم ليعيشا في ربواتك وتحت افيائك عيشاً يخالطه الشعر والغناء والحب والشباب فلما اطمأنت نفساهما الى هذا العيش المستحب والى القبل المعطرة والعناق اللذ خرجت عليهما من جدرك طيوف سوداء ما لبثت ان صوبت الي قلبيهما الخافقين حراباً مسمومة ، فحال مشهد الحياة المصحية الى مشهد غاتم ، واذا القبلة التي ولدت في مهد الشعر والعطر تتحول الى دمعة مرة.دمعة بائسة ولدت في الآلام والأحزان

ولم تقل اكثر من ذلك وكان شجنها بليغاً فحولت نظراتها الى الملاحين واستتلت قائلة:

« الى شواطيء كريسوبوليس! الى شواطيء كريسوبوليس .

ثم انحدرت الى الزورق الذي اكتظ بالحرس ورجال الحاشية وبعد قليل مضى الزورق يخترق العباب الطامي تحت سفائح التلال والربوات المعشوشبة الخصبة فلما تمكن من عبورها اذا هو يشق غلائل الموج في طريق الشواطيء الاسيوية وكانت مدينة كريسوبوليس تلوح عن بعد للناظرين فسرجوها اللطيف هذه السحب الداجية التي تطفو على قلب ليلى فاستأنست بالغابة الظليلة التي تحدق بالبيت المنعزل وضحكت لمشهد البرج العربي الذي ظل علامة على بأس جيوش العراق التي غزت ارض العدو الاجنبي

وكانت فرحة ليلى شديدة حينما وطئت اقدام الحرس ارض كريسوبوليس بعد طواف مذيب حول شواطيء مرمرا، فراحت تطري الملاحين الامناء الذين برعوا في مكافحة عناصر البحر الهائجة الثائرة حتى بلغوا ارض آسية الوارفة الظل، وفتحت ذراعيها لحنظلة الرجل الصامت الرهيب الذي ترأس هذه الغزوة الخطرة في بلاد اجنبية خرج منها ملوك وقواد لاخضاع بلاد العرب ولكنهم عادوا الى بلادهم وهم يحملون في صدورهم ذكريات الفشل والانكسار.

وتجلت لها في تلك الاثناء عظمة جزيرة العرب، بل لقد تمثلت ليـــلى وهي في ارض كريسوبوليس روعة الوطن العربي الذي استطاع ان يقبر الغزوات الاجنبية في صحرائه المشبوبة خلال عصور عدة فوثقت بقدرته على النهوض بالعمل الجليل الرائع ولاح لها ان في قدرة هذا الوطن الذي استطاع في مدة قليلة ان يقذف بالاحباش الى اعماق الدأماء والذي منع الرومان على ضخامة جيوشهم واتساع سلطانهم من عبور تخومه ان يغزو الارض الاجنبية. وان يقفل منهـــا واعلامه تخفق في كل فضاء.

واستعادت — وحنظلة الملاح لا يبرح بين ذراعيها — ذكرى تلك الاحاديث التي رواها الكهان والعرافون في الشام وفي جزيرة العرب عن بعث نبي عربي يرث ارض الرومان واليونان والفرس فخفق قلبها لهذه الذكرى واطمأنت الى وثبة قريبة تثبها جزيرة العرب لانقاذ الشام والعراق.

ثم تركت حنظلة وهي تتذوق لذة هذه الاحلام السارة الطروبة واتجهت الى خرس غسان قائلة:

—الى بيت انتيغون المنعزل ايها الفرسان فان الملك المنذر ينتظر معادكم في هذا المساء

ولما وضع الفرسان ايديهم على سيوفهم كانت لحركتهم هذه جرجرة عنيفة كجرجرة السيول. فتقدمتهم ليلى في طريق يدفع الى بيت انتيغون

* * *

الفصل التاسع عشر

في بيت انتيغون

لما وضع الملاحون ملك غسان على الشاطيء حيال البيت المنعزل في تلك الليلة الرهيبة التي شهدت جنون يوستينوس لم يتردد المنذر في الطواف حول حدائق ذلك المثوى المليء بالأسرار والخفايا ثم جاس خلالها وهو يفكر في روعة العمل الذي ندبت الساحرة نفسها للقيام به ، وكان يتوقع ان يرى في بيت انتيغون المنعزل مأساة جديدة قد تحمل الى نفسه التي لم تعرف السكون والدعة منذ وطئت قدماه ارض الرومان اشد مما حملته اليها تلك المأساة التي تراءت له في قصر الشالسيه .

لقد قالت له ليلى ان مارية تحتضر في المهد الذي استقبل ضحكها ولهوها وهي طفلة، وقالت له كذلك ان يوستينوس كان يفكر في ابعاده الى جزيرة بروتي فروعه كثيراً هذا الذي سمعه عن احتضار مارية ، واشجاه كثيراً ان يفكر قيصر في ابعاده الى جزيرة يلتف بها الماء من كل جانب ، بل لقد امضه كثيراً ان تتكاثر من حوله المؤآمرات وهو بعيد عن ارض غسان التي خلف فيها الحماة والكماة والفرسان .

ولكن هذه الهواجس المرة التي طغت على نفسه فنيت حينما تراءى له مدخل البيت المنعزل فعلم ان احلاماً جديدة راعبة ستثور في نفسه حيال المشهد الجديد الذي لا غنى له عن النظر اليه فتوغل في المنزل وطاف الأروقة والغرف وهو يعلم ان هبوطه المباغت على عمرو سيجيء بنتائج غير منتظرة ، ولكنه تردد في اختراق الحجرة التي كانت في الماضي محراباً مقدساً لعبادة امريء القيس بن حجر ، وانه لكذلك اذ سمع نشجاً أليماً ، فدله هذا النشج الأليم على الحقيقة التي لبث طويلا وهو يخافها ويتحاماها ، فوقف حيال باب الغرفة المغلق وأخذ ينصت الى ذلك النشيج المؤثر فخيل اليه انه يسمع خفق قلوب حزينة يعتصرها الألم والأسى ثم تلا ذلك

الخفق المتواصل بكاء شديد، وزفرات اشد فتمثل روعة هذه المأساة التي تحتويها الحجرة وادرك ان ابن عمه هو صاحب هذا البكاء الممض الوجيع .

ثم فتح الباب بيده الراعشة فانحسرت امامه الحجرة الغارقة في ظلمه راعبة فوقف على العتبة يتأمل تارة في عمرو الراكع عن كثب من سرير مارية وطوراً في جبين هند الأصفر الذابل. وكانت هذه الأخيرة في صمت رهيب تخللته روعة الموت فاستعرض كل ماحوته الحجرة من تماثيل وانصاب ودمى واسلحة ودروع وازهار وزخارف فعلم انه عن كثب من ذلك الوكر الذي اعتاد الملك الشاعر ان يفيء اليه مع حبيبته سيلفيا وادرك ان هذا المثوى الذي يمثل شيئاً من حياة قريرة وادعة حفلت بالحب ولذاذاته قد حال في هذا اليوم الى افق طافح بالضباب والبرد والثلوج والموت حتى لم يعد للحب فيه معاذ يستذري به وهو الذي يعلم ان الحب لايعيش في البرد ولا ينمو في ضباب الموت . وزمهريره اللاذع . . .

لقد كاد يبكي امام هذا المشهد . فمنعه الجلد البكاء. واراد قلبه على عصيان احساسه فظل كالتمثال يحدق الى هذا المشهد المؤثر حتى لقيت نظراته الحائرة نظرات عمرو الشاردة فاصطدم قلبه الذي حبس خفقانه بقلب عمرو الواله الملتاع . فخيل اليه انه مسوق الى التأثر بما يحيط به من هذه المشاهد المؤلمة فتقدم من عمرو باسطاً يديه ، ووثب عمرو اليه ويداه ممدودتان . ثم تقدم هذا خطوة : وتقدم الآخر خطوة حتى تلاقيا وحتى غاب الاول في ذراعي الثاني . وكان العناق الشجي الاطار البديع الذي جمع اليه هاتين الصورتين الكامدتين . . .

استفاقت هند من اغمائها على هذا المشهد فصاحت :

— مولاي الملك ؟

— هند !

— أأنت هنا منذ زمن طويل ؟

— لقد وصلت في هذه اللحظة . . .

— لعلك جئت الى هنا للاشتراك معنا في وداع هذه الشمس التي اخذت اشعتها الأخيرة تستفيض على هذه الأماكن قبل غروبها ..

— هند !

— مولاي ان موت مارية كارثة عظيمه !

— اماتت مارية ؟

— كلا ولكنها تحتضر !..

تقدم المنذر من سرير مارية وتفرس في جبينها فالفاه شاحباً مسفوعاً تغشاه غاشية موت بطيء والفتاة لاتبرح غريقة حلم بعيد . فكاد يجن لهذا المشهد وقد نسي مأساة قصر الشالسيه . ونسي كذلك تلك النذر الرهيبة التي هدده بها قيصر . ونسي احاديث الساحرة عن ازماع قيصر على نفيه الى جزيرة بروتي . ثم نسي حاشيته التي خلفها في قصر تيودوس فلم يعد يذكر غير هذه الصورة الجاهمة التي تراءت له في سرير المحتضرة !

ولم يكن موت مارية وحده الحافز الأول الذي اثار شعوره والهب احساسه فقد قام في الحق الى جانب هذا الحافز الذي ابتعثه نزع مارية حافز آخر جدد في نفسه ذكرى ذلك الموت البارد المقرور الذي لقيه امرؤ القيس بن حجر في جبال انقره المتوجة بالثلوج فوثق ان لموت مارية علاقة بموت ابيها وادرك ان مأساة اليوم ليست سوى تتمة محزنة لمأساة الأمس ! وخيل اليه ان الذين قتلوا الأب الشهيد لم يتورعوا عن قتل ابنته الشهيدة . وان الذين تآمروا على ابعاده الى جزيرة بروتي لن يطرحوا سلاحهم قبل ان يطمئنوا الى ابادة ملوك العرب واشرافهم فركع تحت تأثير هذه الهواجس التي تجاذبته حيال السرير وطفق يصلي هامساً ثم ارتفع صوته بالصلاة فاذا هو يقول :

« اللهم اني اسألك ان تنزع هذه السخائم التي تأكل الصدور في جزيرة العرب « فلعل قومي يفتحون عيونهم على بهائك فلا تمنعهم الظلمة الصمود للعدو الذي

« يحاول ان يدنس أرض الوطن باقذاره واوساخه ! ..

ونهض من صلاته وليس في روحه قليل او كثير من هـذا القلق الممض الذي نازعه حين دخوله الغرفة . كأن صلاته قد نفست عن صدره ، وكأنه وجـــد في حديثه الى الله اكثر من رجاء ، واجمل من عزاء ، ثم تقدم من هند الملتاعة وقال لها :

ـ لا انكر عليك هذا الأسى الوجيع الذي يريق دموعك ، ويثير رعشة قلبك فلقد كانت مارية احب الناس الى ابيك وكان الذين يرونهـــا في الحدائق والجنات يحفونها بمثل حب ابيها .

ـ واحسرتاه ! لقد احببتها في دمشق ثم احببتها في القسطنطينية . وكانت ميولنا ونزاوتنا ومشاعرنا متشابهة كذلك كانت صورتانا متشابهتين .

وكانت مارية مثلي لا تدرك معنى لهذا التوافق الذي لاح لها في الأهواء والصورة والأحساس فمضت تسأل قلبهـــا اي حافز يحفزه الي . وكنت انا من ناحية اخرى اشعر بمثل شعورها . والمح هذا التمـاثل الغريب في الأهواء والصور والأحساس فمضيت الى قلبي اسأله اي حافز يحفزه الى مارية .

وظل الحب ينمو في قلبينا حتى بلغ اشده وحتى لم يعد طفـلا سـاذجا . ولمـا طرحتنا النوى مطارحها في بلاد الرومان وصافحت نواظرنا آفاقاً جديدة وجبالا لا تماثل جبال وطننا اذا ذلك المعمى الذي بذلت الشيء الكثير في تفسيره ينكشف في اهون سبيل واذا تلك الحبيبة التي رأيت في صورتها خيال ابي وسمعت في صوتها صوته ونبراته تطلع علي اختاً ولدتها ليالي ابي الهائمة في بزنطية !

لما قالت لي الساحرة « خذي مارية بين ذراعيك فانها اختك » تهافت على التعسة الثمها واقبل فمها كمجنونة افقدها الفرح عقلها ورحت انتشق عبقهـــا وهي الزهرة الجديدة التي لقيت رواءها وبهاءها في الحب وفي القبل . ولم اكن ادري وارحمتاه اني شممت في المساء عطراً لم يكتب له البقاء الى الصبح ، انها اختي يامولاي ، انها اختي

ـ لقد عرفت تفاصيل هذه الحكاية المؤثرة من ليلى

— اقصت عليك ليلى اذن هذه الحكاية ؟ متى كان ذلك واين ؟

— في هذا المساء . في قصر الشالسيه ؟

— مولاي ماذا تقول ؟ اكانت ليلى في قصر الشالسيه ؟

— نعم وقد رأيتها وتحدثت اليها !

استفاق عمرو من ذهوله على هذا الحديث الذي اثار عاصفة من الخوف في قلب الفتاة وتقدم من المنذر قائلا :

— ولكن ليلى الساحرة كانت هنا في البيت المنعزل قبل حين فاي عاصفة حملتها على متونها الى الشالسيه ؟

— انها جاءت الي لتحسر عن مكيدة قيصر ..

فصاح عمرو مشدوهاً

— اكان قيصر يتآمر عليك ؟

— نعم كان قيصر يتآمر علي . وكان يتوخى ابعادي الى جزيرة بروتي ! ولكنه لم ينجح لأن ليلى الساحرة التي عاشت متصلة بقياصرة الرومان لم يفتها كثير او قليل من ذلك الصوت الضعيف الذي همس به يوستينوس فعلمت ان قيصر الذي خذله الحظ في ميادين الوغى يسعى الى نصر يغطي جبينه الشاحب المسفوع . ولما اوشك ان ينتهي بمؤامرته الى النصر الذي اراده لنفسه بدأت ليلى الساحرة غزوتهـا في قصره وامام سريره ! ؟

وهنا قص المنذر على هند وعمرو حادثة دخول ليلى الى قصر الشالسيه تحت ذوائب الغسق بينما حرس القصر يغطون في نومهم غطيط الثيران . وكذلك قص عليهما حادثة فراره على زورق اعدته الساحرة ليلى لنقله الى شواطيء آسيه وذكر لهما شيئاً كثيراً عن الملاحين الذين بلغوا به الشاطيء واطرى براعتهم في مقاومة عناصر الخضم الهائجة الثائرة .

وكان عمرو وهند ينصتان الى حديثه وهما غريقان في لجة احلام مخوفة اثارتها

حياة ليلى الحافلة بالاحاجي والخفايا .

ولم يتوغل المنذر في حديثه احتراماً لمشهد الفناء الذي يملأ الحجرة فسكت وجعل يتفرس في جبين مارية التي فتحت عينيها في تلك الاثناء واخذت تلقي نظراتها على جبين هؤلاء الثلاثة الذين يحدقون بسرير موتها .

وكانت الريح تهب في ذلك المساء على البوسفور ولها عصف وهدير . ثم احتدم هياج هذه الصرصر العاتية حتى شمل جميع النواحي وحتى خيل الى المنذر وعمرو ومارية ان البيت المنعزل يوشك ان يتداعى عند النظرة الاخيرة التي تلقيها مارية المحتضرة على مفاتن الطبيعة .

واستمرت العاصفة على عصفها وتكبيرها لحظات جمدت فيها العيون والقلوب من الرعب وفي النهاية ركع المنذر حيال سرير مارية وساوقه عمرو وهند في ركوعه وشرع الثلاثة يسألون الله الذي نشر حمايته على بلاد العرب في غضون الغارة الحبشية ان يرد العافية والشباب الى هذه الفتاة المريضة العليلة التي جاءت الرياح تقلق صفوها الاخير في لحظاتها الاخيرة .

ثم هدأت الرياح . وسكنت ثورة اللجج وغشي البحر العبوس المكفهر صفاء وسكون . ولما سجا الليل اخترق فرسان الملك حدائق البيت المنعزل تتقدمهم ليلى الساحرة وبعد قليل تجدد في الحجرة التي آوت مارية اليها في نزعها الأخير ذلك الحادث الأليم الذي حدث حين دخل المنذر الى الحجرة فان ليلى لم تكد تظهر على وصيد الباب . حتى لاح لها خيال مارية الناحل الناصل فتهافتت على سريرها يقرض قلبها ألم شديد فأثار حزنها لوعة عمرو وكمد هند . فعادا الى النشيج واستغرق هذا المشهد لحظات تتالى فيها خفق الأفئدة وصرير النفوس ثم غشي الحجرة صمت عميق وشخصت ابصار الثلاثة الى ليلى الساحرة التي وقفت حيال السرير لتتكلم وكانت عيناها مخضلتين بالدموع ولكن وجهها لم يركد ولم يفقد شيئاً من روائه فخيل الى المنذر انها عادت اليه بالنبأ الحافز المثير ووثق بتجشمها المخاطر في ذلك الليل الضرير

العبوس الذي ركبت متونه تحت الودق المنهمر رجاة الوصول الى قصر تيودوس الرابض على ضفاف الخليج .

وبغتة رفعت ليلى عينيها الى الملك المنذر وسألته قائلة :

— هل انت على استعداد للرجوع الى الشام يا مولاي ؟

فلم يفت المنذر مغزى هذا الذي ارادته الساحرة فشعر بقرب هبوب العاصفة الأخيرة التي ستحمله الى الوطن فحدج ليلى بنظر يضطرم ومضى قائلا :

— والحرس ؟

— إنهم هنا في هذا البيت .

فرعشت هند وخيل اليها ان ليلى تتصنع الهزل في حديثها ولكنها استوثقت من جدها حينما وقع نظرها على الملك المنذر الذي طفق يتكلم بلهجة فخمة عالية اذكرتها تلك اللهجة السامية المتكبرة التي خاطب بها غسان يوم ايابه من تدمر بعد انتصاره على جيوش الحيرة .

وكانت تعلم اشياء كثيرة عن كبرياء المنذر ولا يفوتها قليل من صفاته العالية وسلائقه الكريمة فجعلت تنظر اليه بعينين غائمتين وقلب راعش .

واستتلت ليلى الساحرة حديثها قائلة :

— نعم ان الحرس هنا . وفي قدرتك ان تسافر في هذه الليلة او في الصباح اذا شئت . لأن الطريق التي ستجتازها قد اصبحت خلاء من الرومان منذ صباح اليوم

فبهت المنذر لحديثها وسألها قائلا :

— لقد صيرني حديثك ذاهلا . .

— ليس في حديثي ما يذهل . فان قيصر قد جن في عشية الأمس فطفق يهيم على وجهه في حدائق القصر .

— ولكني تركت قيصر سليماً معافى .

— قد يكون هذا الذي تقوله صحيحاً . ولكنك نسيت سمومي . .

فارتمض المنذر ووضعت هند يدها على صدرها تمنع صريره . ومضى عمرو راعشاً قلقاً وقد انساه حديث الساحرة حبيبته الغارقة في النزع .

وتابع المنذر حديثه قائلا :

— لقد عرفت في هذه اللحظة لماذا كانت عيناك تنظران الى كأس يوستينوس بينما كان هذا التعس نائماً في سريره ، فصاحت ليلى :

— مولاي ان تيودورا لم تحس ارتعاشاً حينما صبت السم في كأس امريء القيس

— يخيل الي ان قلبك لم يرتعش حينما صب قيصر كأسه المترعة بالسم في جوفه المحترق

— لقد كنت قاسية كأفق بيزنطية القاسي .

— ولكنك اجترحت عملا عظيما .

— ولكنهم قتلوا ملكي ومولاي من قبل وتلذذوا بمشهده وهو يحتضر ويتألم.

— ألا تقولين لي من سلحك بسلاح الموت ؟

— سلحني الله ..

— وماذا حدث بعد جنة قيصر ؟

— ليتك كنت من شهود هذه المعركة التي قامت في ميدان اوغستون ! اذن لرأت عيناك كيف تمشى البغض في صدور البيزنطيين حتى اعمى عيونهم فنهدوا من بيوتهم وخلواتهم يسبون قيصر ويشتمونه.

مولاي ، في عشية الأمس طوى القضاء صفحة قديمة من حياة الرومان لينشر صفحة جديدة من حياة شعب منعته رمال الصحراء ان يدرك نصيبه من المجد والفتح،

— أتهزلين في حديثك ؟

— مولاي ان رهبان بصرى واحبار الشام قد قرأوا في كتبهم اشياء كثيرة عن ظهور نبي في جزيرة العرب .

— وهذا النبي الذي تتحدثين عنه اين هو الآن ؟

— لا أدري! ولكن الرهبان مضوا ينشرون في الناس علامات كثيرة على قرب ظهوره

— لعلك تعرفين بعض هذه العلامات ؟

— من هذه العلامات سقوط النسر الروماني في بيزنطية وانت تعلم ان يوستينوس آخر القياصرة .

— نسيت طيباريوس رئيس جنده ؟

— ان بطريرك الاسكندرية عدو لطيباريوس .

— وماذا يريد هذا البطريرك ؟

— يريد ما يريده جميع الاغريق في بيزنطية . انهم يهتفون في الشوارع بحياة قيصر اغريقي .

— اتريدين ان تقولي ان الفوضى ملكت على الناس البابهم .

— بعد ايام قليلة ستنشب المعارك في الشوارع بين جند قيصر والشعب لأن قواد الجيوش قد بدأوا التمرد منذ هذا الصباح فأنت ترى من هذا كله ان في قدرتك ان تواصل سفرك الى الشام .

— وهذه التعسة ؟

قال ذلك وأشار بيده الى سرير مارية .

فأطرقت ليلى تفكر وبعد قليل رفعت رأسها الى المنذر وهمست في اذنه قائلة :

— سيشيعها عمرو الى حفرتها ...

— وانت ؟

— لن ابرح هذه الحجرة قبل غروب هذه الشمس .

— وهند ؟

— ستبقى الى جانب عمرو . ثم نلحق بك جميعاً يا مولاي .

— ولكني اخشى ان يفطن الرومان الى تدابيرك وانت في معزل عن الرفاق والأصدقاء فلا تتردد نفوسهم التي تعودت التلذذ بمشهد الدماء المسفوحة في قتلك

فضحكت ليلى واستتلت قائلة :

ـــ انهم يقتتلون في الشوارع فليس في وسعهم ان يصلوا الي . قلت لك يا مولاي ان الطريق من كريسوبوليس الى انطاكية خلاء من جيوش قيصر فاذا واصلت سيرك من الفجر واسترحت فيانطاكية في قصر البطريرك امكنكبعد ايام ان تستأنف سيرك الى الشام وربما وجدت في البطريرك صديقاً حميماً تطمئن نفسك الى اخلاصه .

ـــ سأسافر في صباح الغد .

وحام المنذر حول سرير مارية الذاهلة الغارقة في احلام الموت ، ثم نظر الى وجهها الذابل نظرة المشفق الملتاع وهمس في نفسه قائلا :

ـــ لك الله ايتها الزهرة التي صوحها الألم حتى بدت عارية من العطر .

وراح يلثم جبينها المقرور وهي لا تشعر بحرارة انفاسه ، فقد ظلت وهي في نزعها الأشد سادرة حائرة لا تفقه شيئاً مما يجري حيال سريرها ، وكانت ذهلتها شديدة منعتها حتى الشعور بهمس الموت وترجيعه .

ثم غادر المنذر مكانه بالقرب من سرير مارية واقبل الى نافذة تطل على البحر ففتحها وطفق يتأمل في الخطوط الحمراء التي يرسمها الطفل على صفحات الموج الراقصة المتموجة . فبدت له لمحة من ذلك الزاخر الهزج .ثم امتد نظره الىالقصور والى الكرمات والخلوات المتناثرة في السهول وفي الجبال تحت سماء حمراء كالدهان ثم انفتحت امامه طريق مستطيلة تحوطها الأعناب واشجار السرو الشاحبة الكامدة فمضى ناظره يجول في مداها الفريغ وهو لا يعاف مشاهدها . ولا يمل خطوطها الملونة وكانت هذه الطريق المستطيلة طريقه في الغد الى الوطن الذي احبه .

ولذته هذه المشاهد الفاتنة فلم يرفع عينيه عنها فظل يحدق اليها وفمه مفتوح للنسيم العليل الذي تخالطه اعراف الصنوبر والنارنج والورد .

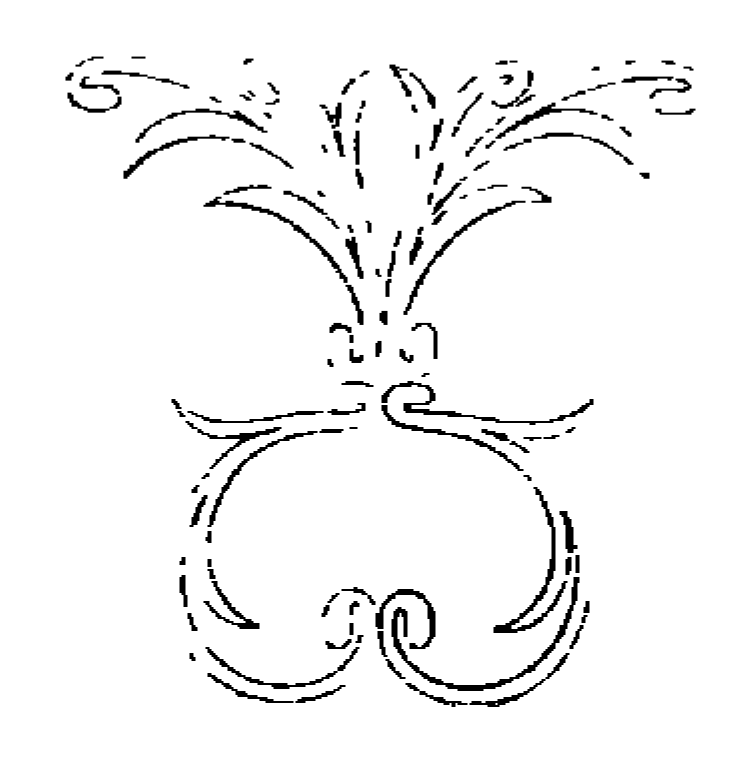
ثم انحى ناحية البوسفور فغمر نظره القصور والقباب والأبراج والكنائس والمعابد ولمح الخلجان والشعاب والأكواخ التي بناها الملاحون في السفائح،

وكذلك راح يتأمل في قصر تيودوس بينما الموج يتدافع على الصخور .

لقد استعرض جميع هذه المشاهد في لحظة واحدة قبل ان يبرح بيزنطية حتى زهد في التحديق اليها فترك النافذة وجاء الى ناحية عمرو وهند مودعاً ففتح عمرو ذراعيه ومضى يغمره بقبلات راعشة وكان الوداع شجياً مؤثرا .

وفي الصباح برح الملك المنذر البيت المنعزل يرافقه فرسان غسان فاجتاز هذا الموكب الذي دخل القسطنطينية قبل اسابيع محاطاً بهالة من مجد وكبرياء ذلك الدرب المستطيل الذي عرض للمنذر في العشية الفائتة وهو على النافذة .

وكانت ظلال الصباح الباردة اعلام هذا الموكب الذي خرج من الشام للبحث عن مجد جديد في البلاد الأجنبية فعاد اليها محمولاعلى اجنحة ذكريات ممضة مرهوبة



الفصل العشرون

صلاة مارية

اوشك شهر ايلول ان ينتهي ومارية في سريرها لم تبلغ النهاية التي تقف عندها حياتها المليئة بالأوجاع وكانت انوار الشمس التي تطفر الى حجرتها في كل صباح حلمها العذب الذي يحمل الى روحها الطعين بصيص حياة مرجوة ، ولكنه بصيص ضعيف لا تجد فيه تلك الحرارة التي تعيد النشاط والمرح الى جسدها المحطم كالهشيم

وفي كل صباح كانت ليلى تحمل اليها بعض ازهار الحديقة فتستفيق من ذهلتها لتضع على فمها هذه الرياحين المتضوعة المبللة بندى الفجر .

وكان عمرو من ناحية اخرى يقص عليها بعض القصص الطريفة المسلية رجاة ان يحملها على نسيان هواجس الموت التي تزدحم في نفسها فلا تمل هذه القصص التي تجيء في الغالب ممزوجة بأحاديث شهية عن الحب وعن الشباب .

وفي المساء حينما يعصف السعال بروحها اللطيفة وينفث صدرها المرتث دماً تغمض عينيها الذابلتين لتستعرض وهي بين ذراعي من تحب احلام حياتها العذاب التي بددها الألم واطفأها الاعياء والمرض والأرق .

وكانت احب القصص الى نفسها قصة حياة ابيها الذي مات وهي طفلة في المهد بل لقد كانت تجد في فصول هذه الحياة التي افناها صاحبها في مجد المعارك الحمراء وفي بهاء الشعر ورواء الحب عزاء لطيفاً ينسيها فكرة الفناء فتحس في هذه القصة الطريفة اللذيذة تجديداً لعافيتها الذاهبة ولشبابها الضائع .

وكانت هنالك لحظات في هدأة الليل تنفتح فيها ذكريات هذه البائسة فلا تتردد في عرض اشباح الليالي الماضيات في حياة ابيها ، فيشتد حنينها الى ذلك الغابر السعيد . وتدعو ليلى اليها لتسمعها الرائع المستحب من اشعار ابيها .

ففي عشية من هاته العشيات طغت سيول هذه الذكريات الموجعــة الممضة على مارية فاغمضت عينيها ونامت نوماً عميقاً بينما اخذ عمرو يستعرض مشاهد الطبيعة الفاتنة الساجية ، وبينـا ليلى وهند تنظران الى هذه الفريسة الجميلة نظرات رحيمة صافية وهما غير بعيدتين من منضدة صفت فوقهـا دروع امرىء القيس الملك الشاعر .

وحدث في تلك الأثناء ان اهتز سرير العليلة فاستفاق عمرو من ذهلته ، ووثبت هند وليلى الى السرير وهما تتساءلان عن معنى هذه الهزة العنيفة وقد خيل اليهما انها هزة الموت .

واكب الثلاثة على السرير ، فاذا مارية قد استفاقت وهي اشد ما تكون مرحاً وتوثباً وكانت عيناها طافحتين بلألاء بديع .

خيل الى هند ان الحياة العزيزة الغالية قد ردت الى اختها التي صوحها المرض واذبلها الداء فكادت تصرخ صراخ الفرح ولكن ليلى الساحرة منعتهـا الصراخ وارادتها على السكوت حتى لا يعبث فرحها بسكون هذه النفس الجافلة المروعة فسكتت ومضت تنظر الى مارية التي جلست الى سريرها وادعة قريرة كانهـا طفلة يلذها ان تحلم وان تضحك وما لبثت ان مدت يدها الى عمرو فتهافت عـلى السرير مترفقاً حادبا وتناول يدها الممدودة فوضعها على شفتيه وقد لاحت مـارية له فتانة ساحرة كما لاحت له في الايام الماضيات ولكن ليلى التي جعلت تنظر الى هذا المشهد لم تطمئن الى هذا المرح المباغت فرأت فيه نذيراً بقرب انطفاء اشعة الحياة في صدر العليلة وشد ما كانت ذهلتها حينما سمعت مارية تتحدث الى عمرو قائلة :

ــ الا يروقك ان نتذاكر العهد الذي مضى في جنات الشام ؟

ــ مارية !

ــ عمرو ! يروقني كثيراً ان نتذاكر عهد الهوى السالف ، ويلذني ان اتخيـل

الوان الصباح البهية ــ طوافنا بالغاب الفينان تحت سماء مصحية ساجية !

تخيل الى عمرو وهو ينصت الى كلمها انه في حلم فقد كانت مــارية التي لم تنبس منذ ليال شبحا زميتا ضاويا لايبدي ولا يعيد وكان الموت الصورة الفذة التي تترقرق في عينيها ، فاي خارقة من الخوارق ردت الى هذه العليلة العافية والشباب والكلام البارع اللذ ، بل اي خارقة نفضت عن العانية هذا الرماد الذي يذروه الموت .

لقد كان عمرو ينظر الى عينيها فيراهما ما زالتا كعهده بهما تطفحان حياة ومرحا ونشاطاً وكانت يدها وهي لاتبرح في يده تضطرم اضطراماً غريباً وقد امحت تلك البرودة التي صيرتها قبل اليوم كضريب الجبل وانه ليفكر في هذا التحول الذي طرأ على فتاته اذا مارية تقول زافرة !

ــ سيدي ! اعترف لك بضعفي فقد كنت مخطئة حينما ظننت ان الأزهـار التي تعيش على ضفاف النهر في دمشق في فصل الربيع الضاحك تستطيع الحياة والنماء على شواطيء مرمرا تحت فضاء تلفحه سحب غائمة . . . نعم لقد خيـل الي في المـاضي كزهرة تفتحت براعمها في وادي دمشق ان في قدرتي ان الاقي عنـاصر الفرح والنشاط والنماء في بزنطية . فلما احتواني هذا الأفق الصارد اذا هذا الشذا العطر الذي يطفر من اكمامي يموت ويضمحل . . .

ناشدتك الله ان تردني الى ذلك المنبت الأول حيث الشمس الدافئــة تحرك الأزهار في خمائلها ؛ وحيث هذه الأزهار تجد غذاءها ونماءها في بها الشمس . . .

ــ مارية !

ــ سيدي ! اتدري انني زهرة شـامية وان عطوري تموت رويداً رويداً تحت هذا الأفق الذي لايحمل قليلا من بهاء دمشق ؟

وحاولت ان تنهض فما استطاعت نهوضاً فسقطت على سريرهــا من الأعياء ولكنها ثابرت على حديثها قائلة :

ــ سر بي الى خميلة القصر فاني احب هذه الأزهار التي يرنحهـا الهواء الفاتر ،

واحب الشمس التي تصب الحياة في كل ناحية من نواحي العالم . . .

ــ ولكنك مريضة وفي حاجة الى الراحة والدعة !

ــ كلا ياسيدي ، فاني لم اعد مريضة ، فقد ردت الي عافيتي ، وثاب الي نشاطي الى الخميلة ياسيدي الى الخميلة .

ــ ولكن الليل ممدود الرواق والشمس نائمة .

ــ من نكد الأزهار انها تعيش في اشعة الشمس وليس في اشعة القمر . . الى الخميلة ياسيدي الى الخميلة ؛ فاني اريد ان اجلس الى ذلك الظل الرخي الممدود الذي جلس اليه ابي وامي في الأيام الماضيات ، واريد كذلك ان انظر الى هذه الكرمات الضاحكة المستبشرة التي تعرض للناس على شواطيء البوسفــور ، واريد ان انظر متلذذة الى مسفر الشمس والى مغيبها . . احب المغيب ، احبه كثيراً ، لأن انواره الكاسفة الكامدة شبيهة بنور حياتي المنطفيء الخابي . . الى الخميلة ياسيدي ، الى الخميلة

ــ ولكن برد المساء شديد ، والصرصر العاتية تحني الزهر وتلويه فهل تحبين الغرق في برد العاصفة وزمهريرها . .

ــ عدني اذن بالمضي الى الخميلة حينما تستفيق الشمس من رقدتها

ــ اعدك ، اعدك .

وراح يضمها الى صدره الراجف ، وعيناه نديتان بدمع .

في صباح اليوم التالي انتشرت في الافق الازرق نسمات رطبة ساجية ارعشت ازهار الخميلة واما لتها فاذا اعرافهـــا الذكية تطفح في كل ناحية من نواحي الافق وطلعت الشمس مبكرة فتراكضت اشعتها اللطيفة تلثم اشجار السرو والبلوط والصنوبر

وفي هذا الصباح خرجت مارية من حجرتها الى جنة القصر لتستمتع بالاشعة والظلال التي تلقيها الشمس الى البحر الساجي الراكد وكانت تمشي متبـــاطئة في موكب شاحب اسوان يتألف من ليلى وهند وعمرو .

ولما لاح البحر لعيني مارية متطامنـــا في زرقته وعرضت لها شطئانه الفيحاء

احست حياة جديدة تتمشى في صدرها فوضعت رأسها على كتفي عمرو الذي يسير الى جانبها وقالت له :

ــ ما اجمل الطبيعة في هذا الصباح ، بل ما اعظم خصبهـــا وثرائها في المشاهد اللذة ! . . . الا ترى الى الشمس وهي تضحك فوق الحقـــول والمراعي ، والى الاشجار المتهدلة والى الظلال الخضراء والى الازهار التي تزخر بالالوان الزاهية

بل ما اعذب هذه النسمات السادره في الافق انها لتهتز وتتمايد سكرى منزوفة ، ثم هي تلثم الازهار والبراعم ،وما ابهى هذا السكون الذي تغرق في عبابه نفس تطمئن الى الحب والى متعه الهنية . .

الطبيعة ايها الحبيب هي السعادة الباقية التي تتذوق جناها في هذه الحياة الدنيـا وهي كذلك الصديق المسلي الذي لا يجفونا في لحظات الألم والمرض والعياء .. بل هي الخليل الأحب الذي يرافقنا في طوافنا الأخير . .

تطلع الطبيعة علينا في المهد ، فنضحك لها اطفالا ابرياء ،وتصحبنا الى اللحد شباباً وشيوخاً مثقلين بالاسواء . انها لقيثارة بعض اوتارها للغناء وبعضها للبكاء .

لما ارتمضت نفسها من كثرة الطواف . وتعاورها رنح بليغ مضت تسأل ليلى معاذاً تستريح اليه وتطمئن الى فيئه ولكنها آثرت ان يكون مساقها الى تلك الناحية التي اعتاد ابوها في الماضي ان يخلدالها مع حبيبته سيلفيا .

فشت الساحرة بها الى سرادق جميل تعلوه قبة من الفسيفساء الملونة الأخاذة وقالت لها :

ــ هنا في هذا السرادق كانت لأبيك لقاءات هوى ، وزيارات صبابة ، وهنا في هذا المكان الأريض التى ابوك الشعر المستحب على حبيته سيلفيا وهنـــا في هذا الروض الحادر ولدت اول قبلة طبعها ابوك على جبين امك طفلة اسمهـــا ماربة ، فنظرت ابنة الربيع الثامن عشر الى الساحرة نظرة غائمة . وسألتها قائلة :

ــ أتقولين حقاً يا سيدتي ؟

وهنا في هذه المراتع الضحيانة احتبسك ابوك بين ذراعيه ، بينا كانت يداك الرقيقتان كغلالة الموج تعبثان بشعره ، وتلعبان بشعوره فجعل ينصت الى تغريدك ويستأنس بخيالك الذي رأى فيه خيال طفولته الذاهبة وكان يضمك الى صدره الراعش ، وامك عن كثب منه تتلذذ بحلاوة هذا المشهد ، فصاحت مارية زافرة .

— أواه ليخيل الي وانا جد دانية من مسفر احلامه ان طيفه يطفر نحوي ، حتى ليكاد يلطمني وان كلماته تثب الى مسمعي حتى لتوشك ان تهزني .

وحاولت ان تمضي في حديثها الى النهاية فخذلها وهنها فسقطت على مقعد من المرمر في داخل السرادق وجلست هند الأسوانة الملتاعة الى جانبها تمسح عبراتها المرسلة وراح عمرو ينتبذ ناحية الى جانب ليلى الساحرة وشخص الجميع الى هذه الريحانة التي اشفت على الذبول وهم يسمعون زفراتها الأخيرة .

ولم يكن في قدرة عمرو ان يمضي متجلداً . فلقد حطمه الحزن حتى عاد مخلوقاً جديداً ، ومع ان مارية كانت تعيش منه على مقربة ، وكان صوتها يتسلل الى اذنيه عذباً سائغاً فقد احس نهايتها وشعر بقرب انطفاء اشعتها .

فأشجاه ان تموت هذه الانسانة التي جمد على حبها هذه الموتة الجافة القاسية وهي بعد في شبابها الرائع فأمسك رأسه بيديه مطرقاً واجماً ، وهند التي شرعت تنظر الى مغيب هذه الشمس في رونق الصبح لم تكن اقل التياعاً منه . بل كانت شريكته في اساه وفجيعته ، وكانت كذلك تحس احساسه وتشعر بشعوره . وكم كان يشجيها ان تركد الحياة في جانحتي هذه الفتاة التي خلفها ابوها في الأرض الأجنبية كارث ثمين تلتقي فيه ايامه الراغدة .

وكانت ليلى تعاني هذا الأسى الذي يعانيه عمرو ومارية ، ولكنها كانت تنظر الى ليل الموت المطرد راكضاً الى عيني مارية فلا تستطيع وقف زحفه الحثيث .

تتالت لحظات موجعات على مارية فبرح بها سعال شديد ، اطفر صدرها من شدة الألم فبصقت نجيعاً قانياً ، ثم تجدد هذا السعال حتى اوشك ان يهدها هدا ،

نخفت صوتها . وضاعت نبراته في صدرها القريح .

وبينما كانت الطبيعة تضحـك لزرقة السماء وزرقة الدأماء والزوارق تحمل من شواطيء البوسفور الآسيوية الى شواطئه الأوربية المحبين الوالهين في الصبح الساجي بينما كانت الحان هؤلاء السكارى المنزوفين من خمرة الحب ورحيق الهوى المختوم تترع الفضاء جعلت مارية تضغط بيدها على يدي ليلى صائحة :

ــ انها النهاية . حدثيني عن ابي . .حدثيني عن امريء القيس بن حجر ملك كندة حدثيني عن الشام ، عن جزيرة العرب ، عن ذلك النبي الذي سيخرج من مكة الى العالم .

فسكتت الساحرة ومضت تغرق نفسها في هاجس الهم كأن حديث مارية قد استجاش خواطرها النائمة فلم يرق صمتها مارية فألقت رأسها على صدر عمرو ونظرت اليه نظرة اودعتها كل ما في قلبها الرثيث من ألم وغم وضنى ويأس . فارتاع عمرو لمشهدها فقال لها شاجناً .

ــ صفحاً يا حبيبتي صفحاً ، ان نظراتك هذه ترعشني .

فابتسمت وقالت له :

لماذا تسألني الصفح ولست ذلك المذنب الملح في اجتراح الذنب ، ولماذا هذا البؤس الذي يخيم على نفسك الفتية ؟

ــ مارية ! لا احب هذه اللغة البائسة التي تتحدثين بها الي . لقد كنت في الماضي تتحدثين بلغة فرحة قريرة . هي لغة الحياة التي يجددها الحب والمرح . .

ــ نعم ! نعم ! كنت اتحدث اليك بلغة الحياة والحب والمرح ، يوم كانت الحياة تتدفق في كل ناحية من نواحي نفسي . ويوم كان الرجاء العذب يحملني على جناحيه الى فضاء الحب الأفيح ، ولكن الموت . الموت الرائع الذي يلاحقني قد حبب الى نفسي لغة يفهمها القبر ويعقلها العدم .

لها الله من شهيدة .

لقد كانت تتكلم والموت يلوح في نظراتها الحلوة الرقيقة ، في صوتها العذب ،

في عينيها الساجيتين ، في جسمها البض .

واستتلت قائلة :

— ما قسوت في حياتي . فلماذا تقسو ليلى علي ؟ لقد سألتها ان تعيد على سمعي حديثها عن ابي . وحديثها عن المجد ، وسألتها كذلك ان نقص علي قصة ذلك النبي الذي ينتظر الناس معاده في بلاد العرب ، نعم سألتها هذا كله ولكنها بقيت ساكتة كهذا الأفق الذي لا أحبه .

فحولت ليلى نظراتها الى ناحية مارية وقالت لها :

— ولكنك عليلة وفي حاجة الى الدعة والى الصفو ، وهذه الأحاديث التي تلحفين في الاصغاء اليها قد لا تحمل الى نفسك العزاء .

— ولكني احب الماضي ، احبه كثيراً لأن ربيعه الذاهب قد ترك في نفسي اثراً من أريج فواح وكلما استعدت خياله في خاطري الملتهب المشبوب يخيل الي ان طفولتي التي احتواها عبابه الزاخر تعود الي بأعوامي وأيامي ولعبي وضحكي ، ان في الماضي الذي سألتك بعثه وتجديده صورة صحيحة لذلك البيت الذي اشتمل على مهدي وعلى قبلات امي الساهرة الأرقة الى جانب ذلك المهد .

ناشدتك الله ان تقصي علي حديث الماضي ، نعم حدثيني عن الماضي ، عن ابي وامي ، ثم حدثيني عن المستقبل وعن ذلك النبي الذي سيخرج من جزيرة العرب الى العالم .

واغمضت عينيها لتفتحهما في حلم لذيذ عرض لها وهي تحتضر ثم همست قائلة :

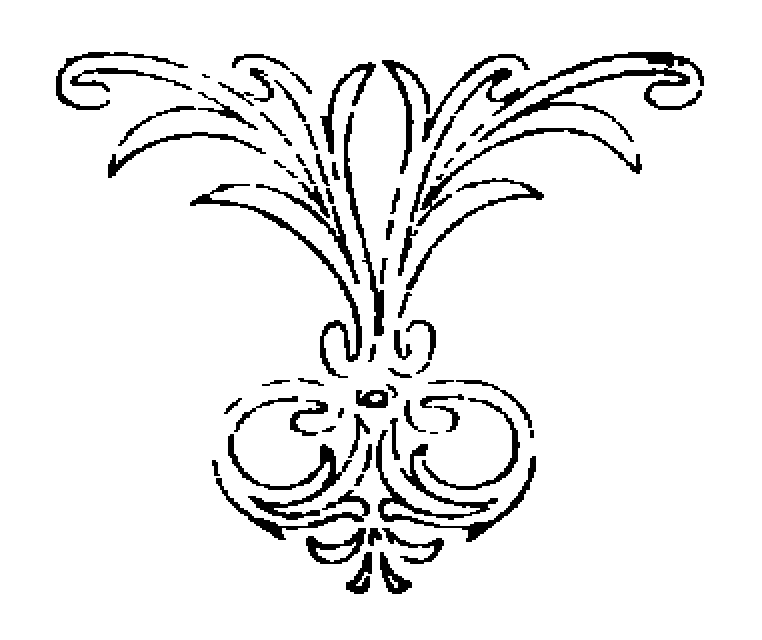
« هذه هي أمي .. انها تمشي الي متباطئة . لقد بلغت مهدي .. فتحت فمها .. انها تهمس في اذني همساً لذيذاً مستحباً يخالطه نشيج وبكاء وقبل .

وفتحت عينيها بعد تلك الاغماضة القصيرة واردفت قائلة :

« يخيل الي ان الله يستحث خطواتي اليه ولكني لا احب لقاءه قبل ان اتذوق جنى احاديثك المعسولة .

الحياة على رحبها وامتدادها خيام منصوبة تحت فضاء واسع تتقـاذفه الرياح فاذا حميت سورة العاصفة اقتلعت الخيام في طريقها

اواه ! لقد صوح الألم اوراق ايامي فشحب لونها وهي لا تبرح في غضـارة الأزهار وما زلت اموت في كل لحظة بل في كل ومضة ، اموت في الفكر الملح في الهاجس المر في الحلم المضمحل في اليقظة المتجددة ، في تأملاتي . في الصبـاح . في المساء . ومع انني شابة ، ومع ان ايامي لم تكمل حصادها بعد : فان نفسي لنزاعة وهي في غرق الفناء الى الوقوف على اطلال حياتي الماضية ، وكذلك تنزع نفسي الى الأرض القديمة التي ولد فيها ابي ؛ الى جبال جزيرة العرب : الى تلك الأرض المقدسة التي يسمونها ارض الشام . اي ليلى حدثيني عن امريء القيس ، حدثيني عن جزيرة العرب . حدثيني عن ابي ؟.



الفصل الحادي والعشرون

امرؤ القيس وتيودورا

لم تستطع ليلى ان تكافح اعصار الرحمة التي طغت على نواحي نفسها في هذه اللحظة فازمعت الخروج من صمتها الطويل واحبت ان تتحدث الى مارية عن ماضي ابيها فلعل بعض صور هذا الماضي تخلع عليها العافية والشباب والأمل .

وكان سرير مارية لايبرح نديا بالورد الذي نثرته الساحرة في ذلك المساء المضيء الساجي ، فجلست ليلى عن كثب منه وراحت تدغدغ يدي مارية العليلة المريضة وتمسح وجهها الذابل . ثم بدأت حديثها عن امريء القيس .

«دعا يوستانيوس قيصر الملك الحارث بن جبلة وامرأ القيس بن حجر الى ليلة ساهرة بارعة في قصر دافنه الرابض على ضفاف البوسفور . وكان قيصر الذي اولع ولعاً شديداً بمشاهد الحياة الرافهة الراغدة قد اراد اشراف بزنطية وعظماءها وبطاركتها على الظهور في القصر الى جانب حاشيته . وحاشية زوجه تيودورا . فخف هؤلاء العظماء الى القصر وعليهم الحلي والحلل . والتيجان وفي ايديهم صوالجة من الذهب الصراح وكانت اللآلىء المجلوبة من عدن والبحرين والهند تومض على صدور الحسان والوصائف بينما ذهب العالم كله يتراءى على السقوف والعمد والاقواس والحنايا . وكان ابوك يامارية في قبائه الازرق ، وخوذته الذهبيه . وشبابه الرائع وحديثه اللذ جمال هذه الليلة الساهرة التي شهدها عشرة من فتيان كندة بزعامة حنظلة الغطريف !

وكنت انا في قلب هذه الحاشية الكريمة . فلم تفارق عيناي اباك لحظة واحدة !

لقد كان غرض قيصر من هذا المهرجان الذي حشد فيه مفاتن بزنطية وعجائبها ان يبهر ضيوفه ، فتعود نفوسهم مملوءة بجمال القيصرية وسلطانها على العالم ففطن الحارث بن جبلة الى هذا الامر ، فرعش ولكنه آثر الصمت ، وفي تلك الأثناء

دخل قيصر قاعة القصر الكبرى تلتف به حاشية رفيعةمن بطاركة الكنيسةوبطارقة الجيش ، فلما وقعت عيناه على ابيك طفر اليه حاسراً عن ابتسامة عذبة رقيقة ، ثم مشى بهالىبطارقة الجيش وقدمه الى قائديه بلزاريوس وستيلكون. ثم قربه من بطريق انطاكية ، وبطريق نيكوموديا ، وبطريق نيسه ، ثم عرضـــه على البطريرك ايتوشويوس ، ثم طاف به على الاميرات والنبيلات ، وامرؤ القيس ينظر الى هذه الصور وهو ساكت كالصحراء . .

وبعد قليل وفدت تيودورا على القصر في موكب يتألف من صنائعها وعشاقها ! ياللخجل ! لقد رأيت الى جانب تيودورا ساعة اخترقت فناء قصر دافنه ذلك اللص يوحنا الكابودسياني . فواريت وجهي بكفي حـــتى لا اديم النظر الى طلعة الرجل الذي نبت في المنبت السوء والذي بلغ اعلى المراتب في الدولة عن طريق الدسائس والحيل والتزوير (١)

وكان يوستانيوس يكره هذا الرجل كرها شديداً فما ان صافحت عيناه عينيهحتى استحيا من الجماهير . فاخذ يتلهى بالحديث الى الملك الحـارث ! ورأيت كذلك الى جانب تيودورا ذلك الافاق تريبونيان (٢) الذي اغدق الالقـــاب الرفيعة على الفلاحين والرعاع لقاء ما اصابه من عطـاياهم وهداياهم ، ثم رأيت تيودورا تمشي الى العرش وهي مستندة الى ذراع ذلك المرابي الدمشقي يوحنـــا البرصومي (٣) وكان جميع من في القصر يعرفون ولعها بهذا الفتى الرائع الحسن الذي نشر سلطانه على بيت المال في الدولة (٤)

---

(١) التاريخ العام لارنست لافيس وارمان رامبو ج ١ ص ١٧٧

(٢) و (٣) و (٤) التاريخ العام لارنست لافيس وارمان رامبو ج ١ ص ١٢٧ ويقول لافيس ان الشعب البيزنطي في سنة « ٥٤١ » ثار ثورة عنيفة على تريبونيان واراد تيودورا على طرده ففعلت : ثم اعادته الى القصر بعد ان هدأت العاصفـــة .

واخذت تيودورا تضحك ضحكة عابثة فاذكرني ضحكها ماضيها الحافل بالنزوات والشهوات فرحت الى ذلك الماضي البعيد : استعرض في جوانبه حياة امرأة فاجرة اصطنعت جمالها في السيطرة على الدين والدنيا ! فمن هي تيودورا هذه؟

مات كاشياس العجوز مربي الخنازير في جزيرة قبرص مساء يوم شديد الرعود غزير المطر ، مدلهم الأفق ، وخلف في الحظيرة البائسة التي امضى حياته الشقية تحت سقفها البالي بناته الثلاث وامرأته العانية العليلة . فلما رأت الام ان مقامها بقبرص لم يعد مستساغاً بعد موت بعلها ارادت بناتها الثلاث على المضي الى القسطنطينية رجاة ان يعن الأزهار على جمهور اللاعبين والمتفرجين في ساحة ايبودروم !

وكانت الفتيات الثلاث ينعمن بجمال بارع فما ان ابصرهن روماليوس صاحب الملعب حتى ضمهن اليه وحتى اتخذ كوميتو شقيقة تيودورا الكبرى حبيبة وعشيقة فلبثت الأختان الى جانب كوميتو فعلمتهما هذه الدعارة والفسق ، فانقلبتا الى شباب القسطنطينية وراحتا تفتشان عن الحب والقبل في الخلوات البعيدة حيال شواطيء مرمرا

وبعد سنة من هذه الحياة الحافلة بالرذائل احبت تيودورا جنديا من جنود الامبراطور يوستينوس الاول . فاولع بها واولعت به ، وكان حصاد هذا الحب طفلا رمت به تيودورا في ليلة مولده الى الشوارع ثم هربت الى الاسكندرية فلبثت فيها خمساً من السنين . فلما لم يرقها العيش في هذه المدينة عادت الى القسطنطينية وظهرت من جديد على ملعب ايبودروم فافتتن بها يوستانيوس الشاب الذي جعله خاله يوستينوس الاول وريثاً له على عرش بزنطية !

في اللقاءة الاولى بين الأمير الشاب والراقصة الفاجرة شعر يوستانيوس بجذوة تلك القبل التي طبعتها تيودورا على جبينه ، فاارادها على ترك الملعب ، وامضه ان تذبل هذه الزهرة العابقة في احياء بزنطية الحقيرة ! وفي اللقاءة الثانية اعترف يوستانيوس امام تيودورا بعزمه على الاقتران بها فتهلل وجهها واشرق , وتركت منزلها في احياء القسطنطينية القذرة ، وسكنت قصراً صغيراً على شاطيء القرن الذهبي!

ولما علم الامبراطور يوستينوس الاول بعزم ابن اخته على الاقتران بالراقصة قص الخبر على زوجه الامبراطورة اوفيميا فمانعت فيهذا الزواج ورأت فيهمايمس تقاليد القيصرية.ولكنحدث في ذات عشية ان ماتتاوفيميا موتة غريبة، ثم لحقت بها في نفس العشية والدة يوستانيوس فشجي الامبراطور لموت امرأته ولموتاخته في ليلة واحدة فصارح ابناخته يوستانيوسبعزمه علىهجرالعرشولكنيوستانيوس كان شاباً عنيداً فانذر خاله بترك البلاد اذا هوظل مصراً على معارضته في الاقتران بتيودورا وكان قيصر يخاف هذا الفتى الشديد العنيد فاجابه الى رجائه وزوجه تيودورا بعد ان استشار مجلس الشيوخ (١)

هذه هي خلاصة حياة تيودورا التي سقت اوفيميا ووالدة يوستانيوس السم الذعاف قبل صعودها العرش بليلة واحدة !

لقد كان جميع من في القصر يكرهون هذه المرأة الفاجرة ، ولكن واحداً من هؤلاء لم يكن يستطيع ان يمتد اليها باذى ، ذلك لأنها كانتمسلحة بسلاح الكنيسة وكان البطاركة من جنودها !

ولما جلست تيودورا في قصر دافنه علىالعرش ، ابت الا ان يجلس امرؤالقيس بينها وبين ابنتها سيلفيا وهي فتاة في سن سبع عشرة . وفي تلك الأثناء وفد على القصر نونوزو السوري سفير انستاس قيصر الى حجر سيدآل كندة (٢)

---

(١) تاريخ جوستنيان وتيودورا لبازيللي فروتي ج ١ ص ٢٢٢

(٢) كان نونوزو اونوزوسيوس سوريا يهوديا وكان على جانب من المهارة السياسية . وهو الى هذا ذلك مؤرخ كبير وقد عهد اليه قياصرة الرومان بسفارات متعددة في بلاد العرب فبعث به الامبراطور انستاس الى قصر الملك المنذر الثالث ملك العراق اللخمي . ليفاوضه بشأن اخلاء سبيل ثلاثة من كبار القواد البزنطيين سقطوا في الأسر « سنة ٥٢٠ » ثم ارسل مرة اخرى بسفارة الى قيس بن الحارث فيلارك كندة وقبائل معد Kaisos, fils d'Arétas، وبعث به جوستنيان او



تيودورا زوج جوستنيان وعاشقة امريء القيس مع حاشيتها في قصر الشالسية

وفيلارك البلقاء ، ثم اقبل بركوب المؤرخ وعدو تيودورا الألد ؛ فالتحق هـذان الرجلان بقيصر وحاشيته !

وهنا شرع الحارث بن جبلة يتكلم على انتصاراته في العراق وفارس بلغةانيسة حببته الى كل نفس فمضى الناس يستمعون له ، ثم انتقل من وصف غاراته وغزواته في ارض العدو الى تقديم ابيك الى اصدقاء قيصر وقواده ، فاراد هـؤلاء الذين استهواهم جمال سيد كندة اباك على الكلام فنهض تحفه قلوب وعيون ! وكانت تيودورا خلال ذلك قد عافت مكانها وراحت تفتش عن عشيقها في الجماهير ، فاخذ ابوك يتكلم والحارث بن جبلة ينقل احاديثه واشعاره الى لغة الاغريق،وسيلفيا ابنة يوستانيوس وتيودورا تصفق بيديها لذلك الشعر الذي جمع الى الحب الشباب والأمل والعطر !

« ولما وصف امرؤ القيس خروجه للثأر بأبيه في ليلة غدراء من ليالي جزيرة « العرب وانتهى به الوصف الى ذكر المنذر ملك العراق ومطاردته اياه في كل « ناحية استفاض الحنين في صدره فذكر الطلول العافيات التي خلفها في ارض « آبائه ثم خلص من هذا كله الى التغني بسلائق ملوك غسان وحمايتهم له من ملوك « العراق ولم ينس ذلك العربي الذي اودعه دروعه قبل سفره الى بيزنطية حتى اذا « نزل الحارث بن ظالم الشام مطالباً بتلك الدروع باسم ملك العراق آثر السموأل « النار على العار . وفضل ان يقتل ابنه على مرأى ومسمع منه .

« هذه القصص التي رواها ابوك في تلك العشية الساهرة استهوت قلب تلك « الفتاة سيلفيا فشعرت وهي الفتاة التي لم يخفق قلبها لحب بمولود جديد يطفر في « قلبها وكان اسم هذا المولود الحب .

يوستانيوس سفيراً الى الحبشة وكان كذلك سفيراً لقيصر في قصر حجر بن الحارث والد امريء القيس واسمه عند الروم Ogaros fils d'Arétas

كتاب بطرا والنبط لكامرر ج ١ ص ٣٣٢ .

« بلى لقد ولد الحب وترعرع في تلك العشية التي توافد فيها الناس من كل فج عميق« للاستمتاع بشعر ابيك واحاديثه العذاب عن ملاحمه في بني اسد وفي العراق .

« وبينا كان المدعوون الى قصر دافئة يتسامرون حول موائد الخمر ، وقيصر « يتحدث الى الحارث بن جبلة في ناحية قصية من القصر وتيودورا بين ذراعي حبيبها « الدمشقي يوحنا لا تحسب للعالم الذي يحيط بها حسابا جعلت سيلفيا تبحث عن « ابيك في الزائرين وهي لا تستطيع خنق طفل الحب الذي اخذ يثب في صدرها .

« ولكنها لم تتعب كثيراً في البحث عن ضالتها فلقيت الملك الشاعر . وهو « واقف على نافذة منعزله وقد اخذ يصب تأملاته في البحر ، فترددت في الاقتراب منه ومنعها الحياة « ان تهمس ولو همسة صغيرة .

« ما ذا كان يفعل هذا الفارس الشاعر وهو على النافذة يحدق الى البحر ؟ واي « هاجس حمله في تلك الليلة على الاصغاء الى هدير الموج تحت فضاء بيزنطية المغدر؟

« جعلت الفتاة سيلفيا تفكر في الأمر الذي حفز الفارس العربي الى النافذة بينما « جميع من في القصر ينعمون بمراح ويتلذذون براح . وبينما يعيش العطر والشعر « والنغم العذب والحب في الغرف وتحت القباب والأقواس والقناطر المرمرية

لعل ذكريات الوطن الأول قد استفاقت في نفس هذا الشاعر الذي تحدث منذ هنيهة عن الصحراء وعن الجبال والمدن الوارفة الظل في جزيرة العرب وفي الشام ، فرأى نفسه وهو في بيزنطية تحت افق جديد لم يعرفه من قبل غريباً بين غرباء لا يحسون هذا الاحساس الذي يتغاير في صدره . بل لعل ذكريات وطنه الأول هي التي اثارته فمضى الى النافذة يريق دمعه في معزل عن العيون التي كانت تحدجه حدجات مليئة بالاعجاب والغيرة والحسد .

وكان صعباً على سيلفيا ان تذهب في ظنونها الى غير ناحية وطن الشاعر لأنها صغيرة لم تتعرف بعد الى الرجال ولم تلبس هذه الشواعر التي تروح زاخرة جائشة في نفوسهم .

وفي تلك الأثناء — وسيلفيا تفكر في امريء القيس الغارق في تأملاته — طفق الشاعر انطونيو لافوسكا الذي اعتاد يوستانيوس ان يدعوه الى القصر في لياليه الساهرة يعزف على المعزف قطعة غناء بديعة من نظمه فتقاطر المدعوون الى الشاعر النابه يستمعون الى نشيده ويصغون الى ترديده وينظرون اليه حانياً على قيثاره وهم بين حين وآخر يغلون في التصفيق له . ويسرفون في اعجابهم بقدرته على استثارة الاحساس . ومع ان لافوسكا كان في بيزنطية الرجل النابه اللامع . والعبقري الذي صفقت له رافين وروما قبل ان تصفق له القسطنطينية فقد ظل قلب امرؤ القيس مغلقاً جامداً لا يتحرك لنغم ولا يتأثر بنشيد

وسيلفيا التي كانت تحب النشيد وتستسيغه والتي كان لا فوسكا يهز قلبها الشاب بالرقيق الحلو من اشعاره والأنيق المستحب من أثاره . أخذت في تلك الساعة — وهي تنظر الى وقفة ابن حجر — تتأثر وتترنح تحت اهتزاز يد العازف وأخذ قلبها الذي لم يكن يفهم ويعقل ينفتح على هذه المشاهد التي تراءت لها وكان طبيعياً والحب والشعر والعطر عن كثب منها ان يتحول قلبها الذي لايدرك ولا يفهم الى قلب يدرك ويفهم . وكانت بداية هذا الفهم تركها الحياء الذي خامرها منذ لحظات فأقبلت الى ناحية امريء القيس هامسة :

— مولاي !..

فالتفت ابوك يا مارية الى مصدر الصوت الرقيق الناعم الذي هزه هزاً فاذا عيناه تصالحان عيني سيلفيا فنظر اليها نظرة الطفل الساذج ومضى قائلا :

— مولاتي الأميرة! ..

— لماذا تطيل النظر الى البحر في هذا الليل افلا تخشى هذا البرد الشديد الذي لا تعرفه صحراء وطنك ؟

فقال لها :

— لقد سكنت نفسي الى البحر واطمأنت الى ثبجه المتدافع . اما البرد الذي

صرت تخافينه وتحذرينه فقد الفته وصحبته في منفاي .

— ولكني اراك تتفرس في اشيـــاء بعيـدة لاترى بينما جميع النـاس يستمعون الى لافوسكا الشاعر !.. فهل أثارت هذه الغربة عواطفك وهزتهـــا الى وطنك الأول ؟ معك حق فان في الصحراء من المشاهد ما يلذ ويبهج . وفي وسوسة الجداول الصغيرة في سهول وطنك ما هو امتع من انشاد لافوسكا وأطرب وسماء الشام اطيب عرفاً من سماء بيزنطية المغدرة .

فتنهد ابوك يا مارية وأجاب قائلا :

— نعم ! ان عيني تبحثان في هذا الأزرق الرجراج عن شيء تطمئن اليه نفسي الواجفة الراجفة ولكن ثقي ايتها المليحة ان لا صحراء وطني ولا مشهد الرعاة الذين يتسلقون الجبال للعثور على الأعشاب . ولا جلبة الفرسان الذين يدافعون عن الكرامة في العراق والشام والحجاز . ولا صليل السيوف وصهيل الخيول . حتى ولا سوق عكاظ التي يفد اليها كل شاعر نابه في جزيرة العرب ثقي . جيداً ان جميع هذه الصور التي يترقرق فيها خيال الوطن القديم ليست مثاراً لتأملاتي في هذه الليلة

— اذن فانت تفكر في شيء جديد لاصلة له بمهدك الأول .

— نعم !

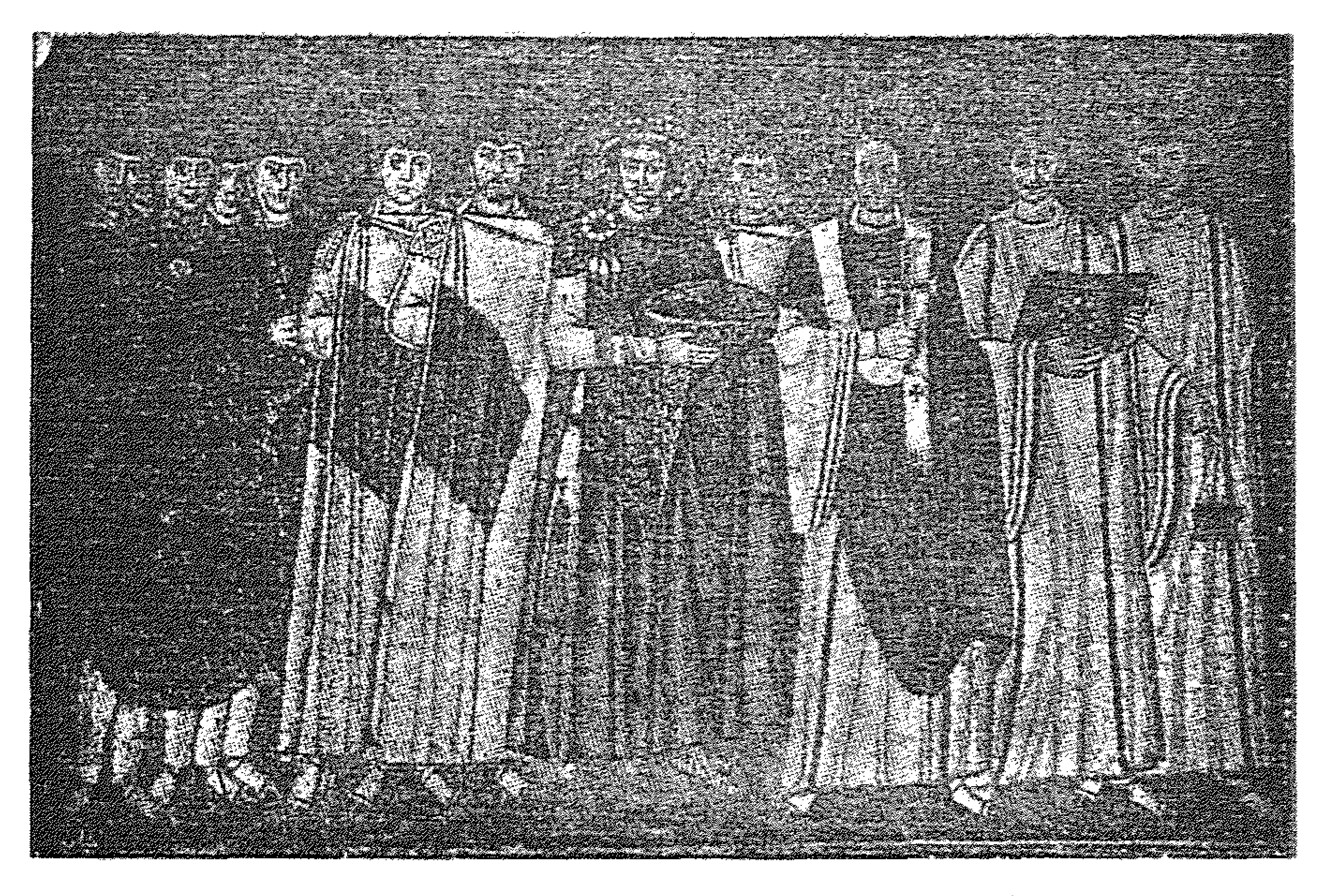
— ناشدتك الله ان تحسر عن هذا الشيء الذي تفكر فيه ؟

قالت له سيلفيـــا ذلك وهي لا تبرح ترعش تحت تأثير اغاني لافوسكا فأجابها امرؤ للقيس :

— افكر في صورة بديعة ، في صورة فتانة عرضت لي وانا احدق الى هذه الشواطيء في وسوسة المياه . في بهاء الأفق . في الزهر اليـانع الرقيق الذي يهتز في الخمائل الخضراء .

— لمن هذه الصورة التي رأيتها في الأفق والزهر ؟

وكان قلبها يخفق فمدت يدها الى امريء القيس وهي لا تدري اي حافز يحفزها



يوستانيوس قيصر (جوستنيان) وحاشيته في قصر الشالسيه

اليه . ثم شدت على يده شدة مؤلمة وقالت :

— قل لي لمن هي تلك الصورة ؟

فصاح :

— انها صورتك يا سيلفيا . فلقد كنت اراك وانت تصغين الى اشعاري والى حديثي عن ملاحمي ومعاركي فكنت المح في عينيك الصافيتين شيئاً مقدساً اسمه الحب

وكادت النعسة الا تصدق هذا الذي سمعته فكررت سؤالها قائلة :

— لمن هي تلك الصورة ؟

— هي صورتك ايتها المليحة .

اذن فليست ذكريات الوطن الأول هي التي حفزته الى الوقوف على النافذة واذن فقد كانت صورتها شغله الشاغل بينما من في القصر يستمعون الى غناء لافوسكا وبينما الامبراطورة تيودورا زوجة قيصر العظيم تتهادى بين ذراعي حبيبها يوحنا السوري وبينما يوستانيوس قاهر الفرس في ثلاثين ملحمة من الملاحم وعظيم الشرق ينصت الى احاديث الحارث بن جبلة ملك غسان .

وهنا امتنعت ليلى عن الكلام ووقفت تنظر الى مارية التي اخذت تذوب رقة وحناناً تحت تأثير هذه القصة التي عرضت لها جانباً من حياة أبيها وأمها وكانت هند في خلال ذلك تذرف دمعها تذرافاً اليماً ولكنها ظلت صامتة .

ورفعت مارية عينيها الى ليلى قائلة :

— إقرأي لي صفحة جديدة من قصة هذا الحب الذي ولد في ليلة .

فتابعت ليلى حديثها قائلة :

في احدى العشيات وكان الحب الوليد قد حال الى شاب يعقل ويدرك خرج ابوك مع حبيبته سيلفيا الى هذه الحديقة التي تنظرين بدورك الى ازهارها . فجلسا هنا على مقعد في هذا السرادق الذي تجلسين اليه وطفقا يتذاكران الحب ولذاته بعيدين عن كل همس ، فلما غسا الليل ومد رواقه وطلع القمر في سماء صحو

ترك ابوك وامك مكانهما في السرادق ليجلسا الى شجرة فنواء قريبة من شاطئ البوسفور وليستمعا الى هدير الأمواج المصطخبة .

وفي هذا المكان الفضاء الذي تضيع في مداه الأبصـــار والقلوب سألت امك سيلفيا اباك قائلة :

« لماذا لاتقرأ علي اشعارك يا حبيبي البطل فلقد تصرمت الليالي . وضاعت الأيام وانت تمتنع عن الانشاد . احب شعرك . احبه كثيراً لانه يعرض امامي من احب في صورة البطل بلى وفي صورة الشاعر ! . . .

فقال لها زافراً :

ــ لقد عاشت نفسي الف سنة في بهاء يوم واحد . فيا حبيبتي سيلفيـا ان الشعر الذي تبغينه لا يشبع نفسك ولا يروي مطامحك لأنه شعر جديب ماحل .

لم اقل شعراً منذ وطئت قدمي هذه الأرض الاجنبية ، على ان كتاب حياتي قديم يا سيلفيا فليس يروقك هذا القديم . وكذلك اشعاري فانهـا اصبحت قديمة كحياتي وانت شابة وجديدة فلا يروقك غير الجديد الشاب .

ــ اذن فهذا الحب الذي تحسه في صدرك لا يهزك الى الشعر ! كنت احسبك تحبني قبل هذه اللحظة ولكن حديثك كاد يغريني بالشك في هذا الحب .

ــ ناشدتك الله الا تشكي في حبي . فانه حب صحيح ولكنه حب حبس لساني عن الشعر .

وكانت ربابته التي لا تفارقه لا تبرح في يده فأومأت سيلفيا بيدها اليهـــا وقالت مردفة :

ــ الا تغني على هذه الربابة بعض اشعارك ؟

فنظر امرؤ القيس نظرة حزن بليغ الى الربابة ثم حاول ان يهز اوتارها فـــا استطاع الى ذلك سبيلا فظل صامتاً وعيناه لا تفارقان وجه سيلفيا التي كادت تفقد وعيها وقد خالجها شك مريع .

وازدحمت الهواجس في نفسها حتى خيل اليها ان امرأ القيس لم يعد يحبها فقالت له

— يخيل الي ان قلبك قليل الثبات ، كثير التقلب كصحراء وطنك !

فتأوه وشد على يدها صائحاً :

— اي سيلفيا ! اي شعر تريدين ؟ ان كلماتي تتساقط هالكة مائتة من هذه الأوتار ولكن في صدري الذي عاد من حبك رثيثاً باليا كلمة رسمها الحب بحروف من لظى ، احبك احبك ولكن حبك قد امات النغم في ربابتي ...

ومضى يضمها الى قلبه الخافق ، ثم اكب على جبينها وعلى وجهها وهو لايدري اين يضع قبلاته المتأججة وسيلفيا في غرق اليم .

واستفاق الحبيبان بعد قليل من هذه الاغماءة اللذيذة فاذا هما يبكيان ولا يدريان باعث هذا البكاء الذي قرح اجفانهما .

وكان الهواء العابق يملاء هذه النواحي وطيور الغابة القريبة من البيت المنعزل تتناغم في الفضاء الأملس الساجي وموج البحر يمور في كل ناحية من شواطيء البوسفور فافتتن امرؤ القيس بهذا المشهد والتفت الى سيلفيا قائلا :

— لقد نصبت خيامي هنا في هذا المثوى فلعل تلك الصرصر العاتية التي اقتلعت خيامي في صحراء الوطن لا تعصف بها :

وقضى الحبيبان نهارهما في وحدة هانئة ثم افترقا في المساء : ولما وقفت ليلى الساحرة عند هذا الحد من قصتها صاحت مارية قائلة :

— كفى كفى : ان خيام ابي لم تلبث طويلا في هذه الخميلة فلما عصفت بها الرياح السافيات مضت متناثرة كاحلامي في الحب . والآن حدثيني ايتها المرأة التي شهدت مأساة امريء القيس الملك الشاعر عن المستقبل . حدثيني عن سيد قريش حدثيني عن سيد العرب ، و سيد العالم الآتي ..

فخيل الى ليلى ان شباب مارية العافي قد رد اليها ، فقد كانت الحماسة ماثلة في عينيها وفي نبرات صوتها ، وفي حركاتها . فاستتلت حديثها قائلة :

ـ الا ترين الى هذا الفضاء الواسع ؟ انظري جيداً الى هذه الجبال الوسنانة التي تحيط بك ، والى هذا البحر الذي يزخر . والى الطبيعة . بلى انظري الى هذه المشاهد . فان في كل ناحية منها اعلاماً تموج وتتهادى . . ثم انظري الى السهول الخضراء . افلا ترين فيها اعلاما تصفق تحت عصف الهواء ؟ ان هذه الأعلام التي ترينها في الخيال هي اعلام هذا النبي الذي سيبدأ زحفه من مكة .فلا يستريح خميسه العرمرم في مصر عند شواطيء النيل ، وفي الهند عند ضفاف الكانج بل يواصل زحفه الى الأراضي القديمة التي رقص عليهـا ظل الروم والفرس وحينما تحتجب اعلام العدو وتتوارى تطل اعلامه وراياته .

اترين الى هذه الاعلام يا مارية ؟ .. اجيبي .. تكلمي .

فأغمضت مارية عينيها وقد التمعت على ثغرها ابتسامة راغدة وقالت هامسة كأنها في حلم .

نعم ! يخيل الي انني ارى جيوشاً عظيمة تخرج من فجاج جزيرة العرب . انها تتقدم وتزحف ولكنها لا تحس تعباً في عبور الشواطيء والخلجان والجبال الشامخة

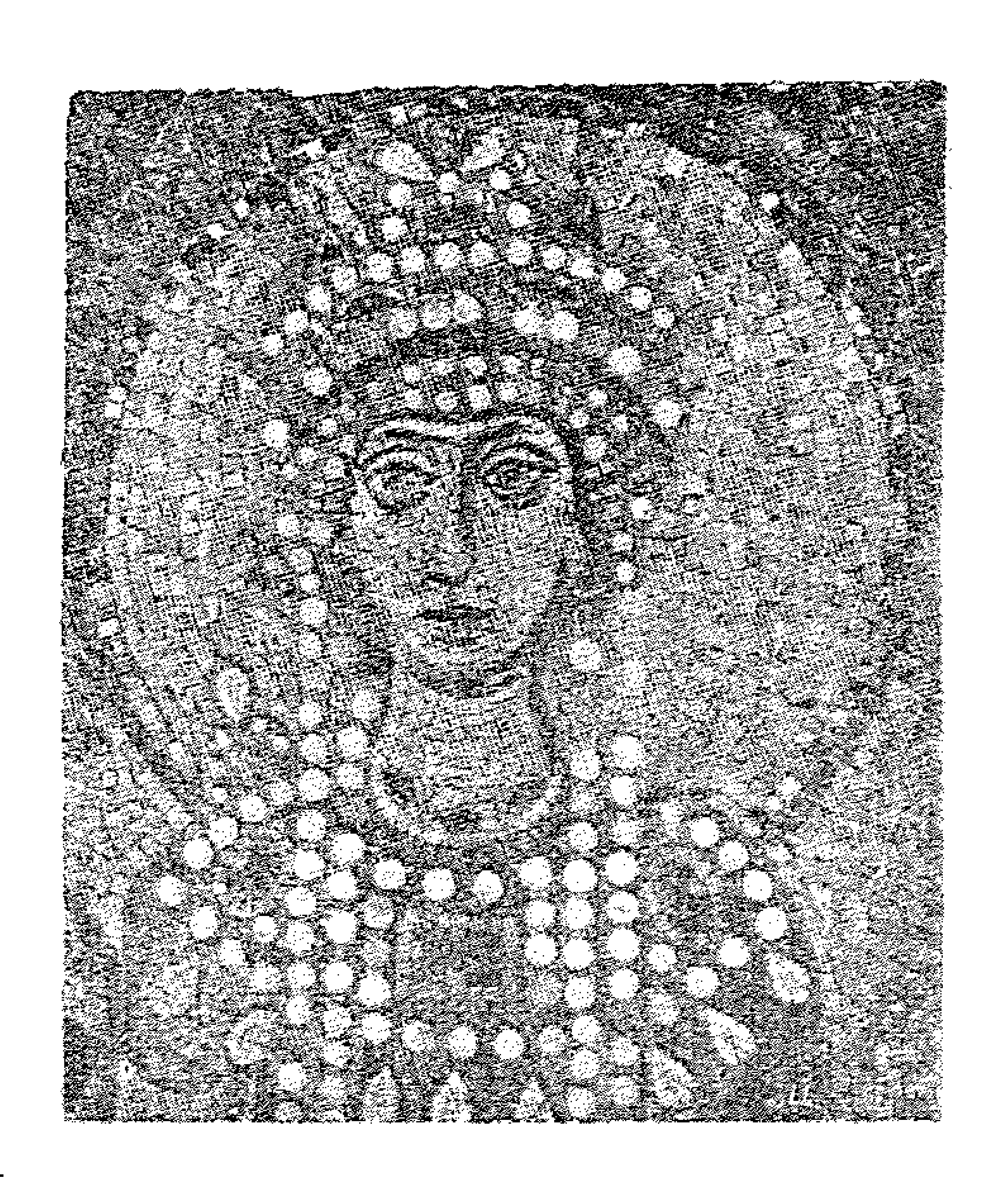
ـ اترين الى هذه الجيوش وهي تتقدم الى ارض الفرس والروم .. اترين الى ظل هذه الارض وهو يختفي تحت امتداد هذا الزحف المجيد ؟

ـ نعم نعم . انني ارى كل شيء من هذه المشاهد الخالبة ويخيل الي كذلك انني ارى جيش ذلك النبي وهو يصعد الجبل محاطاً بهالة من ضياء وكبرياء .

اطمأنت نفسي الى خفق اعلامك ياجزيرة العرب فلم اعد اخشى ان تصدأ سيوفك في الأغماد .

وحولت وجهها الى ناحية عمرو فالفته يواري عينيه بكفه وقد لج في البكاء فقالت!

ـ لقد كان حبنا قصيراً كحب ابي . . الا ليت هذا الحب عاش في دمشق ونما تحت ظلال الغوطتين . ليته عاش ونما وضحك . لها الله ليالي الحب في قصر البريص على ضفاف بردى . . .



تيودورا

— مارية !

— خرجت في ذات صباح الى جنة البريص ابترد بهواء ، وانعم بظــل وكان الربيع ، ربيع دمشق الذي صبغت الوانه ريشة فنان بارع بملاء نفسي فرحا وتوثباً فمضيت الى الرياحين اهزها وهي بعد في خمائلها تفتح انفاسهـا المعطرة للندى البليل فلم تمل نفسي الطواف بجنة القصر من الصباح الى المساء وحيدة منفردة كدبر هند في ذرى الجبل ، وقد تملكني شعــور غريب احسست معه ان الله خلقني وحدي لأعيش في هذا العالم الصغير المنفرد ! . .

واغدودف المساء علي فجلست الى شاطيء بردى انظر الى خيوط الذهب التي يخلعها الطفل المضرج بحناء على الجبال وعلى الاودية النائمة في السفوح وانظر الى فراشة طائرة في الأفق والمح رعشة الهواء الخفيفة وفي نفسي الف عبق مما تنشره هذه الجنـــات .

وانني لفي سبحي وغرقي · اذا نسمات المساء العذاب . تطفو عــلى جبيني فاغمضت عيني متلذذة بالرطوبة ، بينما الموج الخفيف في شاطيء بردى يغسل قدمي

لقد سكنت نفسي في هذه الأغنية اللذيذة لتحلم ثم استفقت وانا بين ذراعيك ايها الحبيب الجميل · · اي عمرو اذا كر انت كيف اكملت نفسي النظر الى هــذه الحلم العذب وانا على صدرك ؟ . .

— مارية !

— وداعاً ، وداعاً يا ارض الشام ؛ وداعاً ياموطناً كريماً عاذ به ابي في يوم بؤسه ولقي في حماه صبابة نفس لم يذهلها الألم المبرح عن التماس النصر في غيهب الملحمة الفاحم ، وداعاً ايها الأفق المشعشع الذي تنيره شمس دافئة تحمـل الى الزروع والأفياء الحياة المرحة الوادعة .

وهزتها رعدة عنيفة وهي بين ذراعي هذا الحلم العذب. ثم رقدت رقدة عميقة لن تصحبها استفاقة بينما كانت ليلى تنظر الى هذه النهاية الساكنة نظرة اليمة وبينما اخذ عمرو يغطي جسدها

الهامد بردائه وبينما اشعة الشمس تغسل الأشجـــار والازهار والشواطي.والجبال ماتت مارية ، ماتت مارية التعسة في الأرض الأجنبيه التي قتلت اباها وامها وجاءت تستريح في ظلال الخميلة التي اصغت الى اشعار امريء القيس والى خفق فؤاده!

نعم ماتت هذه الوالهة الشاجنة التي ساخت شبابها في السعال، وفي الحب البائس الماحل ماتت في ربيعها الثامن عشر بينما اخذت عيناها تبحثان في الارض عن افق جديد لا يغشاه برد الموت وثلجه !

وفي تلك الفينة اكب عمرو على تلك الجثة الهامدة ومضى يطبع قبلاته على فم مارية البارد المقرور فجاء نشيجه ابلغ رثاء لهذه الفريسة الجميلة التي حملت الى قبرهـا حياتها المنكودة المترعة بالصور المعتمة .

وطفقت هند تصيح .

ــ وداعاً وداعاً ايتها الأخت البارة الرحيمة التي لم تعرف في حياتها حضناً تفيء اليه في غسق ايامها !

وفي المساء دفن عمرو وليلى وهند هذه الشهيدة في ارض الخميلة عن كثب من السرادق الذي شهد في الماضي مشاهد لذة انيسة لحب صحيح خفق له قلب امرئ القيس ابن حجر وفي صباح اليوم التالي جاء عمرو وهند وليلى الى هذا الرمس الذي يغطيه افق بزنطية الساجي فحاموا حوله كما يحوم النساك حول اماكن العبادة ، واخـذت هند الأسوانة تجمع الأزهار الملونة اللطيفة لتزين بها رمس مارية حتى اذا اجتمع لديها كثير من الورد والبنفسج والزنبق راحت تنشر هذه الرياحـــين الباسمة على ذلك القبر المنفرد الشاحب .

وفي المساء ودع الثلاثة البيت المنعزل وداع من لا يحلم برجوع الى هذه الارض التي رقد تحت اديمها البارد ثلاثة من الأحبة هم : امرؤ القيس وسيلفيـــا ومارية ! ومضى الجميع في الطريق التي اجتازها المنذر وفرسانه في معــادهم الى الوطن . الى الشام مطلع الاحلام الزاهية . ومسفر صبح النهضة العربية الخالدة . ؟

الفصل الثاني والعشرون

مدينة الاهواء

في ذات عشية اذيع في قصر الشالسيه نبأ موت يوستينوس الثاني وفي صباح اليوم التالي عرضت جثة قيصر في معبد ايا صوفيا ثم دفنت عند المساء في كنيسة الرسل الى جانب تيودورا ويوستانيوس واحتفل في نفس اليوم بجلوس قسطنطين طيباريوس على العرش ونودي به نائباً للمسيح على الارض وقائداً عاماً لجيوش البر والبحر (١)

وجاء في الخطبة البليغة التي القاها البطريرك امام قيصر « ان الله الذي « يهب الحياة لمن يشاء رافع رأسك فوق هامة العالم وجاعل جميع الشعوب في « جملة عبيدك ايها الملك القسيس الذي تخيرته السماء للدفاع عن الديانة (٢)

وقد قيلت هذه الكلمات ليوستانيوس الاول في حفلة تتويجه .

وجاء في الهتاف الرسمي المعتاد « ان نفوسنا تنظر اليك وحدك ايها العظيم الذي يسيطر على العالم (٣) ومعنى هذا الهتاف تأييد صريح لسلطة قيصر على جميع شعوب الامبراطورية ، ولم يكن في اوضاع بيزنطية وضع يتحدى قيصر في سلطانه ، نعم يوجد في بيزنطية المسيحية مجلس للشيوخ كما في روما ، ولكن مجلس الشيوخ في الدولة كان مجلس موظفين ونبلاء يصانعون قيصر ويسايرونه وقد جربت الكنيسة

---

(١) شارل دوهل في كتابه بيزنطية ص ٢٦

(٢) تضع التقاليد الرومانية قيصر فوق الشرائع فهو يتمتع بسلطة مطلقة على الاشياء وعلى الاشخاص وعلى الادارة والجيش والمالية والسياسة والدين ولقيصر ان يشرف على الحياة العامة وله ان يتدخل حتى في اصلاح طراز الحياة وفي تعيين اللباس شارل دوهل ص ١١٦

(٣) رامبو تاريخ الامبراطورية الرومانية ص ٣٠٠ ج ٢

التي كانت تنظر نظرة حسد الى الامبراطور ان تنتزع منه هذه السلطة فقضي عليها واقسرها على ان لاتتدخل في شؤون الدولة (١)

ولم يكن في وسع احد ان يصدم نفوذ قيصر غير الجيش ، فالثورة التي تنشب في وسط الجيوش والتي يعززها حسد الأمراء الاقطاعيين واغراقهم في الطامع ظلت الشبح المخوف الذي ترتعد له فرائص قياصرة الرومان (٢)

لم يكترث اصدقاء يوستينوس لجنونه ،ولم يحفلوا بموته لأنهم كانوا يعرفون مرضه، وكانوا يرونه رجلا تعسوساً خليقاً برثاء جديراً برحمة، ومع ذلك فقد ظلت حادثة خروج المنذر الغساني من القسطنطينية تحت اجنحة الليل حديث الخاصة والعامة عدة ليال فلم يفكر هؤلاء الذين هاموا بالقصص الغريبة لحظة واحدة في درس الاسباب الحقيقية التي حملت ملك غسان على ترك بزنطية من غير ان يودع احداً او يتحدث الى احد ، ولكن قواد قيصر الذين يعرفون كبرياء الملك العربي ويعرفون مطامحه حملوا خروجه من بزنطية على نزوعه الى توسيع نطاق ملكه على حساب القلق الذي عصف بانحاء الامبراطورية وقد كان في مقدور مجلس الشيوخ ان يبعث الجيوش لقطع الطريق على المنذر ولكن شبح الغارات المتتالية على تخوم تراقية ومقدونية ودلماسيا ثنى مجلس الشيوخ عن التفكير في هذا العمل الذي قد يجيء في مصلحة الفرس وحلفائهم عرب العراق وكانت بزنطية تحسب حساباً لجيوش كسرى ولا تتغاضى عن قدرتها في اثارة الخوف والوجل والموت على اطراف الامبراطورية في آسيه .

شهد القراء في احد فصول هذه الرواية جنة الشعب اليوناني في بيزنطية حينما اراد الى قيصر ان يأذن في فتح مدارس الاسكندرية واثينا ولكنهم لم يشهدوا عاصفة الفرح التي عصفت بهؤلاء عشية مات قيصر .

لقد كانت بزنطية في امد واحد وطن الغرائب والعجائب ، كما كانت مدينة علم

---

(١) شارع دوهل ص ٣٢

(٢) تاريخ نيكتساس اكوميات ص ٢٧٥

وفلسفة وفن وغناء وحب ، ومرح ، وكانت في القرن السادس عاصمة العالم المتمدن الراقي بينما اوربه تسبح في غمرة بربرية قاسية وبينما شعوبهـا لا تعرف صحوا ولا استفاقة من غرق الجهل .

وكان لبيزنطية صفتان تتعارضان ووجهان يتنابذان ، وجـه عبوس مكفهر يعرض لك السياسة الخادعة . والمؤامرات البشعة والدسائس التي تعصف بالابرياء ووجه مشرق فتان يمثل لك حياة ممزوجة بالحب والغناء والمرح والاهواء

في ناحية من بيزنطية ، وذلك على سفائح خليج القرن الذهبي ، بنـاء الاكروبول وحصن تيودوس المليء بالمآسي التاريخية . وفي ناحية اخرى من الخليج مقاصف لهو وطرب ومتع شهية .

ووراء الحصن والأبراج والشرفات الناطقة بعظمة بيزنطية المتغلبة على الشرق والغرب مدينة ناعمة وادعة يفوح منها عبير الشرق العطر وتشقها اسواق ضيقة وشوارع ملتوية تطفح بالمدارس والمشارب والمرازح (١) ثم هنالك في الاحياء الارستوقراطية قصور ضخمة يغشاها النبلاء والسادة واديرة وكنائس يأوي اليها الزهاد والعباد .

وفي الساحات العامة زخارف وطرف وتماثيل عجيبة وعمدان ضخمة يزينها عمود تيودوس وعمود اركاديوس ومسلات مصرية بديعة، ولعل اروع مايعرض للسائح في بيزنطية لياليها الظلماء التي لاتنيرها الأضواء في هذه الليالي المعتمة يخرج المحبون من عزلاتهم وخلواتهم الى المكان الفضاء يبحثون عن حب . وينعمون بظل ، ويتلذذون بغناء

وفي بيزنطية ميدان اوغستون ، وهو شبيه بميدان سان مارك في البندقية، ويحيط بهذا الميدان الواسع اطار منمق بديع في داخله كنيسة صوفيا ويقوم الى شمال هذا المعبد قصر الشالسيه والى جنوبه قصر مجلس الشيوخ والى شرقه شارع

---

(١) قال شارل دوهل في كتابه بزنطية : اذا كانت القسطنطينية تتفوق على مدن العالم بغنائها وثروتها فانها كذلك تتفوق على مدن العالم برذائلها واهوائها ومرازحها العجيبة ص ١٠٨ .

ميزه العظيم . وهو شارع يدفع الى ميدان قسطنطين اجمل ميادين المدينة وفي هذا الشارع غاب من القصور والخلوات الساحرة ذات القباب الملونة الأخاذة والابواب المرمرية الفاتنة من صنع مهرة المثالين من يونان ورومان . ويتراءى للناظر عن كثب من هذه الخلوات ميدان توريوس الذي يشتمل على بناية الكابيتول وعمود تيودورا الرفيع المنار واكثر هذه المباني الضخمة العجيبة المرصعة بالفسيفساء يقع على شاطيء مرمرا فوق ربوات شاهقة تزينها احراج خضراء معطرة .

خرج الشعب البيزنطي في المساء الى الشوارع مغنياً منشداً فرحا قريراً . وهنالك في ميدان اوغستون وقف الشاعر كريسبيوس يغني على قيثارة اغنية جميلة من نظمه بين فتيان يحتسون الخمر على مائدة جلست اليها فتاة رائعة الحسن اسمها فتسا وكانت تصب الخمر في الكؤوس ثم لا تلبث ان تقدمها الى الفتيان الذين شرعوا ينظرون اليها نظرة عبادة وورع وفي تلك الأثناء امتنع كريسبيوس عن الغناء وطفق يتحدث الى الفتيان عن موت يوستينوس فقاطعه هؤلاء صائحين .

ــ الهذا جئت بنا الى ميدان اوغستون في هذه الليلة المصحية يا كريسبيوس لقد كنا نخالك تحب فتسا الحسناء كما نحبها نحن جميعاً . . .

فقهقه الشاعر واردف :

ــ ولكن حديثي في هذه العشية حديث جميع الناس في بيزنطية ! ؟

فصاح فتى من بينهم اسمه لارياس .

دع الموتى يستريحون في قبورهم فلا شأن لنا مع هؤلاء.فان امتع اغراضنا في هذه الليلة ان ننزع الى عناق لذيذ وخمرة صافيه .

قال ذلك ثم عكف على الفتاة فتسا لثما وتقبيلا فاحنق عمله جميع الرفاق فهدوا اليه صائحين

ــ لقد نسيتنا حقا يا لارياس من هذه القبل . . .

فاجابه قائلا :

ــ حقاً انني لأحمق . لقد نسيتكم شركاء في الحب ، مع انني لم انسكم شركاء في

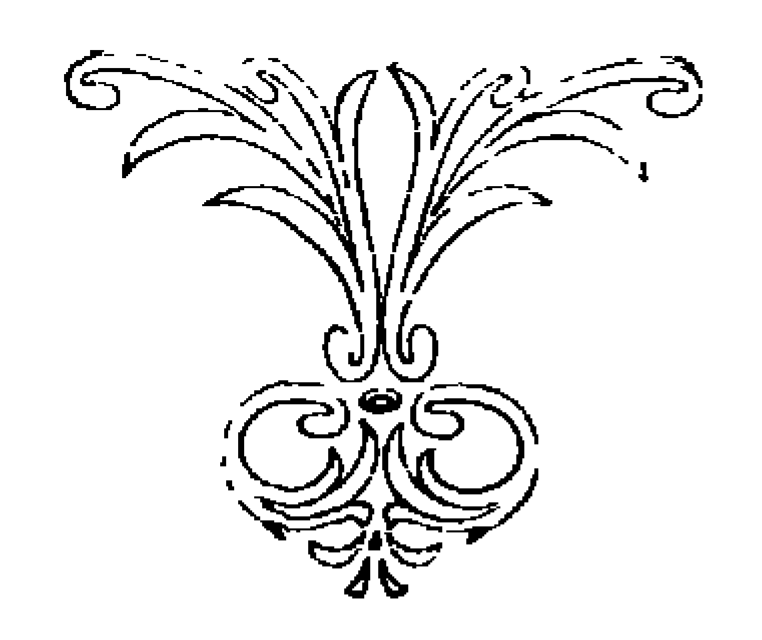
مدرسة الحقوق ، هذه هي فتسا فدونكم اياها .

وتهافت الجميع على فتسا ، هذا يقبلها في جبينها وذاك يلثم شفتيها ، وآخر يضمها الى صدره والفتاة الكاعب في ضحك لذيذ ، ومجون الذ .

ولما مر العسس الروماني في تلك الاثناء صاح الطلبة .

— ليحيى طيباريوس قيصر .

فلم يمنعهم العسس ايغالهم في المراح بل شاطرهم سكرهم وماثلهم في مجونهم ودعابهم وفتسا الحسناء تنتقل من حضن فتى صبيح ، الى حضن فتى رائع النضرة ، ثم تفرق الجميع في احياء بيزنطية مغردين لاهين مصفقين حتى بلغ بهم طوافهم الشالسيه الذي اعد لقيصر ، فهتفوا للسيد الجديد . فجاء هتافهم طابعاً جلياً لمرح المدينة ولهوها ونكولها عن الاعتداد بالحوادث الجسام التي تروع كيان الامبراطورية ؟ .



الفصل الثالث والعشرون

موت النسر

التحق عمرو وهند وليلى الساحرة بموكب الملك المنذر عند شـواطىء خليج نيكوميديا(١) في الناحية الجنوبية من كريسوبوليس(٢) وكانت جزر الامراء التسع لاتزال تبين للملك المنذر وهي سابحة في زرقـة بحر مرمرا الهادىء الساكن فلما اجتمع المنفيون الى المنفيين، في هذا الصعيد المبجل الذي اصطبغ بدماء العراقيين النبلاء في عصر تيودوس قيصر وانو شروان عظيم الفرس اومأت ليلى بيدها الى قصور جزيرة بروتي. واديرتها وحصونها وقالت للملك:

ــ في قلاع هذه الجزيرة مات عدد كبير من القياصرة والبطاركة والقواد!

وكان اسم بروتي كافياً لاثارة حزن الملك، فخدج الجزيرة بعينين نديتين وقال للسـاحرة:

لقد خلصني عملك من عذاب اليم ايتها المرأة النبيلة فقالت:

ــ لقد قمت بواجبي يامولاي.

فسكت المنذر واخذ ينظر الى جزيرة بروتي، ثم الى جزيرة انتيغون، ثم الى جزيرة خالكي ثم الى اشجار الصنوبر واشجار الزيتون التي تغطي القمم والروابي والقصور وليلى عن كثب منه تهدهد آلامه، وتتحدث اليه عن المستقبل الحلو العذب الذي ينتظره في ربوع الشام

وفي تلك الفينة اقبل الملاحون الذين حملوا المنذر الى البيت المنعزل في ذلك الليل المغدر الحافل بالعواصف ومضوا الى ليلى يشدون يدها مصافحين مهنئين فاقتربت من كبيرهم وقالت له:

---

(١) خليج ازميت اليوم. (٢) مدينة اسكدار اليوم.

ـ دعني اصافح يدك ياحنظلة فلقد غامرت بحياتك في سبيل الثأر بامريء القيس حتى بلغت طمحات نفسك فرقد عدوك الألد وعدو بلادك في حفرة باردة لا تطاع عليها الشمس ثم التفتت الى المنذر وقالت مردفة :

ـ أيريد مولاي ملك غسان ان اقدم اليه فتى عربياً لم تحس نفسه الجبن لحظة واحدة ، فظل متنكراً خلال سنوات عدة حتى صافحت عيناه فجر الخلاص . لقد كان هذا الشاب الذي تراه امامك منتصباً كالشجرة الفرعاء اكثر رفاقه زهداً في المجد ، ولكن زهده في المجد لم يمنعه ان يمضي الى النهاية في الحصول على الشرف ، ان فتيان العرب يا مولاي قد يتخلون عن المجد الى حين ولكن نفوسهم الأبية تعاف التخلي عن الشرف .

فهز المنذر يد حنظلة الملاح وسأله قائلا :

ـ ممن انت ؟

ـ من كندة يا مولاي .

فوضعت ليلى يدها على كتف زعيم العشرة واردفت قائلة :

ـ لقد كان حنظلة في جملة الحاشية التي خرجت مع امريء القيس الى القسطنطينية فلما استوثق من غدر تيودورا بسيده اقسم لينتقمن من قاتليه وابى ان يعود الى الوطن قبل ان يصبغ يده بأرجوان . انه فتى باسل لم يحس قلبه رعدة في لحظة من اللحظات .

فصاح المنذر :

ـ انه في حرسي منذ هذه اللحظة .

واستأنف الموكب سيره في الارض القديمة التي كانت مهداً للدول اليونانية الماضية فأطل على الخرائب والطلول التي تضم الى رغامها بقايا مجد قديم وعظمة غابرة واحس كذلك خفقة الماضي في اديم هذه الارض التي صمدت للفرس في ملاحم عدة . وكان جمال هذه الارض التي طفحت بالابطال والصناديد دليلا على

خلود عظمتها وبقاء عنفوانها .

ولما اغسق الموكب . اذا القمر يطلع في سماء ندية رطبة ، واذا بحر زاخر من الضياء يطفو على جبال الاولمب البيتهينية ، واذا الأفق يلوح عارياً من الغيوم ولكن الألوان الفتانة ظلت تلمع وتضيء في مداه الفريغ

وكان خليج نيكوموديا لم يحتجب بعد عن الابصار فاختلطت زرقة امواجه ببهاء هذه الألوان الساحرة .

وظل الموكب على زحفه حتى تبدل المشهد وحتى حال الضياء الى عتمة مخوفة ، ثم اذا الليل يخلع ذوائبه على الجبال وعلى التلال فغمرت الموكب ظلاله وقبابه

وفي الصباح اشرف الموكب على نيسه وهي ضاحية جميلة تقوم في وسط جبال شجراء . فأمضى المنذر نهاره بين ربواتها وسفوحها ، وعند المساء واصل الموكب طوافه حتى بلغ في الهزيع الأخير من الليل قرية ايبنون وهي ضاحية ذات افياء وظلال فنزعت نفس المنذر الى العزلة في معبدها الدارس . وكانت هذه القرية خليقة بحياة منعزلة هادئة يحبها هؤلاء الذين صوح نفوسهم الألم وأمضهم الاغتراب .

ولما طلعت الشمس طاف المنذر بجبال الأولمب البيتهينية واستملح التحديق الى بحيرة صغيرة قائمة على السفح وشرع ينصت الى وسوسة المياه ناسيا تلك الآلام العنيفة التي تحيفته في سياحة ممضة مرهقة . وكان يلذه ان يسلخ اللحظات البطاء في هذه العزلة الأنيسة .

وفي هذه القرية نسي المنذر مأساة قصر الشالسيه ونسي حكاية تلك المؤامرة الخسيسة التي اعدها الرومان لنفيه الى جزيرة بروتي ونسي كذلك موت مارية الفجيع المؤثر في خمائل قصرانتيغون.

وفي صباح اليوم التالي مشي موكبه في ارض ماحلة جديبة تلتف بها جبال عارية جرداء تغشاها شمس قائظة ورياح سامة ولكن هذا المشهد المعتم الذي عرض له لم

يستطع ان يطفئ في روحه تلك الشعلة المقدسة التي يسمونها المجد فتغلبت كبرياؤه على كمدة هذه الجبال العارية . وكان يعلم ان الحزن البليغ لا يقوى على قهر كبريائه، وان ليس في وسع هذه الأبعاد الشاسعة ان تنزع من نفسه خيال الارض التي احبها في الشام ولم يفته وهو يطوف بهذه الارض المائتة صمود كبريائه للرياح العاصفة فللرياح ان تعصف وان تمضي هدارة مزمجرة ولكنها لن تتغلب في النهاية على صلفه وارادته وكذلك لم تذهله عظمة الاراضي الاغريقية عن التفكير في عظمة الوطن الاول الذي خرج آباؤه من صحرائه الى الشام قبل عصور عديدة فطاف بذاكرته المضطربة خيال هذا الوطن فاذا هو يراه عظيماً في عزلته الجافة واستيقن ان قبره لن تشتمل عليه هذه الارض الاجنبية التي يرتادها بفلوله المحطمة بل لقد خيل اليه ان ارض الوطن تفتح ذراعيها لتستقبل جثته في ترابها الندي .

اشجته هذه الذكرى فاطمأنت نفسه الى ان العدو لن يدنس حفرته التي سيستريح اليها عن كثب من ينابيع الشام الموارة الهدارة .

فهمس قائلا :

وا طرباه ! ان في ارض الشام ظلالا آوت اليها رفات آبائي . ولا تبرح هذه الطلال التي تحتضن هذه الرفات المقدسة تمور بالحياة . انها تخلع عفاءها لتطلع على العالم جديدة بينما هذا التراب الذي يحجب الموتى يصوغ لنا عالماً جديداً من الفرسان والملوك .

وتمثلت له دمشق ضاحكة باسمة كأنها تتهيأ لاستقباله في رجوعه اليها فصاح :

اي وطني، سترد رفاتي اليك وهي محاطة بمثل هذه الهالة المضيئة التي احدقت برفات البهاليل من ملوك غسان .

وبعد ثلاثة اسابيع من طواف مذيب طلعت على هذا الموكب الشاحب ارض الشام الخضراء فاذا انطاكية تلوح للملك المنذر وراء ضبابة خفيفة لم يلبث وهج الشمس ان مسحها مسحاً فكادت نفوس هؤلاء المنفيين المغتربين تذوب من

الحنين حينما صافحت نواظرهم الغائمة ضفاف العاصي وكان لمشهد القصور والجامعات والصروح على هذه الضفاف اثر يهيج في هذه النفوس التي حملتها الاحزان على متونها الخرساء .

لم يشأ المنذر الدخول الى انطاكية ولكنه آثر التحديق الى قبابها الباسقة في الأفق ، وفضل ان يستريح ورجاله في قرية منعزلة حتى لا تقع عليه العيون وحتى لا تنقل احاديث رجعته الخائبة في الناس ، وكان التعب الشديد قد لاح على جبينه الذي صوحته اشعة الشمس فاستراح في دير القرية . وفي اليوم التالي استأنف ابطال غسان سيرهم . فأخذت الارض تختفي تحت اقدامهم كظل متنقل لا يعرف معاذاً يستريح اليه .

لقد مرت بهم مشاهد كثيرة . وتراءت لهم جبال وخلجان وانهار وسهول واودية ولكنهم كانوا يمرون بها في مثل خفة الوميض مسوقين الى الطيران في الآفاق كحرج تناوحت عليه رياح الجبال حتى هزته هزاً . .

في صباح اليوم التالي برح الموكب القرية متوغلا في طريق قديمة ، تطفح باثار الأغريق القدماء فبدت للمنذر في هذه الاماكن الفيحاء طلول وبيع واديرة ذات جدر سوداء قاتمة فالتفت الى ليلى قائلا :

ــ اتعرفين هذه الأماكن التي يغرق الفكر في مشاهدها الشاحبة !

فقالت له :

ــ هنا في هذه الاراضي اقتتل الرومان والفرس منذ قرون وكانت الغلبة للرومان

ــ وهذه الاديرة المنتشرة تحت الأفق ؟

ــ هي اديرة اغريقية يامولاي . . .

ولم تقل ليلى اكثر من ذلك ولكنها مضت راعشة قلقة وظلت تنظر الى دير منفرد يقوم على ربوة شاهقة تموج الخضرة في سفوحها ففطن المنذر الى غرقها فسألها قائلا

ــ هل وقعت عيناك في هذه الضاحية على مشهد ارمض نفسك ! فلقد رأيتك

تنظرين في ذهلة شديدة الى الدير فاي خيالة عرضت لك في هذه اللمحة القصيرة المدى فلم تنبس ولكنها ظلت تحدق الى ذلك المنسك الصغير الذي لاح لها عن بعد ثم همعت عيناها تهماعا اليماً فلم يفت بكاؤها المنذر فقال لها :

— اراك تبكين ؟ فهل يشجيك ان تحسري عن هذا الألم الذي نشأ في صدرك وانت تنظرين الى الدير ؟

والتفت المنذر الى الملاحين الذين صحبوا ليلى في سياحتها المدهشة وقال لهم :

— اي رفاق ليلى . ايكم يعرف قصة هذا الدير المنفرد ؟

فصاح حنظلة زعيم العشرة :

— انا ؟ . . .

— أفي قدرتك وانت العليم بهذه الاماكن ان تقص علي لماذا تنظر ليلى الى هذا الدير نظرة خوف ووجل ! فاني اراها لا تملك وجيباً كأن مشهد هذه الحجارة الدكناء قد بعث في صدرها المتألم طيوفا لا تحب النظر اليها . . تكلم ؟

فاومأ حنظلة بيده الى الدير واردف :

— ارأيت الى هذا الدير ؟ . . . لما خرج امرؤ القيس بن حجر من الشام عائذا بقيصر وبلغ به طوافه هذا الدير المنفرد بين جبال لا يفارقها الضريب ، ولا ينبو الغيم الصارد عنها نظر الى رفاقه فاذا عيونهم لا يرقأ لها دمع واذا قلوبهم في وجيب دائم وقد مرت بهم صورة الوطن . وطرقتهم خيالته فهموا اليه برجوع ، وكان اوفرهم حزنا واكثرهم شجناً صاحبه عمرو بن قميئة اليشكري (١) فنظر امرؤ القيس اليه نظرة شجية وقال له معنفاً ! ماذا امثلك يبكي اذا بعدت حجارة الوطن . وانت الذي عاهدتني على المضي الى النهاية في طريق المجد . حتى نصل اليه

---

(١) صاحبه هذا عمرو بن قميئة اليشكري وكان امرؤ القيس قد مر ببني يشكر في سيره الى قيصر فسألهم قائلا هل فيكم شاعر فذكروا له عمراً فدعاه ثم استنشده فانشده واعجبه فاستصحبه امرؤ القيس فاجابه الى صحبته .

وحتى نستشرق بمجره ! دع ارض الوطن تختفي وراء هذه الجبال فليس يجديك ان تلحف في حنينك اليها وهي كذلك لا تستطيع ان ترد اليك متعة اشتهيتها في سفوحها وجبالها وغدرانها . ثم انحدر الملك عن جواده وقصد الى الدير يستذري بكنفه ، فلحق به رفاقه واجمين صامتين .

وفي المساء كتب امرؤ القيس على جدار الدير هذا الشعر :

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه وايقن انا لاحقان بقيصرا
فقلت له لا تبك عينك انما نحاول ملكاً او نموت فنعذرا

فصاحت هند ملتاعة :

ـــ أقال ابي هذا الشعر في هذه الاماكن ؟

فوارت ليلى عينيها بكفها وقالت مردفة :

ـــ نعم نعم ولا يزال هذا الشعر الذي يحفظه رجالي منقوشاً على جدار الدير !

فقال المنذر :

ـــ وماذا فعل عمرو بن قميئة حينما قرأ هذا الشعر ؟

ـــ عاد الى نفسه مستحيياً من خواطرها الحمقاء ومنذ تلك الليلة امتنع الرفاق عن البكاء وقد آثروا الموت في الأرض الاجنبية على الرجوع الى الوطن الأول رجعة الجيش المهدم !

فقال المنذر :

ـــ الآن ادركت لماذا لا يفارق السناء هذه البطحاء ! انها حالية بعبق امريء القيس بن حجر .

وكان الاعياء قد صوح نفس المنذر . فبدا لرجاله شاحباً مسفوعاً فسألوه ان يستريح في الدير فابى وفضل ان يلحق بارض الشام تحت وهج الشمس المحرق .

ثم سار الموكب بعد لحظات في ارض مستطيلة ولكنها ارض خلاء من المشاهد الفتانة فلما وقعت عينا المنذر عليها مضى راعشاً راجفاً . وكاد اكثر من مرة يعود

الى الضاحية الجميلة التي خلفها وراءه . ولكن حنينه الى الوطن ، الى الشام ارض الأحلام الزاهية المتوردة منعه التفكير في الرجوع الى الوراء .

لقد كانت الأزهار في هذه الأرض الجديدة التي طلعت على الموكب باردة مقرورة وكان السهل الممتد على مسافة بعيده يطفح باشجار معراة من ورقها واغصانها ورياح الخريف الباردة تزخر في الفضاء كأنها الحان الموت ، وفي جميع النواحي صخور سوداء كامدة .

يالبشاعة الخريف في هذه النواحي المنعزلة .

لما سجا الليل استراح الموكب قليلا . ثم واصل سيره تحت ظلال الغسق فلم تتبدل هذه المشاهد الجافة في عيني المنذر بل لقد كان الحزن في كل لحظة من هذه اللحظات التي تعاقبت على هذه السياحة المجيدة يجد في صدر هذا النسر العظيم موضعاً لمرض شديد فلما لاحت مشارف الشام بعد ايام مديدة كان المرض قد هده هداً فالتفت الى صحبه قائلا :

— متى نصل الى ارض الشام ايها الرفاق فانهذه السياحة الطويلة التي امضيها في الألم والأرق واليأس قد ادنتني من النهاية ! ؟

فوجم الجميع وراحوا ينظرون الى هذا الحلاحل الذي ضيع المجد والملك في سبيل الشرف نظرات استطال فيها اليأس والأسى والذهول .

وكان المنذر يتحدث اليهم ضاويا متعباً ، لا يصطحب وعياً ، ولا يملك ادكارا. فصاحت ليلى :

— ولكن غوطة دمشق لم تعد بعيدة من هنا ففي وسعنا ان نبلغ المدى الأخير من طوافنا في مساء الغد .

في صباح الغد وقف موكب المنذر على ابواب غوطة دمشق منحدراً اليها عن طريق تفصل بين المدن المهذبة والبادية ، فصاحت ليلى :

— نحن الآن في ارض غسان يا مولاي .

لخفق قلبه خفقة التيه ومضى ناشجاً . ثم وثب الى الارض فقبل التراب العابق الذي استراح آباؤه اليه في ضجعة خالدة وهو يهمس همساً لذيذاً مستحبا .

ـــ الف تحية يا ارض الشام ...

ولاحت له مشاهد فتانة رائعة انسته تباريحه القديمة وتباريحه الجديدة ورأى القرويين يزرعون في الارض الشامية تحت اضواء الشمس السابحة في الأفق . ثم بدت له في الخمائل ازهار القرنفل والنسرين فصاح :

ـــ ان وطني لم يخلع ربيعه بعد . فهذه ازاهره تضحك في خمائلها وادعة هانئة .

فقالت له هند :

ـــ لقد ابت دمشق ان تستقبلك يا مولاي متجهمة عابسة فحملت اليك ربيعها الضاحك كما حملت اليك في ايام انتصاراتك الماضية اجمل رياحينها .

فوضع المنذر يده على قلبه ليمنع وجيبه الدائم واردف قائلا :

ـــ لم تبدل دمشق سلائقها وعاداتها فهي لا تنفك تستقبل ابنـــاءها بأزهى رياحينها وانضر ازهارها .

وفي تلك الاثناء اقبل الفلاحون من كل ناحية وهم يحملون بعض الازهار فأشجى مشهدهم الساذج نفس المنذر فسألهم قائلا :

ـــ الى اين تمضون بهذه الرياحين ؟

فقال احدهم :

ـــ يخيل الي انك غريب عن هذه الديار ؟

فقال المنذر متردداً :

ـــ نعم ! نعم !

وأحدق الفلاحون بالموكب وهم يصيحون :

ـــ غرباء ! غرباء !

ولكن هؤلاء الفلاحين السذج لم يكونوا ارديا فأخذوا ينظرون الى المنذر

والى رجال حاشيته نظرات يتخللها نوع من الذهول ، وقد شكوا في امرهم ورأوا في المنذر رجلا بذاخاً تنم ثيابه المطرزة على عراقته في الشرف وفي السيادة .

ومع ان شكوكهم في حقيقة هؤلاء الوافدين كانت قوية ، فقد ظلت قلوبهم الصافية التي لا يخالطها الملق والرياء لاتحس بغضاً

والتفت عمرو بن الحارث اليهم قائلا :

ــ لماذا تنظرون الينا بعيون حادة ملتهبة ؟

فقال احدهم :

ــ ناشدتك الله ايها السيد الا تشك في صفاء قلوبنا ، فانها قلوب ما انطوت على غير الصراحة .

ــ اذن فقيم تنظرون الينا جافلين مروعين ؟

ــ لقد قال كبيركم هذا ــ واشار الى المنذر ــ انكم غرباء عن هذه الديار ، ولكن في احاديثكم مايدل على انكم من اهلها . .

فقال عمرو :

ــ صدقت ؛ فلسنا غرباء عن الشام . .

فحدج القروي عمراً بعينين مشرقتين ، ثم سأله قائلا :

ــ الست غسانياً ايها السيد ؟

وكان الفلاحون قد احدقوا بالمنذر واخذوا يتفرسون في جبينه وفي عينيه الصافيتين فالتفت حنظلة اليهم وقال لهم :

ــ ابتعدوا قليلا عن هذا « السيد » فلقد لايروقه ان تتألبوا حوله :

وفي تلك الفينة بينما عمرو بن الحارث يتحدث الى القروي : اذا اصوات شديدة تخرج من صدور الفلاحين ، وقد رموا ازهارهم تحت قدمي المنذر واخذوا يصيحون !

ــ الا تقول لنا ايها الرجل من انت ؟ الست سيد هذه المدن

التي حملت السلاح من اجلك وقد خيل اليها انك لقيت مصرعك في البلاد الأجنبية وصـــاح احدهم :

ــ ابتعدوا عن ملك غسان !

لم يكن في قدرة المنذر ان يتكلم ، فلقد ظل مبهوتا واجماً كهذه العمد الماثلة في ارض النبط القديمة ، بل ان هذه الأحساسات التي جاشت في نفوس الفلاحين قد اثارت زهوه وخيلاءه ، والهبت عواطفه واحساساته ، ولكن ذهولا شديداً قد هيمن على تصوراته منذ طرقت اذنيه صيحة خرجت من قلب قروي ساذج ، افلم يهتف احد القرويين قائلا : لقد عاد سيد هذه المدن الوارفة الظل الينا بعد موت ؟

الم يقل آخر : ان سهولنا وجبالنا حملت السلاح من اجلك وقد خيل اليهـا انك لقيت مصرعك في البلاد الاجنبية !

اذن فهذه البلاد التي احبها قد حسبته ميتاً فراحت تحمل سلاحهـا للثأر به من قاتليه واذن فان جبلة والنعمان لم يترددا في اثارة العواطف الراكدة حينما ابطأ في رجعته الى الوطن !.

وها هو يعود الآن الى غسان والناس يخالونه في الأموات فماذا يفعل ؟

التفت الى عمرو فالفاه في مثل غرقه ، فرفع عينيه الى ناحية ليلى فاذا هي تسبح في حلم بعيد . فارتد الى الفلاحين صائحاً :

ــ نعم انا من تبكون ! فلقد عدت اليكم بعد اغتراب .

وكانت صيحته كافية لأثارة هؤلاء البائسين الذين سقوا ارض الشام بدموعهم فتهافتوا عليه يقبلون يده . ويلثمون ثوبه . ويطيلون النظر الى عينيه والى جبينه كأنهم لايصدقون هذا الذي عرض لهم وكانت ازهارهم التي رموا بها الى الأرض لا تبرح تحت قدمي الملك فسألهم المنذر قائلا

لمن هذه الأزهار التي حملتها ايديكم في هذا الصباح ؟

فاجابه احدهم :

ـ لقد جمعنا هذه الأزهار لنرصع بها هامة الرجل الذي انتصر قبل ايام على جيوش قيصر ، ان غسان يامولاي تتقدم في كل ناحية بينما جيش عدوك يتراجع مخضوب الظهر بحناء . . .

ـ الا تدلوني على ذلك المنتصر الذي قاد غسان الى المجد ؟

فصاح القرويون !

ـ اذا مضيت يامولاي الى قصر مارية ذات القرطين الفيت الظافر محاطاً بشعراء العرب . . .

ـ من يكون هذا البطل ؟

ـ هو النعمان بن المنذر ، بن الحارث سيد غسان !

فوضع المنذر يده على صدره ليمنع خفوقه ووجيبه وقد هز اسم ابنه كبرياءه وحماسته ولكن الآمه الزاخرة قتلت هذه الكبرياء فكاد يسقط على الحضيض من فرط الأعياء فتهافت رجاله عليه واعانوه على النهوض، فنظر اليهم نظرة غائمة وقال هامساً

ـ سيروا بي الى منزل قريب من هنا فاني احس الماً شديداً يطفو على نواحي صدري ! لقد اشرفت ايامي على نهاية لا احبها قبل ان تخرج غسان من هذه الدجنة التي تسبح فيها . . .

لم يستطع المنذر ان يمضي الى النهاية في حديثه فاستند الى شجرة متهدلة ووقف ينظر الى الأفق الساجي . والقرويون في لوعة وارتماض لالآمه الثائرة ، وفي مثل خفة الوميض رفع المنذر يديه الى الفضاء فاذا رداؤه المذهب يخفق في الهواء كما يخفق جناح الطائر ، ثم هوت اليدان راعشتين واهنتين ، وانسدل الرداء على ذلك الجسم الذي اتعبه المجد وصوحه الكبر . فاستيقن عمرو الذي لم ينته معنى هذا الحزن البالغ ان جناحي هذا النسر العظيم الذي خلق في الآفاق البعيدة وفي الضباب والثلج لا يستطيعان خفقاً بعد هذا اليوم فذرف دمعه ذرفانا اليماً .

حمل فرسان كندة اتباع ليلى الملك المنذر على المناكب الى اقرب قرية في

الغوطة ، فلما صالحت عيناه شجر الصفصاف سأل ليلى قائلا :

ــ اتعرفين هذه القرية الغارقة في بهاء الطبيعة ؟

ــ هي قرية سكاء يامولاي !

ــ لله ثراها العابق ، انه يضم اليه رفات آبائي ، في سكاء ايها الصحاب قبر الحارث بن عمرو وقبر جفنة الكبير . لقد اتيتها يافعاً ولهوت بازهارهـا فتى صليباً وشربت من رحاقها اللذ شاباً وكان عيشي في جناتها عيشاً رسيغاً تهزه من الحبرَيح رخاء . ويسقيه من النعيم سحاب رديد .

ولم يشأ الفلاحون الذين اطلوا على المه وجواه ان يفارقوه وقد اشفى على النهاية فتقدموا موكبه الى بيت منعزل يقوم على رابية زاهية تشرف على دمشق فاجتـــاز الموكب البيت في خشوع واطراق . كأنه يجتـاز بيت قريش في مكة وكان هؤلاء الفرسان المساعير الذي خاضوا الى جانبه الوف المعارك جد جزعين من هذه النهاية التي استراح اليها بطل عجزت المعركة الحمراء عن قتله ، فقتلته احزانه ومتاعبه ، وكان يشجيهم كثيراً ان يغمض عينيه قبـــل ان يقدر لدمشق ان تلثم جبينه وان تهز يده بل لقد كان يرمضهم ان تحجبه هذه القرية المنعزلة عن دمشق المتكبرة التي هزته الى الأنتصار في جميع الملاحم .

لقد حام رفاقه حوله حينما رقد على سرير خشبي في احدى غرف البيت القروي فوقفت هند الى يمينه . وابت ليلى الا ان تظل راكعة عن كثب من السرير ، ووقف عمرو الى يساره وقام الفلاحون السذج على حراسة الأبواب ، وقد شعروا بحـاجة هذا السيد النبيل الى بهاء الحرس ورواء البطانة فمثلوا دور الحرس والبطـــانة ، ورموا بازهارهم الى جانب السرير .

لقد كانت الحجرة مظلمة فحجبت دجناتهـــا وجه المنذر المسفوع ، ولكن الذين احدقوا بالسرير لم يفتهم شيء من صور هذه النهاية المجيدة فلاح لهم المنذر شبحاً او خيـــالا لشبح . وتراءى لهم شعره منسدراً على

صدره. فراحوا يستمعون الى صرير نفسه فخيل اليهم انهم يستمعون الى اغنية الوادع التي يستقبل بها الرعاة هدأة المغيب .

وكان المنذر قد تسدر بثوبه ورقد رقدة من تهيأ لقبـــول الكأس الأخيرة ، وبعد قليل فتح عينيه فاذا هو يسأل هندا ان تفتح النوافذ فنهدت الفتـاة الى قضـاء هذا الواجب وهي رزحى تعثر في مشيتها ، ولما انحسر الأفق وامتدت الظلال الخضراء امام عيني المحتضر ، وانكشفت امواه النهر فتح المنذر فمه ليتكلم ، ولـكنه ترعدد في حديثه ثم لم يطق كلاما فسكت فنظر اليه صحبه نظرة ارتماض والم ولم ينبسوا ! ؟

وتتالت على هذا المشهد لحظات رقد فيها المنذر رقدة تعاورتها ارتعـاشة الحمى حتى لقد خيل الى صحبه انه بلغ نهاية الطواف ولـكن الحيـــاة عادت من جديد الى هذا الجسم المـكدود . فاستطاع صاحبه ان يتكلم ، وكانت كلمته الأولى :

ــ دعوني انظر الى بهاء الشمس قبل ان يحتضنها الطفل . دعوني انظر الى جبال دمشق فلقد نضوت فيها حلة حداثتي . وخلعت عليها شبابي · اروني بردى دافقاً هادراً · اروني داريا ودوما وبلاس فان في هذه الضواحي الفينانة اعراف طفولتي البريئة ! . . .

ثم حدج الفلاحين بعينين مضيئتين وهمس قائلا :

ــ لقد جئتم من الأماكن البعيدة . الى هذه الأرض رجاة قطف الأزهـــار الفواحة ولـكن ثقوا ايها البسطاء الذين احبوا هذه الأرض كما احبها آبائي ان هذا الجبين الذي تحدقون اليه ظل طاهراً نقياً كاعراف هذه الأزهار التي تطفتها ايديكم في هذا الصباح . . .

ان عدو وطنكم قد مضى راعشاً حينما اعجزه الخوف عن تدنيس هذه الأرض فبقيت زروعكم وحقولكم ارثا لكم اليوم ولابنائكم في الغد · ·

وعاد الى نفسه يهمس في قرارتها هذا الهمس الأليم ·

« انما الحياة كغلالة المو ج الرقيقة تذوب وتفنى في زواخر التيـــار العبوس

المكفهر . هكذا كانت حياتي ، ولكن فضيلة باقية تسللت الي من وطني ستظل في نضارتها فلا تحوطها اعصار اللجج . . .

لقد نذرت لوطني خلاصاً من الرومان فنع الموت هذه الأمنية الغالية ولكن المستقبل . المستقبل الذي لا تعرفون له صورة كفيل بتحقيق نذري . . .

والتمعت عيناه بضياء يطفح بالكبر فاذا هو ينظر الى فضاء دمشق الواسع فبسط يده الى ناحية هذا الفضاء وقال مردفاً :

— لم اعد اتوجس من النهاية . ليخيل الي وانا على فراش الموت ان جزيرة العرب تثب وتنهض . انها تحف تابوتي بصليل السلاح وقصف الأسنة . لقد جاءت الى لحدي لتسمعني انشودة انتصارها الأول والاخير على الرومان والفرس . .

ورق صوته بغتة حتى كاد يغيض . ولكن مشهد الفرسان الذين احدقوا بسريره اثار حماسته والهب شجاعته فمضى يتحدث الى نفسه قائلا :

« لقد كان رجالي فرسان الحومة وصناديدها وقد رمت بهم المعركة الى خوض « لججها المتدافعة فما نكصوا على الاعقاب . نظلوا متوغلين في زحفهم الى اراضي « العدو في صفرة الفجر . وفي حمرة الطفل .

« لقد رأيتهم يتفيأون اعلام غسان البيضاء كالصقور التي حفزها الطوى الاليم الى الفريسة فمضوا في زحفهم كالاتي المنبجس حتى انشبوا اظفارهم في الفريسة ثم عادوا يملأون الفضاء باناشيد غسان ولم ينسوا عظمة الوطن الاول . الذي لقنهم آية الانتصار حتى برعوا في حذقها . .

رأيتهم في ملحمة من الملاحم وقد اسدفوا ، فلم تمنعهم السدفة ان يتقدمو فصعدوا الجبل يطاردون عدوهم في ذرواته ورواببه . ثم لحقوا به الى السفوح حتى سدوا عليه الطريق . فارادوه على التسليم فسلم . ثم عادوا الي مرحين وادعين كأن تلك الليلة السدفاء التي ركبوا متونها في تلك الملحمة لم تضعف نشاطهم ، انهم يمتون الى حسب رحيق . تقاصرت همم الرومان والفرس عن بلوغه . .

اي فتية غسان ! دثروني بدثار كثيف فأن قر الموت قد بدأ يثلج نفسي . . ليتقدم ابسلكم وليخلع علي رداءه فليس يرد الى نفسي دفئها الذي تشتاقه غير رداء خاض صاحبه سعير الملاحم . .

ولم يعد يتكلم فلقد اصفر وجهه وغارت عيناه وانسدلت يده المرتفعة الى الفضاء على صدره فتقدم حنظلة زعيم العشرة من السرير وخلع رداءه على ذلك الجسم الذي بدأ يهمد وما ابث الصمت العميق ان غشي تلك الحجرة الفقيرة التي لا تزينها اعلام غسان، فركعت هند وليلى حيال السرير كأنهما تصليان صلاة هامسة ، واخذ الفلاحون الذين مثلوا دور الحرس والبطانة يجارون هندا وليلى في هذه الصلاة الساكنة

ولما غسا الليل فتح المنذر عينيه وهو يصيح صياحاً اليماً وقد ارتفع صـــدره وهبط . ثم تصاعدت زفراته فاذا لها صريروجيع . وشرع سكان القرية يتوافدون على المنزل وهم ينقلون الازهار والرياحين ليغطوا بها جسد اول ملك غساني صمد للعـــدو الاجنبي .

وكان مشهد الخريف في غوطة دمشق يضاعف روعة هذه المأساة ، فلقد تناثرت اوراق الشجر وحملتها العاصفة الى الابعاد الشاسعة . وغشيت ضفاف الانهر كمدة وجيعة وتعرت المروج من لباسها الانيق المستحب ، وسادت الجبال ظلمة كابية ماتت فيها الالون الفتانه .

في تلك الفينة شرعت ليلى الساحرة تتحدث الى الجماهير عن حياة بطل غسـان باهجة نخمة عالية اثارت حماسة القرويين والفرسان ، فوصفت طواف هـذا النسر العظيم بالآفاق الاجنبية في طنين العاصفة . في تجهم السحب الدكنـــاء ، في خفقة الامواج . ثم رفعت صوتها قائلة :

« لقد كان هذا النسر الكبير لا يمل الصعود في السماء . وكان يطمع في الوصول الى الشمس فلم يثنه الزمهرير عن التحليق فظل يصعد . ولم يكن يعـــلم ان الموت يقرض نفسه وهو دائب على صعوده كما تقرض الدودة قلب الشجرة في فصل

الربيع وكانت جراحه تنبثق من صدره وكبرياؤه تمنعه ان يحس انبثاقها لأن نشوة المجد قد هزت جناحه الى الايغال في الصعود . ولكن ايامه التي احرقها الاسى والألم لم تلبث ان اصفرت كما يصفر الورق تحت عزيف الشمال العاتية . فاذا تلك النسرينة الفواحة التي ملأت روحه توثباً ونشاطاً . تجف وتذبل ؛ ثم اذا جناحاه يحترقان حتى لم تعد لهما قدرة على الصعود ؛ فسقط على الارض بعد ان كاد يلامس بهاء الشمس

لم يلبث المنذر طويلا في رقدته ففتح عينيه للمرة الثالثة . وفي رفق رد البصر الى هند وراح يحتويها في صدره فاستخذت له . وتركته يعبث بشعرها وهي في مثل حزن هؤلاء الذين احدقوا به من قرويين وفرسان ورجال بطانة .

وفي خفة البرق المومض قال لها :

ـ لقد تألمت كثيراً حتى تراخى عنك صفاء العيش وسكونه وحتى ماثلت نفسك ارضاً لا تنبت الحب والعشب . .

ـ مولاي ؟

ـ دعيني اتكلم ؛

ـ ولكنك مريض وفي حاجة الى الموادعة وقد يرمض نفسك ان تسرف في الحديث . . .

ـ بالك من انسانة لم ينسها الم المنفى شيمة قبستها من ابيها . لقد كان ابوك نبيغاً شريفاً وكان من امتع امانيه ان تعيشي في كنف غسان عيشاً حالياً بالكبر والمجد ولكن هذا العيش الذي ارادك عليه لم يتسق لك فحملتك المكاره على متونها الى حياة تفاوح فيها الدم من كل جانب وكان حصادك من هذه الحياة البائسة الممرورة اغترابك الى وطن لم تهزك سماؤه . ثم موت اختك العليلة موتة بائسة . .

ـ مولاي . .

وتمايح المنذر من فرط الألم فانحى ناحية عمرو وقال له .

ـ وانت اقترب مني . . هات يدك ايها الفتى الذي سلخ شبابه في عيش نحيس

فدلف عمرو اليه حتى صاقب السرير فتناول المنذر يده وادناهـا من يد هند واستتلى قائلا :

ـ لقد كنتما شريكين في الألم . رفيقين في الأسى . فوجب عليكما ان تكونا شريكين في الفرح . انها اصبحت زوجك من هذه الليلة فلا يقصي احدكما عن الآخر غير الموت . ان في عينها فتونا كذلك الفتون الذي في عيني مارية ، وفي نبرات صوتها تلك النبرات المنسجمة التي في صوت مارية . وفي جبينها ذلك الصفاء الذي لاح لك في جبين مارية ، فاما وقد تشاركت الأختان صورة واحساساً وجمالا فقد وجب عليك ان تحب هذه حبك في الماضي لتلك ، تكلم ، اسمعني ارادتك .

فقال عمرو هامساً :

ـ لقد رضيت هذا الذي رضيته لي ولها .

فتمايد المنذر فرحا ثم التفت الى هند التي اخذت تمسح دمعها الدافق وقال لها :

ـ وانت ماذا تقولين ؟

ـ رضيت هذا الذي رضيته لي ولعمرو ، ومع ان الماً شديداً غمر محياهـا فقد ظلت رابطة الجأش لاتبدي ولا تعيد ، ثم ارتد ببصره الى هند وهمس في اذنها قائلا

ـ وانت ؟ ليس من شك في ان الآمنا المتشابهة ستحفزك الى البقاء في قصورنا؟

فقالت له ليلى وقد ارعشها صوته :

ـ مولاي . ان لي في ارض الحجاز حجرة منفردة سأمضي اليها واخلد الى صفائها

ـ اتذهبين الى الحجاز ؟

ـ نعم سأذهب الى الحجاز للبحث عن « سيد قريش »

فهزت كلماتها المنذر هزاً عنيفاً فصاح :

ـ اذا قدر لك ان ترى « سيد قريش » في الغد القريب فاحملي اليه تحية غسان.

ولم يعد في طوقه ان يتكلم ؛ ولكنه دار في رفق نحو ليلى وشبك ذراعيه فوق

صدره ونظر الى الساحرة نظرة المطمئن الى حديثها ولكن ليلى لم تتكلم بل ظلت تنظر الى هزال جسمه . بينما صرير صدره يقلق سمعها ويثير خاطرها !

وبغتة طلع القمر في سماء صحو ساجية فغسلت انواره ارض الحجرة ، وانتشرت خيوطها على وجه المنذر الشاحب فارعشته فاستفاق من ذهلته وطفق ينظر من النافذة الى مروج الضاحية وكرومها والى سواقيها المتناغمة الثرثارة فلم يلبث وروعة هذا المشهد تملأ جوانحه ان صاح :

— ما ابهى اعراف الوطن وما اجمل روابيه !

ولما حاول ان ينهض احاط به فرسانه ، واعانوه في نهوضه . فشخص الى ناحية دمشق المتوارية في ظلال المساء فعرضت له جبالها العارية ، في الأفق البعيد ، ولاحت لعينيه اوديتها الظليلة كزمردة نفيسة تتألق تحت الوف المصابيح ، ثم حدق البصر في السهل الأفيح وشهد الرعاة والفلاحين في اوبتهم الى منازلهم واوكارهم ، فتمثل الأقدام الأجنبية التي تفاوحت في ارض الوطن وخيل اليه ان وطنه يسبح في تعاسة مضنية . بل خيل اليه ان عزيف المياه في بردى عاد يصب في صدره نغمات موجعات اليمات فاستجاشت هذه الأحلام خواطره فهز رأسه من الألم وهمس قائلا :

« متى يطل سيد قريش ؟ . . .

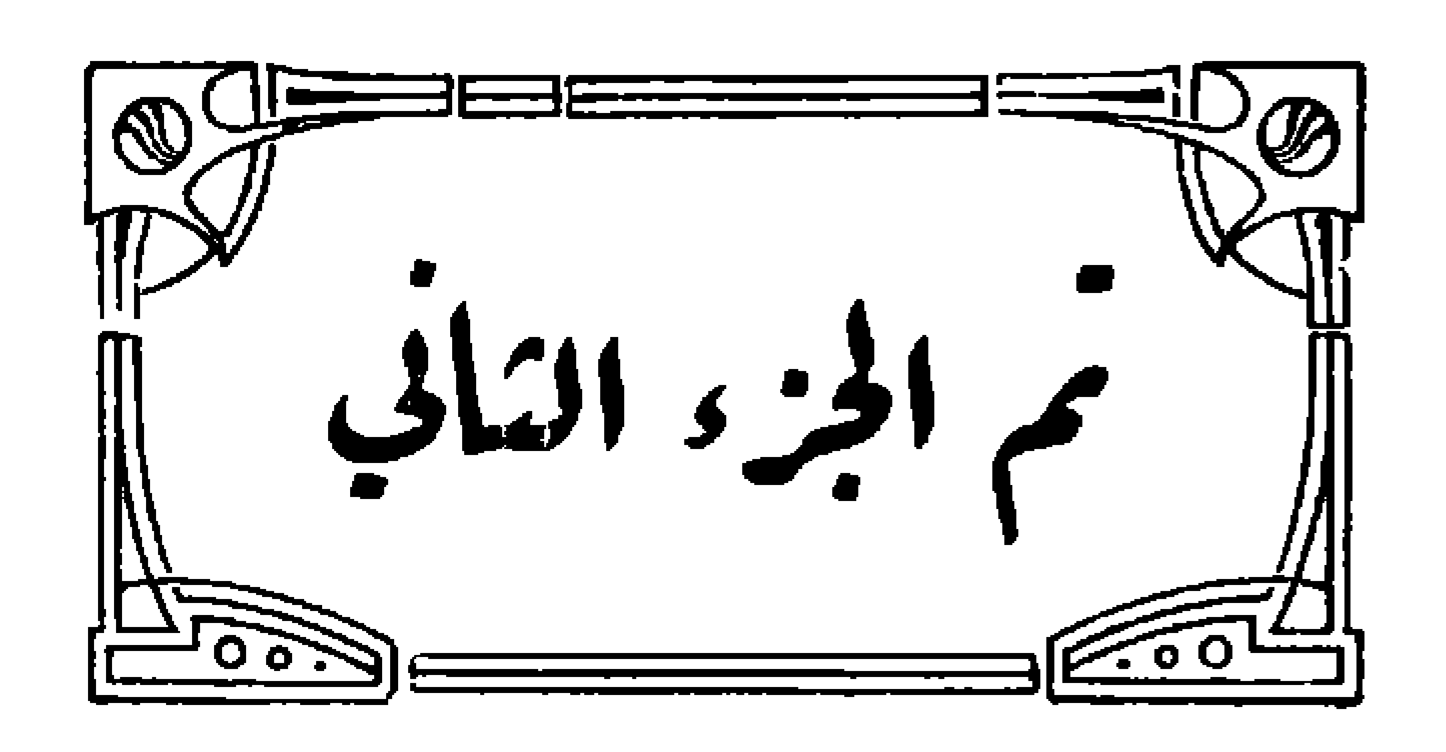
وانصت قليلا فاذا هو يسمع اناشيد الرعاة وقد احتوت كلها وصف هذه الأرض المقدسة الحالية بالمشاهد اللذة فرنحته كبرياء هذا الاديم المعطر ووثق بخلوده واستيقن ان الابطال والحماة يموتون وينقرضون ولكنهم يعيشون ويتجددون كما يعيش الوطن وكما يتجدد في اغاني هؤلاء الذين يمجدون الأرض والجبال والأنهار ومآثر العباقرة الماضين

وكاد اكثر من مرة يعود الى سريره ولكن اناشيد الرعاة حملته على ان يطيل التحديق في الأفق فلما تمثل بردى في وهمه صاح :

— ان حياتي تمر لتجد لها طريقاً الى الماضي كما تمر امواه هذا النهر في طريقها الى مصبها الأخير .

وداعاً . وداعاً ياثرى دمشق العطر ... وداعاً وداعاً ايهـــا الأفق الذي لايصدمه الغيم ، ولا يحجبه الثلج ، وانت ايتها النفس عودي الى منفاك الأخير في ذلك الظل الأخرس الذي يسمونه الموت !

ولم يقل اكثر من ذلك فسقط على فراشه جثة هامدة ، وخيالة المدينة التي احبها تطفو على جبينه الشاحب . فماثلت نهايته على هذه الصورة نهـاية البطل الذي حملته انتصاراته على الدنو من مدينة افتتحها فباغته الموت وهو على ابوابها ...؟؟



ملحق تاريخي

ملوك كندة و قياصرة الرومان

الملك الحارث بن عمرو المقصور

اشهر ملوك كندة عند الرومان هو الحـــارث بن عمروالمقصور — ٤٩٥ — — ٥٢٤ — للميلاد · والحارث هذا هو الابن البكر لعمرو المقصور وقد ولي امر كندة اثر وفاة ابيه · سنة ٤٩٥ ويقول مؤرخو العرب ان امه هي ابنة التبع حسان ملك اليمن ويقول بعضهم ان امه هي ام اياس ابنة عوف الثعلبية من بني ثعلبة البكريين ويظهر ان هذه الرواية هي الصحيحة لانطباقها على رواية تيوفان المؤرخ اليوناني الذي اسمى الحارث « اريتاس بن الثعلبية » واولاد الحارث هم خمسة · حجر والد امريء القيس الشاعر الملك · ومعدي كرب المشهور بالغلفاء وشرحبيل · وسلامة وعبـــد الله . وثلاث بنات احداهن ليلى (١)

قبائل معد وكندة

في سنة ٤٩٦ التحقت قبائل معد وبنو عبد القيس ابنـاء ربيعـة بن نزار بالملك الحارث واشتركت معه في حروب اثارها على المناذرة في العراق . والغساسنة في الشام

ويقول تيوفان المؤرخ اليوناني ان زعيمين كبيرين من زعماء العرب واحدهما حجر بن الحارث بن الثعلبية . والآخر جبلة اغارا في نفس السنة عـــلى الأراضي الرومانية في فلسطين وتوغلا فيها فاضطر قيصر الى ايفاد قائده رومين لمطاردتهما فلحق بهما وقاتلهما قتالا شديداً انتهى بانهزام جبلة ووقوع حجر بن الحـارث في الأسر . ومن السهل جداً ان يعرف القاريء ان حجراً هذا هو حجر بن الحـارث والد امريء القيس لأن تيوفان قد اشار الى زعامة ابيه في قبائل كندة ومعد امـا

---

(١) بطلة قصة « سيد قريش »

جبلة رفيقه ، فهو على التحقيق جبلة الكندي من ابناء معاوية الأكرمين ، وهو جد الاشعث احد مشاهير العرب وممن عاصروا النبي والخلفاء الأربعة .

ويقول تيوفان ان البطريق رومين الذي بعث به قيصر لمطاردة جبلة وحجر قد استأنف بعد ان تغلب على عدويه الزحف الى خليج العقبة ، وكان في حيازة امريء القيس من بني آكل المرار ويقول الاستاذ اري والعالم المستشرق كوسين دي برسفال ان امرأ القيس هذا هو ابن عمرو المقصور واسمه باليونانية Amrokése وقد حالف الامبراطور لاون في سنة ٤٧٣ واعتنق النصرانية . ثم دعاه الامبراطور الى زيارة القسطنطينية ففعل واستقبل بحفاوة فايد قيصر سلطانه على خليج العقبة

حجر بن الحارث بن عمرو المقصور

في سنة ٥٠٠ اخلى قيصر سبيل حجر بن الحارث فعاد الى بلاده وامتنع منذ ذلك اليوم عن اجتياح الاراضي الرومانية وهذا ماحدا بتيوفان الى القول بموته ولكن رواية تيوفان عن هذا الموت ليست صحيحة ، وذلك لأن حجراً عاش زمناً طويلا بعد افلاته من اسر الرومان !

ولكن تيوفان يعود فيقول ان اخاه معدي كرب واسمه عند الرومان Madicarim لم يلبث ان اغار على اراضي الرومان في فلسطين وكان عدواً لدوداً لقيصر فلم تستطع جيوش الرومان وصولا اليه .

معاهدة رومانية مع الملك الحارث

رأى الامبراطور انستاس ان يجعل بلاد الشام في مأمن من اطماع المناذرة ملوك العراق فاضطر الى ارسال سفارة برياسة جد نونوز والمؤرخ النسطوري الى الملك الحارث بن عمرو المقصور فعقد منه معاهدة صلح « سنة ٥٠٢ » والحق باراضيه قسماً كبيراً من فلسطين رجاة استمالته الى مقاتلة الفرس بجانب جيوشه

وفي سنة ٥٠٥ وضعت الحرب اوزارها بين انستاس قيصر وقباذ ملك الفرس فطلب العاهلان معاً الى حلفائهما العرب ان يكفوا عن القتال فلا يحارب الشآمي

العراقي ، ولا يحارب الكندي واحداً من الفريقين ولكن الملك الحارث الذي كان استقل بالامر في فلسطين لم يوافق على ماجاء في معاهدة الصلح المعقودة بين انستاس وقباذ ، فاضطر عظيم الفرس الى ان يعقد صلحاً منفرداً مع الملك الحارث بعد ان اعترف له بسلطانه على جانب كبير من اراضي العراق وبعد ان بعث اليه بالهدايا والاموال شريطة ان لا يبعث برجاله الى اراضي الفرس وعقيب ذلك توثقت الروابط بين ملك العراق امريء القيس الثالث بن ماء السماء وبين الحارث الكندي فزوج الحارث ابنته هنداً للمنذر بن امريء القيس اللخمي ثم مات الحارث في حادث ذكرته كتب العرب فلا حاجة لنا الى اعادته ·

امرؤ القيس بن حجر

هو الملك الضليل ، وامير الشعراء في العصر الجاهلي ، وقد اشتهر امره في العرب كثيراً اشتهار امره عنده الرومان واول من تحدث عنه من مؤرخي الرومان هو بروكوب ثم نونوزو واسمه عندهما Amaikése ويسميه تيوفان قيساً « Cays » وحكاية امريء القيس معروفة وقد فصلت تفصيلا تاماً في هذه الرواية فلا سبيل الى الرجوع اليها وانما نريد ان نقصر الحديث على علاقته بالرومان · وهي العلاقة التي ينكرها بعض كتاب هذا العصر ، انكارهم وجود امريء القيس نفسه ،ونظن ان في جلاء المصادر اليونانية مايقضي وقعة واحدة على اراء يريد اصحابها من نشرها ان ينزعوا من تاريخ العرب قبل الاسلام اجمل صفحاته !

يقول بروكوب ان امرأ القيس لم يجد بعد ان احاط به اعداؤه معدى عن الارتماء في احضان الامبراطور جوستنيان (يوستانيوس) فبعث اليه برسول يذكره بمعاهدة الصداقة التي ابرمت بين جده الحارث بن عمرو المقصور وبين الامبراطور انستاس ·

ويقول بروكوب ونونوزو ان الامبراطور جوستنيان الاول بعث في سنة ٥٢١ سفارة الى امبراطور الحبشة الذي كان يسيطر على اليمن فذهب السفراء ومروا في طريقهم باراضي كندة وطلبوا من امريء القيس باسم مولاهم

ان يظل على ولائه للامبراطور وان يضع جيوشه تحت امرة قواده لأصطناعها في قتال عرب العراق فرضي امرؤ القيس بذلك وبعث بولده معـــاوية الى القسطنطينية ليكون رهينة عند قيصر في مقابل ولائه ولـكن جيوش العراق لم تلبث ان هزمت امرأ القيس . ثم توغلت في اراضيه فهام على وجهه في البراري .

ومن هذه التفاصيل التي يرويها بروكوب ونونوزو يستحيل علينا ان نصدقان امرأ القيس هذا . هو غير امريء القيس الذي جاء ذكره في كتب العرب، والدليل البين على ان الانسجام ماثلفي مصيرالأول ومصير الثاني هو انامرأ القيس الوارد ذكره في كتب مؤرخي الروم .كبروكوب ونونوزو قد ختم حياته بتيه شديد في البراري ثم هو عاذ بجوستنيان قيصر فيالقسطنطينية ، وامرؤ القيس كما يقول الأغاني وكما يقول مؤرخو العرب قد ختم حياته بتيه شديد في البراري ثم نزع الى قيصر وامضى بقية عمره في القسطنطينية .

ويقول نونوزو وبروكوب ان الحارث بن جبلة الغساني كان الوسيط بين قيس وبين قيصر ويقول الاغاني وابن عبد ربه وابن الاثير ان الحارث بن جبلة كان الوسيط بين ملك كندة وقيصر الروم .

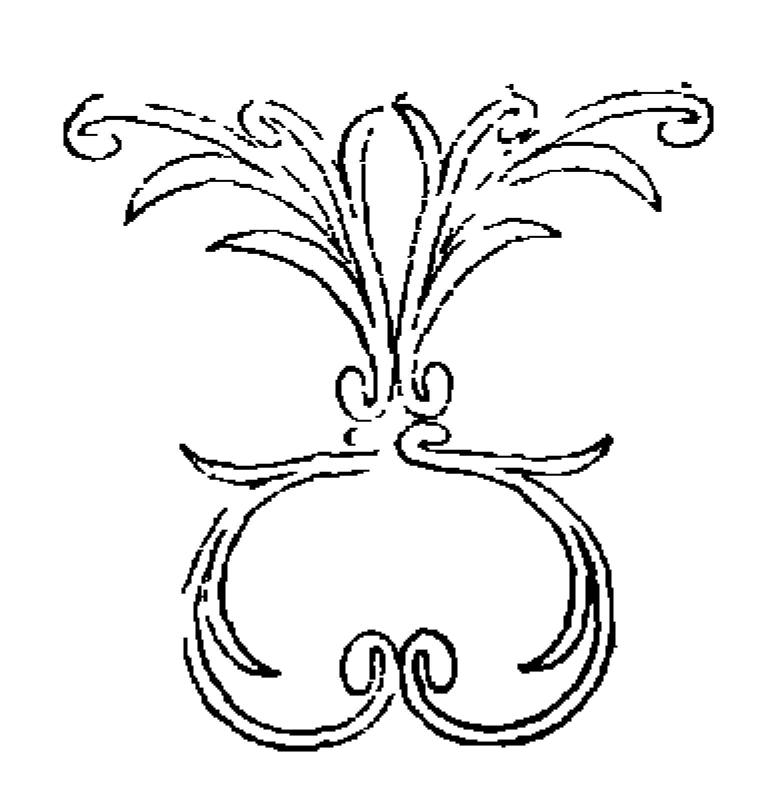
ويقول نونوزو وبروكوب ان قيصر قد قلد امرأ القيس امر فلسطين ومنحه لقب فيلارك ويقول الاغاني وغيره ان قيصر قد ولى امرأ القيس قيادة جيوشه ولم يختلف مؤرخو العرب ومؤرخو الروم الا عند تقرير مصـير امريء القيس فقد ذكر بروكوب ونونوزو ان سيد كندة قضى نحبه في الطريق عند خليج نيكوموديا « ازميت » ويقول مؤرخو العرب ان امرأ القيس مات مسمومـا بحلة كان قيصر اهداها اليه . فدفن في مدينة انقره من بلاد الروم !

وجاء في كتب العرب ان امرأ القيس احب ابنة قيصر وجاء في رواية نونوزو وبروكوب ان ملك كندة احب ابنة البطريق جوليان امير انطاكية فسـاعده قيصر على الزواج بها .

سفراء الرومان وكندة

قال كامرر مؤلف كتاب بطرا والنبط :

كان لقياصرة الرومان سفراء في كندة واول سفير مثل القسطنطينية في قصور آل آكل المرار هو نونوزو المؤرخ اليهودي وقيل انه نسطوري وقيل ايضاً انه من اصل سوري وقد كان جده من قبل سفيراً للقسطنطينية عند الحارث بن عمرو المقصور ملك كندة وقد تجددت مهمة نونوزو اكثر من مرة في بلاد العرب فبعث به الامبراطور جوستينان الاول سنة « ٥٤٠ » الى حجر بن الحارث (والد امريء القيس) اسمه عند الروم اوغاروس(Ogaros)وكذلك بعث الرومان بالاسقف بازيليوس سفيرا الى العراق ونجران وكانت سلطة بني آكل المرار تمتد من ايلة الى خليج العقبة وتشمل بلاداً كثيرة على الفرات وكانت بلاد النبط واقعة في اراضيهم وقد ظل الكنديون على ولاء الرومان الى حين ظهور الأسلام . ؟




Bibliotheca Alexandrina
02244582